سيكولوجية الضبط

الفهرست

١. نظرة عامة
٢. تقديم
٣. الباب الأول: الضبط العسكري
٤. الفصل الأول: مفهوم الضبط العسكري
٥. المفهوم العام
٦. المفهوم النفسي
٧. الفصل الثاني: عناصر الضبط
٨. العناصر الأساسية
٩. العسكري
١٠. الخدمة.
١١. التدريب.
١٢. الآمرون.
١٣. المعنويات
٩. الفصل الثالث: تعلم الضبط
١٠. عملية التعلم
١١. استمرارية التعلم
١٢. دورة اكتساب الضبط
١٣. الفصل الرابع: تقدير مستوى الضبط
١٤. تقدير المستوى في السلم
١٥. التقدير النسبي
١٦. تقدير المستوى في الحرب
١٧. تأشير المستوى
١٨. الفصل الخامس: الآثار المترتبة على هبوط مستوى الضبط
١٩. ماهية الآثار المترتبة
٢٠. الآثار المترتبة على هبوط مستوى الضبط في السلم
٢١. الآثار المترتبة عبى هبوط مستوى الضبط في الحرب
٢٢. تلقائية التأثير على الضبط في الحرب
٢٢. الباب الثاني: البيئة العسكرية والضبط
٢٣. الفصل السادس: الضبط في البيئة العسكرية
٢٤. البيئة العسكرية
٢٥. التنفيذ الطوعي للأوامر
٢٦. التوافق في البيئة العسكرية
٢٧. الفصل السابع: الضبط وخصوصيات البيئة العسكرية
٢٨. التداخل
٢٩. الأدوار التراتبية

٣٠. التطبع على وقع الحياة العسكرية
٣١. روح الجماعة
٣٢. المسؤولية الوطنية
٣٣. الخصوصية المهنية
٣٤. القدوة
٣٥. الفصل الثامن: الضبط وضغوط البيئة العسكرية
٣٦. الضغوط الفاعلة
٣٧. الخشية من الموت
٣٨. الشعور بالذنب
٣٩. العزلة
٤٠. التحسس الوجداني
٤١. الفصل التاسع: الضبط في حالات الاجهاد القتالي
٤٢. الخصائص النفسية والضبط
٤٣. الاجهاد النفسي القتالي
٤٤. مظاهر الاجهاد النفسي القتالي
٤٥. عوامل الاجهاد النفسي القتالي
٤٦. الاجهاد النفسي والطاقة
٤٧. التخفيف من الاجهاد النفسي القتالي
٤٨. العائد من احتمالات تقليل الاجهاد
٤٩. الفصل العاشر: الحزبية وعمليات الهدم المنظم للضبط العسكري.
٥٠. تاريخ النفوذ السياسي في القوات المسلحة.
٥١. النفوذ السياسي في القوات المسلحة والتأثير على الضبط.
٥٢. تبعييث القوات المسلحة، عملية هدم للضبط العسكري.
٥٣. سلطة ضباط الصف في عملية هدم الضبط.
٥٤. التدجين السياسي للمؤسسة العسكرية، وعملية الهدم المنظم للضبط.
٥٥. الخاتمة.

إهداء إلى

أولئك الرواد في هرم البناء العسكري العراقي، وقد وضعوا اللبنات الأولى لمسيرة البناء.

المنتسبون القائمون على بقاءه صرحاً منضبطاً كي لا ينهدم

نظرة عامة

تقديم

لم يعد القتال في العصر الحديث وفي جيوشه القائمة على الحداثة تسليحاً وتجهيزاً وتدريباً مجرد صراع مجابهة بين فردين يتقاتلان بالسيف في مكان لا تتجاوز مساحته عدة أمتار، يحسم الأمر بينهما في الغالب دون تدخل الآخرين قادة أو جنود عاديين، ليتحول المنتصر في جولة قتال مثل هذه فردية، لمقاتلة آخر وآخر حتى انتهائها في معركة قد لا يتلقى فيها الرابح أو الخاسر أمراً من الأعلى حتى فضها بشكل كامل.

ولم تعد معارك اليوم مجرد توجيهات لشق صفوف العدو أو دفع تشكيلاته القتالية خارج الساحة، تصدر أي التوجيهات في بدايتها، وقد لا تعدل حتى انتهائها. وعلى هذا أمكن القول وبكل بساطة، لقد تغير في العصر الحديث كل شيء، وفيه بات السلاح مختلفاً والتعبية مختلفة، وكذلك وسائل الاتصال والخطط وحجم الدمار وشدة الضغوط، وكم الخسارة، الأمر الذي تسبب في أن يكون الجندي المناسب لهذا العصر مختلفاً عن أجداده المقاتلين في طبيعته النفسية واستعداده للقتال وقدراته العقلية، وباتت الحاجة وشدة الضغوط وتفاصيل الخطط وأساليب القتال تتطلب أن يكون مقاتل هذا العصر:

١. منضبط.

ينفذ الأوامر التي تصدر اليه دون جدال، والمقصود بالجدال ذلك النوع من الحوار بين جهة اصدار الأمر أو تبليغه وبين من ينفذه فرداً أو جماعة، والذي تثار فيه أسئلة عن الدوافع وراء اصدار الأمر وأسباب اصداره، وغيرها أسئلة واستفسارات بقصد أومن غيره، يمكن أن تكّون اتجاهات لعدم التنفيذ أو تضعف دافعيته على أقل تقدير.

٢. مستعد.

أن يكون المقاتل مستعداً من الناحية النفسية الى تنفيذ الأمر أو المهمة ضمن الوقت القياسي الذي تدرب على التنفيذ في وقت حصوله، إذ أن المجابهة في موقف قتال خاص قد لا تستغرق من الوقت الا دقائق معدودات لا تسمح بوقت اضافي لتغيير مستوى الاستعداد، كما ان أي تأخير في مجالها خسارة لفرص متاحة، يمكن أن تؤدي الى خسارة المعركة برمتها.

هذا وان الاستعداد المسبق لتنفيذ الأوامر يعني ضبطاً جيداً يكتسبه المقاتل جندياً كان أم ضابطاً أم ضابط صف، خلال فترة التهيؤ والتدريب ويعني عملياً مستوى من الضبط يدفع العسكري في الموقف القتالي الى استخدام المُعدة أو السلاح بشكل صحيح بعد تلقي الأوامر وعلى وفق التوقيتات المطلوبة.

والاستعداد عملية لا تأتي من فراغ أو من مجرد العيش وسط بيئة عسكرية تمارس فيها الخدمة بوقع خاص، بل من اكتساب مستمر في عملية تعلم مستمرة لا يتوقف تأثيره عند مسألة تنفيذ الأوامر فقط، فحسن أو اتقان استخدام السلاح يتأسس على اكتساب المعرفة من خلال التعرض الى مواقف تعلم تؤدي الى تراكم متواصل لها، كافٍ لاستخدام السلاح بالشكل الصحيح... تراكم يتم على شكل مراحل وبمفردات ومواقف يلعب الضبط في جميعها دوراً كبيراً، اذ وكلما كان الضبط للمتعلم جيداً كان مقدار تعلمه أكبر وأسرع[1]، وكما سيأتي لاحقاً.

ان الضبط وعلى وفق هذه الأمثلة، وغيرها الكثير يعد القاسم المشترك الأعظم لإعداد الجيوش ومنتسبيها لأن تكون:

---

[1]. الدباغ فخري ومهدي قيس عبد الفتاح (١٩٨٦) علم النفس العسكري، بغداد، جامعة بغداد.

١. قادرة على تنفيذ مهامها في الردع أي الحيلولة دون حصول الحرب.
٢. خوض الحرب ومعاركها بقدرات كافية لتأمين النصر في مجالها ... معارك سيكون فيها:
آ. ضبط النفس والسيطرة على انفعالاتها لازماً في جميع مواقف التنفيذ للأوامر الصادرة.
ب. استخدام المُعدة "الجهاز- الاداة- السلاح "متقناً الى الحد الذي يكون فيه الاستخدام ضمن الوقت القياسي لاستخدامه.
ج. وسيكون فيها البطء والكسل وعدم المبالاة والتلكؤ مكلفاً.
د. وفي مجالها التعاون بين المنتسبين لابد وأن يكون بمستوىً عالٍ لتأمين الدعم والاسناد والنار والحركة والتخفيف من الضغوط وتعزيز الجانب المعنوي.
ان الضغوط على العسكري طوال فترة تواجده في الخدمة قد تتضاعف شدتها خلال فترة الحروب عندما يجري كل شيء تحت تأثير الشعور باحتمالات الخطر، لذا حتّمت الضرورة ايجاد اسلوب أو طريقة في السلوك تلزم جميع منتسبي المؤسسة العسكرية بتنفيذ الأوامر الصادرة تحت أقسى الظروف، وهوما اصطلح عليه الضبط العسكري.
على هذا وتبعاً للمنظور العام الى الضبط لم يكن أمراً متعلقاً بمعالم العصر الحالي، بل انه حالة ذات بعد زمني حيث وجدت مع الانسان منذ الخليقة، كأساس للسيطرة على انفعالاته، ومجال لتنظيم علاقاته مع الاخرين، وقد جرى التركيز عليه عند تطور المجتمع وظهور مفهوم الدولة وسن القوانين والتشريعات وتشكيل الجيوش، واستمر حتى يومنا هذا كعنصر مهم في بناء القوات المسلحة العصرية، ومؤشر عملي لكفاءتها وقدرتها القتالية.
كما ان الضبط العسكري، ورغم الأهمية التي تبوأها في ميدان إعداد القوات المسلحة الا انه كموضوع حيوي لم يناقش بالقدر الذي يستحق، مقارنته بالتدريب والتسليح والمعنويات والشؤون الادارية، وغيرها من مستلزمات وجود الجيوش وتعزيز عناصر قدراتها القتالية2، وهذا واقع حال يعزو البعض حصوله الى عدة أسباب الأهم منها:
آ. ان الضبط تحصيل حاصل ومسألة تقليدية مفروغ منها في بناء القوات المسلحة وتهيئتها، يتم من خلال التدريب والممارسة، ولا سبيل لإعطائها أكثر مما تستحق.
ب. ان المشكلة في موضوع الضبط، تتعلق بأساليب التطبيق ووسائل القياس حيث الكثرة والتشعب، التي لم يجد الباحثون العسكريون مجالاً للتوسع والخوض في تفاصيله.
ج. ويضاف الى الرأيين تصور ثالث يعتمد على طبيعة الضبط كسلوك انساني، وعلاقته بالحالة النفسية للفرد وبالعديد من المؤثرات الخارجية للبيئة العسكرية المحيطة، بالقدر الذي يؤشر صعوبة تناولها أو التحكم بها كما يجب.
٥. ان محاولة التركيز على موضوع الضبط في البيئة العسكرية يأتي بسبب طبيعة وظروف هذا النوع من الحياة التي سيتم تناول بعض خصوصياتها وتفاصيل خدمتها من ناحية، ونوع الواجبات المطلوب تأديتها من ناحية اخرى، وهي خدمة خاصة قد تفضي الى:
آ. الانقطاع السريع عن معالم الحياة المدنية.
ب. الابتعاد عن الاهل والمصالح الخاصة.
ج. ذوبان الفردية في إطار الجماعة.
د. التقيد بأساليب خاصة في الكلام وطرح الرأي والمأكل والملبس والنوم.

---

[2]. العبيدي، سعد، (١٩٨٨) الضبط العسكري، مديرية التوجيه المعنوي، بغداد.

هـ. التنفيذ الكامل للأوامر بغض النظر عن مسألة الاقتناع بها أو عدمه.
و. العيش أثناء الحرب حال من توقع الاصابة والفقدان.
ز. قبول الأعلى والانصياع الى أوامره.
ح. تنفيذ بعض المهام بطرق لا تنسجم والقيم التي يؤمن بها المنفذ.
٦. ان ما مذكور، وأمور أخرى سيرد ذكرها لاحقاً بين ثنايا العرض لبعض المواد ذات الصلة، تدفع الى تقديم الضبط العسكري في هذا المؤلف من منظار نفسي، لم يبتعد عن المنظار العسكري التقليدي، بل ويزيده ايضاحاً، اذ أن الضبط وفي كافة الميادين العسكرية وغير العسكرية في حد ذاته مسألة نفسية (ينتجها التدريب وأساليب التعامل والضوابط والمعايير السائدة في البيئة العسكرية) يتعلق البعد النفسي فيها بتلك العلاقة أو الصلة الموجودة له بخصائص الانسان ودوافعه وآرائه واتجاهاته في الزمان والمكان المحددين.3

---

3. ١. دافيدوف، ل. لندا، (1983)مدخل علم النفس، ترجمة سيد الطواب، دار ماكجروهيل، القاهرة، مصر.

الباب الأول
الضبط العسكري

الفصل الأول: مفهوم الضبط
الفصل الثاني: عناصر الضبط
الفصل الثالث: تعلم الضبط
الفصل الرابع: تقدير مستوى الضبط
الفصل الخامس: الآثار المترتبة على هبوط مستوى الضبط

الفصل الأول
مفهوم الضبط العسكري

المفهوم العام

إن الحياة العسكرية وكما ورد أعلاه حياة اجتماعية وسط بيئة خاصة، لابد وأن يتكيف المنتسب مع معاييرها، ومن جانبها أي المؤسسة العسكرية تقوم بتعليمه أنماط السلوك الخاص بها (السلوك العسكري) ضمن ضوابط وأسس يصطلح على تسميتها الضبط.
سلوك يميز الحياة العسكرية عن غيرها، ويحسب الأساس لتمشية أمور هيئاتها من وحدات ووحدات فرعية وقيادات وإدارات، أو بمعنى آخر هو الطاقة الماثلة أو المحرك الفاعل للجهاز المؤسسي العسكري الذي يعطيه قوة الدفع اللازمة لتكوين أدائه الجماعي وتحمل الضغوط الحاصلة بسبب طبيعة وخطورة هذه الحياة التي تحتاج الى قدر عالٍ من المهنية والصبر والتحمل واستعداد للتضحية.
على وفق هذا المنظور يعد الضبط هو اللبنة الأولى في عملية بناء الحياة العسكرية وتعزيز وتشكيل خصائصها، وتنمية القدرات وتكوين الأداء القتالي الجماعي لتحقيق الفوز في المعركة. وهو مصطلح عُرِف بشكل عام والضبط العسكري منه على وجه الخصوص تعريفات كثيرة لم تختلف في دلالاتها بالنسبة الى جميع الجيوش، والمؤسسات العسكرية العالمية، هذا ومن أكثر التعريفات شيوعاً للضبط العسكري هي:
١. الضبط هو الطريقة التي تُصهَر بها الصفات الأخرى كالشجاعة والتحصيل[4].
٢. انه القوة التي تتركز في نفوس العسكريين لتدفعهم أفراداً وجماعات الى تنفيذ الأوامر الصادرة إليهم والتي يعرفون أنها قد تؤدي بأعز ما يملكون وهي حياتهم[5].
٣. هو التدريب المؤدي الى النظام والطاعة والسيطرة على النفس ذاتياً[6].
٤. الضبط شعور بالمسؤولية وإدراك لأبعادها، وهو قناعة بشرعية الأعمال المناطة بالمقاتل وإيمان بضرورة تنفيذها.
٥. هو إنجاز الأعمال في الجيش بصورة منظمة وبدون تأخير بحيث يكون جميع المراتب منهمكين في أداء واجباتهم بدون مراقبة ليتمكن الجيش من الوصول الى غايته وهو تدريب الجنود وتهيئتهم للحرب[7].
٦. الضبط تصور يعبر عن الالتزام بقواعد السلوك العسكري والأنظمة والتعليمات والقوانين الصادرة عن هيئة اجتماعية أو رسمية. إنه التمسك والالتزام التام والدقيق بالنظام.. التزام وليس اختيار أو تطوع.
وبما انه اصطلاح عسكري ومعناه ينصرف لأغراض عسكرية بحتة فأن المفهوم الخاص له هو مجموعة الأوامر والتعليمات التي يتلقاها العسكري أثناء الخدمة ممن هم أعلى منه رتبة، وتنفيذها على نحوٍ يؤكد الدقه والسرعة في التنفيذ ومدى ارتباط الفرد بالجهاز الذي يقوم بخدمته[8].
٧. يعني الضبط، الجدية والالتزام والدقة وحسن أداء الواجب واحترام حقوق الآخرين[9].

---

[4] . البصائر، الشجاعة والضبط، العدد ٩ تموز ١٩٨٧، مديرية البحوث والخدمات النفسية، بغداد.
[5] . . العبيدي، سعد (١٩٨٨)، الضبط العسكري، مصدر سابق.
[6] . البصائر، التدريب على الضبط، العدد ١٠ أيلول ١٩٨٨، مديرية البحوث والخدمات النفسية، بغداد.
[7] . العبيدي، سعد (٢٠١٥) الشجاعة والخوف في المعركة، مركز الشرق للبحوث والدراسات، بغداد.
[8] . هيئة التوجيه السياسي والمعنوي، وزارة الداخلية والأمن الوطني الفلسطينية، المقدم تامر شحادة.
[9] . أحمد شوقي عبد الرحمن (١٩٤٨) فن القيادة وعلاقته بعلم النفس العسكري، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٨. هو القوة الرئيسة التي تتركز في النفوس وتكوّن الدافع لإنجاز الأعمال بدقة وطوعية من أجل تحقيق هدف مشترك[10].
٩. الضبط قوة تماسك الجماعة العسكرية والعمل بروح الفريق الواحد من أجل تحقيق أهدافها والحفاظ على سمعة وحدتهم ووطنهم وشعبهم وأمتهم[11].
إن التعاريف المذكورة عن الضبط وأخرى غيرها قريبة منها في المعني تجعله أي الضبط مفهوم يعبر عن التزام العسكري فرداً والعسكر جماعة بالتعليمات والضوابط والمعايير وخضوعهم الى الأوامر الصادرة من أجل تشكيل الأداء الجماعي لتحقيق أهداف محددة، وهو بالتالي مفهوم يتمحور حول الآتي:
١. تركيز العمل والتفكير وتوجيههما باتجاه تحقيق الهدف المطلوب.
٢. تشكيل روح الجماعة، ووحدتها الترابطية بالقدر الذي يمكنها من تنفيذ الأوامر (المهام) بقدر من النجاح في الظروف الصعبة الضاغطة.
٣. المساعدة في تعرف كل فرد في المجموعة على دوره فيها وبما يفضي الى تنفيذ المهمة جماعياً، ففي حضيرة المشاة مثلاً يتقدم الجنود في المعركة بالنار والحركة فيما بينهم حضيرة واحدة، أومنهم جميعاً وحضيرة أخرى من الفصيل، ويكلف عدد الرشاش بتغطية تقدمهم، وعدد الهاون بإسنادهم، أورمي قنابر دخان لستر تقدمهم، وهكذا آخرين ضمن الفصيل وبين الفصيل وفصائل وسرايا ووحدات وقيادات ضمن واجب هجومي أو دفاعي.
٤. التحرك باتساق يجعل الفرد العسكري ضمن المجموعة شاعراً بقوة وتكاتف الجماعة، وبما يزيد من اندفاعه وعلو معنوياته.
٥. التوقع الايجابي للنتائج، وقبول مآلها في حالات الخسارة الصعبة.
٦. انشداد الفرد العسكري الى غيره في المجموعة بالقدر الذي يشعره أنه واحد منهم يتبعهم ويتبعونه ومصلحته الخاصة تتحقق من خلال مصلحة الجماعة.
يتداول العسكريون مصطلحي الانضباط والضبط، والأول مفهوم شامل يتكون نتيجة لتعود النفس وقبولها النظام المطلوب عن طريق تكرار بعض أنواع التدريب، يحتوي ضمناً مجموعة عادات مكتسبة "سلوك "يتحلى به الفرد، ويسود بين الجماعة، وهو مفهوم يتداخل مع الثاني أي الضبط مع قدر من الاختلاف لغوياً.
اذ يعني الضبط في اللغة العربية، الحزم، وهو مشتق من الفعل ضبط يضبط ضبطاً، ويقال أن فلان لم يضبط عمله عندما لم يؤدي أو ينجز ما أريد تأديته كما يجب، ويقال هذا ضابط، أي قوي في عمله[12].
وعلى هذا يعبر مفهوم الانضباط عن الحالة النفسية التي تجعل الطاعة في تنفيذ الأوامر وفي كافة الظروف والمواقف سلوكاً تلقائياً أو يقترب من أن يكون غريزياً، لا يشكل حصوله ضغطاً أو عبئاً مضافاً على المنفذين.

[10] . محمد جمال الدين علي محفوظ (ب، ت) المدخل الى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الاسلامية، دار الاعتصام.
[11] الجمهورية اليمنية، الشرطة العسكرية، بحث منشور على الموقع.
[12] . خوري توما، جورج (١٩٩٦) الشخصية مقوماتها، سلوكها، علاقتها بالتعليم، المؤسسة الحامضة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.

المفهوم النفسي

١. ان متابعة المعنى العام وبضوء التعاريف المذكورة للضبط العسكري على مستوى الفرد والجماعة، وكذلك سلوك الاستجابة لدى العسكريين المنفذين للأوامر وسبل اكتسابه، يؤشر بوضوح أن الضبط:

آ. استعداد فطري موجود لدى الانسان منذ الولادة، ينمو ويتطور أثناء العيش داخل الأسرة التي تتطلب قدراً من الانصياع لتعليماتها وتوجيهاتها، وفي المجتمع الذي يحتاج التقيد بمعاييره القيمية، لتسهيل العيش في الحياة العامة من جهة، ولتنفيذ الأوامر في الحياة العسكرية التي تتطلب حتمية التنفيذ من جهة أخرى.

ب. قوة في نفوس المنتسبين الى المؤسسة العسكرية، تدفعهم الى تنفيذ الأوامر لا إرادياً وإن تطلب تنفيذ بعض المواقف القتالية التضحية بالنفس.

ج. الانجاز الأفضل للأعمال المطلوبة وبالمستوى الأحسن من قبل العسكريين المنفذين لتحقيق هدف مشترك.

د. تماسك المقاتلين في الموقف المحدد دفاعاً قيمياً عن الشرف العسكري، وسمعة الوحدة والمؤسسة والوطن.

هـ. الادراك الصحيح لواقع المسؤولية الاعتبارية والشعور الواعي بتحملها اتجاه النفس والجماعة والوحدة والوطن، والإيمان بحتمية التنفيذ وحب النظام وطاعته.

و. الصفة التي تميز العمل العسكري عن باقي الأعمال في البيئات الأخرى.

ز. الاستجابة الى الأوامر الصادرة تنفيذاً طوعياً لها، دون التدقيق بشأنها، أو الجدال حولها أو النقاش في موضوعها أو التردد والاعتراض على طبيعتها.

ح. السلسلة التي تربط بين تلقي الأوامر والاستعداد الى تنفيذها.

ط. ان الضبط على وفق هذه الأسس مجموعة من قواعد السلوك يجري التطبع عليها الى المستوى الذي يقتنع به المنتسبون من أن اداء معيناً، أو سلوكاً عسكرياً خاصاً مطلوب منهم:

أولا. التقيد به طوال خدمتهم العسكرية.

ثانياً. الادراك جيداً أن الانحراف عنه يضعهم تحت طائلة القانون.

٢. وهو بالتالي معايير تأسست عليها فلسفة للضبط العسكري، استمرت هكذا فاعلة عبر القرون، حاجة قائمة لكل الجيوش وفي جميع الأزمنة والأوقات، ليكون الاساس أو الصفة المميزة الى الخدمة العسكرية، وسيبقى هكذا دون اختلاف في الغالب الأعم.

ان استعراض بسيط للأدبيات العسكرية والنفسية يبين تعدد التعاريف التي سلطت الضوء على الضبط لكن أغلبها اشارت الى انه:

آ. اكتساب صفات مختلفة، لكل منها تأثير على نتائج القتال. أي انه تدريب منظم لقوى الذات النفسية يكسبها القدرة على السيطرة والتحكم والميل الى التنفيذ طوعياً.

ب. انه التماسك الاجتماعي بين الوحدات والمرونة العملية بين المجموعات.

ج. انه الصلابة الزائدة والمرونة الزائدة.

د. هو التفاعل شديد المفعول لكثير من العوامل المختلفة التي تستهدف غاية واحدة قوامها التنفيذ الطوعي للأوامر والتعليمات.

٣. ان هذا العرض الموجز لبعض المفاهيم التي تناولت الضبط بشكل عام أوفي مجاله العسكري على وجه الخصوص يشير الى ان الضبط يتضمن.
آ. سلوك الفرد والجماعة في الاستجابة لما مطلوب منهم في بعض المواقف، سلوكاً يعبر عن الدقة والجدية والالتزام وحسن أداء الواجب.
ب. حال موجود يمكن تنميته بالتدريب المتواصل.
ج. التزام بضوابط المؤسسة العسكرية وتقاليدها السائدة.
د. ثقة بالنفس وقناعة كاملة بقدسية الواجب.
هـ. انجاز العمل المطلوب دون مراقبة من الأعلى.
و. مفردات التدريب الذي يؤدي الى اكتساب النظام والطاعة والسيطرة على النفس ذاتياً.
ز. الشعور بالمسؤولية وإدراك لأبعادها، والقناعة بشرعية الاعمال المناطة بالمقاتل وايمان بضرورة تنفيذها لتحقيق الهدف.
ح. الاستعداد للخضوع الى سلطة خارجة عن الذات.
ط. الطاعة شبه الآلية (التلقائية) السريعة من قبل جماعة معينة "المنتسبون "بطريقة يمكن التنبؤ بها.
ي. موقف معين، وبصيغة تنفيذ يصعب خلالها مقاومة الأمر الصادر أو توجيه النقد اليه.
ك. القوة التي تتركز في نفوس العسكريين لدفعهم كأفراد أو جماعات الى تنفيذ الأمر الصادر إليهم.
ل. انجاز المهام في محيط العمل "الوحدة "بصورة منظمة، ودقة وسرعة وأداء الواجب بدون مراقبة للوصول الى غاية يسعى الجيش الى تحقيقها.
٤. بالإشارة الى بعض ما تضمنه الضبط العسكري في اعلاه يمكن النظر الى الضبط من الناحية النفسية الى إنه سلوك يستدل به على استجابة التنفيذ الطوعي للأوامر، والتوجيهات الصادرة، والالتزام بضوابط المؤسسة العسكرية وتقاليدها، لإنجاز مهمة ما دون متابعة أو رقابة.

الفصل الثاني
عناصر الضبط

العناصر الأساسية

إذا كان الضبط العسكري داخل الوحدة العسكرية أو خارجها وفي المؤسسة العسكرية أو بعيداً عن حدودها، سلوكاً فردياً أو جماعياً (وكما ورد في التعريفات والاشارات المذكورة في أعلاه)، ينم عن التوافق والانسجام مع متغيرات البيئة العسكرية بينها على سبيل المثال:
- القبول بتنفيذ الأوامر الصارمة مع الادراك الواعي في بعض الأحيان لمقادير المجازفة بالحياة.
- العيش تحت وقع الشدة الضاغطة لفترات زمنية طويلة نسبياً سواء أثناء الحرب أو في فترات التدريب والاستعداد للحرب.
- استمرار العمل في ترتيبات بيئية خاصة قوامها التراتب والتدرج العسكري والتنازل نسبياً عن الذاتية الفردية لصالح الذاتية الجماعية.
وينم كذلك عن التنفيذ الحازم للأوامر الصادرة من الأعلى والاستجابة السريعة لما مطلوب من قبل المستوى الأقل تراتبياً، فان مستواه أي الضبط يتكون في المعتاد من تفاعل عدة عناصر سيتم مناقشتها تحت العناوين الآتية:

١. العسكري.
٢. الخدمة.
٣. التدريب.
٤. الآمرون.
٥. المعنويات.

العسكري

لا يختلف أحد في الغالب مع رأي علم النفس الذي يؤكد على ان الناس يختلفون عن بعضهم البعض بمناح كثيرة رغم تشابههم في شكل الجسم ولون البشرة، أو الشعر والطول والقصر وغيرها من المعالم الظاهرة، الا انهم وفي النواحي المعرفية أي (التفكير، التذكر، النسيان، رد الفعل .... الخ) والانفعالية (الحب، الكره، الغضب ... الخ) لم يحدث ان تطابق اثنان حتى وان كانا من التوائم.

وتبعاً لهذه الحقيقة نرى صورة الأفراد الملتحقين الى الخدمة العسكرية بوجه عام وبداية التحاقهم يمتازون بالآتي:

١. التفاوت في الذكاء.

من المألوف أننا أو غيرنا نجد بين المنتسبين من هو أكثر ذكاء بالمقارنة مع غيره من الاخرين، وهو لهذا يكون أسرع ادراكاً للتعليمات والاوامر الصادرة. ويقصد بالإدراك هنا تلك العملية العقلية التي يستطيع بموجبها الانسان التعرف على العالم الخارجي (يدركه) من خلال المثيرات الحسية، والادراك في الأساس لا يتوقف عند التعرف على الخصائص الطبيعية للأشياء المدركة عقلياً، بل ويشمل المعاني والرموز التي لها دلالة بالنسبة للمثيرات الحسية، وهو معرفة الأشياء عن طريق الحواس، ويشمل ضمناً عملية التلقي والتفسير واختيار وتنظيم المعلومات التي يتم تلقيها عن طريق الحواس.

ان الادراك على هذا الحال يعد العملية التي من خلالها يجري تزويد الذاكرة والتفكير والتصور والاستدلال بالمعلومات الخام، لذا يؤشَّر أن الشخص الأسرع والأصح أو الأدق في عملية التلقي والتفسير والاختبار (الادراك) يكون في المعتاد أكثر قدرة من غيره على تنفيذ ما يدركه (الأمر الصادر)[13].

٢. التباين في الخصائص النفسية.

هناك نوع من المنتسبين يتسمون بالخضوع وعدم الميل الى المشاكسة أو المخالفة، لذا فان استعدادهم المسبق لتنفيذ الأوامر دون أية مشقة، أو معاناة بمستوى يفوق غيرهم، وبنفس الوقت هناك من يختلف عن هؤلاء تماماً، حيث الميل الى المخالفة والتحدي حتى دون وجود أي مبرر، لذلك فهم يتحينون الفرص لإبداء معارضتهم لأوامر مطلوب تنفيذها حالاً، أو توجيهات ينبغي الالتزام بها لاحقاً، وهناك مجاميع أخرى قد اعتادت منذ بداية وعيها، أو حياتها العملية ان لا تنفذ امراً الا بعد مناقشته، فهم والحالة هذه أميل الى الجدل والحوار ومحاولة ايجاد المبررات باستمرار، وعلى العكس من هؤلاء يمكن الملاحظة وبوضوح أن بعض المتطوعين وفي أيامهم الاولى يتسمون بالمرونة والقدرة على التكيّف والرضا عن الواقع، ويعتقدون أن كل شيء في حياتهم وفقاً لمشيئة القدر، ومن ثم فلا سبيل للمقاومة أو الرفض.

ان الاختلاف بين الناس في القدرات العقلية والقابلية البدنية والحالة النفسية مسألة عامة، تعود الى العوامل الوراثية أصلاً ومن ثم الى الظروف الخارجية المحيطة بالفرد نفسه، وتفاعل تلك العوامل (الوراثية أي الداخلية x البيئة أي الخارجية) يكوّن الشخصية وقدراتها في التعامل مع المواقف المحددة، بينها المواقف المطلوب تنفيذها بأوامر صادرة.

---

[13] . عزة محمد مصطفى وآخرون (ب. ت) مدخل الى علم النفس العام، جامعة حلوان، كلية الآب، قسم علم النفس.

إنه اختلاف في القدرات والامكانات يؤدي الى التباين في التفاعل والاستجابة للنظام، والضوابط السائدة في المؤسسة والتي تشكل الصفة العسكرية للمنتسبين ومستوى انضباطهم. وهي مؤشرات تعيها المؤسسات العسكرية جيداً، لذا تسعى الى تقريب استجابات المجموعة الى المستوى المطلوب، وتقليل التطرف في السلوك غير المرغوب تدريجياً، من خلال العديد من الاجراءات التدريبية والضبطية والادارية التي تجري في مراكز التدريب أوفي الوحدات الفعالة من أهمها:

آ. التعرف سريعاً على قدرة المتطوعين حديثاً، أو الملتحقين الى الوحدات تواً لإمكان تحديد الطريقة الملائمة في التعامل معهم، وبأقل ما يمكن من الخسائر النفسية، ومثل هذه الامور تبرز أكثر في مراكز التدريب، أو مدارس الصنوف، لان المجند أو المتطوع حديثاً لم تتح له الفرصة بعد لان يخبر (يجرب) الخدمة العسكرية والتزاماتها، فقد يشوب سلوك البعض نوعاً من المخالفة والفوضى.

ومن ناحية اخرى فان مجاميع كبيرة تلتحق مرة واحدة الى تلك المراكز مما يتحتم قيام الضباط بجهود كبيرة في التشخيص والتعرف على مستوياتهم المختلفة بهدف السيطرة والحد من عدوى السلوك غير السوي، ومن ثم الاستناد على تلك المعلومات في البدء بعملية التعديل والتشذيب باتجاه ترسيخ الضبط وتجسيده في سلوك الجميع.

ب. عدم اللجوء الى الاعلان صراحة بان هذا الفرد، أو تلك المجموعة غير منضبطة، أو مشاكسة منذ الايام الاولى للالتحاق، إذ ان التأكيد على ذلك في الشخصية ولأكثر من مرة، قد يؤدي الى ان تستمد تلك الصفات جزءاً منها، أو ان البعض من أنواع السلوك يكون مستنداً عليها في المستقبل، أو على أقل تقدير يمكن أن تحد هذه السمة في حال التركيز عليها من تأثيرات التحسب، أو التهيب من أن يكون المومى اليه مخالفاً، أو شاذاً في تصرفه، والتي عادة ما تكون موجودة في عقول الكثير قبل التحاقهم الى الخدمة العسكرية.

ج. عدم عزل المخالفين في حضائر، أو أرهاط لوحدهم أو التنكيل بهم أمام الاخرين، لأن المطلوب في هذه الحالة مساعدتهم على تجاوز العقبة التي تحول دون تقبلهم الحياة العسكرية وبأقصر وقت ممكن، ومن ثم بناء شخصيتهم المنسجمة ومستلزمات تلك الحياة وضوابطها العديدة.

د. الاشادة بالأفراد الملتزمين الذين يحاولون تنفيذ الأوامر أمام الحضور، ويفضل تشجيعهم على الاستمرار بهذا السلوك من خلال اثابتهم بنزول الى المدينة أو البيت مبكراً مثلاً، أو إجازة قصيرة، أو اعفاء من بعض الواجبات، حيث تؤدي هذه الاجراءات الى دفع الآخرين للاقتداء بهم من ناحية، والى تعزيز سلوك التقبل للضوابط العسكرية من ناحية اخرى.

هـ. إثابة السلوك الجيد وسيلة مناسبة لتعزيزه، يقابلها عقاب السلوك غير المنضبط بهدف تغييره، أو اطفائه (كما يعبر عنه في أدبيات علم النفس) الا ان المسألة في الايام الاولى تتسم بالتحسس في مجال استخدام العقوبة المناسبة، خاصة وان العديد من الافكار المشوشة قد علقت في اذهان قسم من المجندين، مثل:

- استخدام القسر أو الشدة في التعامل والحصول على الاستجابة المطلوبة.
- اللجوء الى السب والشتم أو الى الضرب كوسيلة عقاب.

ان مجرد استخدام الاسلوبين المذكورين، وغيرهما من أساليب مشابهة، يمكن أن يثير حفيظة البعض، ويدفعهم الى التحدي في جوانب أخرى، أو يدفع باتجاه عدم الانسجام مع الحياة

العسكرية عموماً، لذا أكد المختصون بان يكون العقاب منسجماً مع حالة الشخص نفسه ومتكافئاً مع شدة المخالفة، وأن يترك المعنيون فسحة امامهم لاستخدامها لاحقاً.
وبعبارة اخرى ان يعاقب المخالف بعقوبة مناسبة اولاً، ومن ثم تزداد شدتها تدريجياً، فاذا كانت المخالفة لأحدهم عبارة عن عدم اداء التحية، فلا يمكن ان تكون عقوبتها مثلًا السجن لعدة اسابيع، أو تشكيل مجلس تحقيقي، اذ ان العمل بهذا الاسلوب لا يبقي للضابط أو الآمر مجالاً لاستخدام العقوبة في ردع مخالفات أخرى أكثر شدة من الاولى، أي بماذا يعاقب مخالف غاب عن الوحدة لمدة يومين فيما إذا كانت عقوبة عدم اداء التحية ثلاثة أسابيع سجن، والمهم في العقوبة هنا ان تكون مناسبة للمخالفة المرتكبة وعادلة وآنية.
و. توفير بعض المستلزمات التي تساعد المتطوعين الجدد على الالتزام وعدم المخالفة، فاذا أريد لهم ان يكونوا نظيفي الاجسام حسني القيافة والمظهر، لا بد من توفير مياه كافية للغسيل وحمامات مناسبة للاستخدام.
وبنفس الاتجاه المذكور إذا ما كانت السيطرة على الرهط أثناء التدريب، وكذلك التقليل من الكلام الجانبي بين المنتسبين، والحد من بعض الحركات التي تثير الانتباه غاية مهمة لدى الآمر، لابد والحالة هذه من أن يدفع هذا الآمر الى أن يكون عدد افراد الرهط يتلاءم وقدرته أي الآمر، أو المعلم على فرض السيطرة، وهكذا في كافة مجالات العمل داخل الوحدة، أو مراكز التدريب.

الخدمة

إذا كان الناس مختلفين بطبيعتهم فان الخدمة العسكرية هي الأخرى مختلفة عن ظروف الحياة المدنية، وتتميز بضوابط وتقاليد يندر ان تكون موجودة في مجالات أخرى غيرها مثل:
١. أسلوب التخاطب بين المستويات الذي يحتم عدم اللجوء الى الصوت العالي في تبادل الحديث أو عند الدخول في نقاشات معينة.
٢. التقيد بالتوقيتات لما يتعلق بتناول وجبات الطعام والحضور والانصراف، ومواعيد النوم والنزول الى المدينة، أو الالتحاق يتطلب الالتزام بها جيداً أحد الضوابط العسكرية الفاعلة.
٣. التوحد في اللبس، وفي أثناء السير، وأداء الحركات الجماعية، ووضع الشارات الخاصة بالصنوف، كلها تدفع باتجاه توجيه السلوك الجماعي والفردي، بما يتلاءم والحياة العسكرية المنضبطة.
٤. الرتب والفواصل بين المافوق والمادون، وطبيعة القدم بين المستوى الواحد.
٥. الانتماء الى الوحدة قيمياً، اذ ان العسكري أينما كان ومهما كانت صفته يشعر دائماً بانتمائه الى الوحدة أكثر من اقرانه في المؤسسات المدنية، فهو في الحضيرة الأولى أو الفصيل الثاني أو السرية الثالثة أو الفوج الأول أو الكتيبة الثانية، تابعاً لهاً أو جزءاً منها.. مشاعر انتماء تدفع ولو لا شعورياً الى:
- التطبع على ما يجري في داخل تلك التنظيمات.
- الدفاع عنها في أغلب الأحيان.
٦. الالتزام الحاد، إذ ان العسكرية، وكما هو معروف مجتمعاً أساسه الالتزام يساعد وجود المنتسبين في تنظيمات خاصة على قيام الجماعة بالضغط على بعض افرادها باتجاه الانصياع لضوابطها والالتزام بتقاليدها، فأحيانا يشعر منتسبو المفرزة، أو الحضيرة والفصيل ان سلوك أحد زملائهم أصبح غير متوافق معهم، وقد يؤثر على وحدتهم، أو على سمعتهم أمام آمرهم، أو مقارنة بالحضائر والفصائل الأخرى، لهذا تبدأ هذه المجاميع بالضغط على ذلك المخالف حتى تحتويه، أو تبدل سلوكه باتجاه الانضباط أكثر.
٧. صرامة النظام. ان للحياة العسكرية ظروفها الخاصة حيث الصرامة الشديدة أسلوب لفرض النظام، وقلة التسامح على الخطأ سواء كان متعمداً أو غير متعمد، سياق متمم لتلك الصرامة اللازمة لتأكيد فاعلية النظام.
٨. خشونة أو صلابة العيش داخل المؤسسة العسكرية، اذ ان التقييد المفروض على فردية الانسان داخلها وطبيعة الاعمال التي تنجز يومياً، وأسلوب التدريب في الأجواء القاسية والنهوض الصباحي ثم التعداد والتفتيش، وغيرها من الأمور التي تجري عادة في الوحدات، تشكل أساساً للضبط، وتجعل المخالفة التي ترتكب في مجالات الخدمة تكون واضحة وشاذة عن السياق العام ومكلفة بنفس الوقت.
جميعها ضوابط ومعايير خدمة تساعد على تطبع المنتسبين بطابع خاص أساسه الضبط، والعمل على تفعيلها من قبل الجهات المعنية في مفاصل القيادة والهيئات يساعد كثيراً في تعزيز الضبط بين المنتسبين الذين يفترض تدريبهم على الالتزام بها وابقائها في داخلهم محركاً للضبط الذاتي، الى المستوى الذي يجعلهم غير راغبين في كسرها أو الخروج منها سعياً نفسياً للمحافظة على الصورة القيمية للوحدة والمؤسسة ومن ثم الجيش.

التدريب

ان التدريب عملية لاكتساب خبرات جديدة ومن النوع التي تحدد قدرات الفرد وتساعده على توجيه الفعل العسكري، لذا فانه، أي التدريب أحد العوامل الرئيسة في تنظيم سلوك المقاتل، وتحسين أدائه في الموقف المحدد، والتدريب وفق هذا المنطق يقسم حسب المجال المطلوب تحقيقه، الى:

- تدريب لاكتساب خبرات فنية، أي تعلم طريقة استخدام الأسلحة والمعدات.
- تدريب آخر لخلق روح الجماعة.
- ومن ثم تدريب لزيادة القدرة على التحمل.
- وهناك تدريب لتشكيل وتعزيز سلوك الضبط.

ان الأخير أي تعزيز سلوك الضبط هوما يعنينا في هذا العرض، إذ أن تخصيص جزء من الأوقات المخصصة للتدريب لأغراض الضبط مسألة ضرورية خاصة في الأيام الأولى لالتحاق العسكريين الى الخدمة في وحدة تخوض قتالاً، أو خلال مرحلة إعادة التنظيم بعد ان أمضت الوحدات فترات طويلة في الحرب والمعارك المستمرة التي اثرت على مستوى الضبط.

ان البداية في التدريب على الضبط تعتمد على بعض الحركات البسيطة مثل الاستعداد والاستراحة، أو حركات السلاح بكافة أنواعها، وأداء التحية بصورة منفردة أو جماعية، وغيرها من المفردات التي تتطلب من العسكري الاستجابة السريعة لإيعاز من المعلم، أو آمر الحضيرة أو الفصيل أو السرية صعوداً، وان الغرض من تكرار تلك الأوامر في الأيام الأولى جاء بهدف خلق نوع من الاستعداد النفسي لتنفيذها، هذا وان التعود عليها وقبولها طوعاً سيهيئ العسكري للاستجابة الى الأوامر الأكثر صعوبة خاصة اثناء الحرب والمعارك الشديدة.

ان إجراءات التدريب وتفاصيله لا تقتصر على تلك الحركات الفردية، بل ستشمل بالضرورة ما يتعلق بحالة الضبط الجماعي باعتبار الأداء العسكري في غالبه جماعياً، لذلك يصبح ما يؤديه الرهط، أو الحضيرة في التدريب على الضبط الجماعي، الصيغة الأساسية الأولى التي يمكن ان تشكل البداية المقبولة لحركات منسقة موحدة لمنتسبيها، بعدها يتم الانتقال الى مستوى الفصيل والسرية صعوداً الى مستوى الوحدة، أو أكثر عند الضرورة.

ان تأدية الحركات الجماعية ومن ثم التعليم المنضم، والمسير على الموسيقى بمستوى الفصيل والسرية، أو الوحدة ضروري لإيجاد وحدة الجماعة وانضباطها المشترك وهي حالة مطلوبة لتشكيل سلوك الانضباط الطوعي بعيداً عن تكرار الأوامر والمراقبة المباشرة، أي ان المقاتل يجد نفسه يسير وفق وتائر معينة وحركات موحدة مع غيره، وهذا يدفع المؤسسة لأن تعمل على جعل المقاتل المنضبط يشعر بما يلي:

١. انه جزء من الجماعة/ الوحدة التي ينتمي اليها.
٢. ان أي مخالفة يرتكبها يمكن أن تؤثر على الصورة العامة لمجموعته.

ان مثل هذه الاحاسيس والمشاعر ضرورية في القتال الفعلي، خاصة عندما يُنفذ المقاتل وزملاؤه بعض الواجبات بعيداً عن المراقبة المباشرة للآمر أو القائد، وبذلك يكون هذا النوع من التدريب مهماً في الحياة العسكرية وعنصراً فاعلاً في خلق حالة الضبط.

ان التدريب موضوع واسع وسيتم التطرق الى المزيد من التفاصيل والى علاقته بالضبط لاحقاً وتحت عنوان التعلم.

الآمرون

يأتي تعريف الآمر من طبيعة الدور الذي يمارسه في التنظيم، ووفق هذا المنطلق فان الآمر هو الشخص المسؤول عن قيادة الوحدة، وتخطيط وضبط وقع حركتها وتنفيذها المهام من خلال موقعه في سلم القيادة، وهو المعني بتوجيه مرؤوسيه، والاشراف عليهم، ومراقبة أدائهم، والتأكد من انه أداءٌ يتفق مع الأهداف المطلوب تحقيقها، ومن خلال هذه المسؤوليات فانه يمارس وظيفة تنظيمية تتعلق بتوزيع المهام والواجبات بين منتسبيه، وتحديد مسؤولياتهم وسلطتهم ومحاسبتهم عن أي قصور في ذلك.

هذا ويعتبر الآمر رمزاً للسلطة الإدارية والابوية من الناحية النفسية، والتي تقوي من إمكاناته في قيادة منتسبيه عندما يستطيع ان يكيّفْ سلوكه وفقا لما يلي:

١. تمثيل الصورة الصحيحة.

يعتبر الآمر وفي كافة المستويات أنه الموجه المباشر لسلوك الاخرين أي منتسبوه، ويمثل من خلال هذا الموقف كل اهتماماتهم وتطلعاتهم، إذ وبالوقت الذي يكون فيه قادرٌ على إعطاء الصورة الصحيحة لتنفيذ تلك الاهتمامات، يكون هومن جانبه وفي قيادة المجموعة، أو الوحدة بمستوى عالٍ من الضبط، فهو في الواقع النفسي، الصورة التي يتمثلها المقاتلون دائما، فقيافته محط انظارهم باستمرار، كذلك الحال بالنسبة الى استجابته لأوامر الأعلى، ومدى استعداده في تنفيذها، وطريقته في مخاطبة الآخرين من معيته.

هذا ويقع البعض من الضباط في أخطاء جسيمة عندما لا يأخذون هذا التصور بنظر الاعتبار، ويظنون ان منتسبيهم غير معنيين بكلامهم، أو مناقشاتهم وآرائهم استناداً الى الفارق الاجتماعي، أو الرتبي الكبير بين المستويين، والعكس هو الصحيح حيث ان العسكري (الاعتيادي أو الطبيعي) يتطلع دائماً الى آمره مثل تطلعه الى الوالد محاولاً ارضائه، أو تقليده في العديد من معطيات السلوك الدارج، وأي تجاوز منه على الضوابط والقوانين، والأعراف السائدة سيكون تأثيره كبيراً على الضبط، لأنه سيشوه بذلك الصورة الأبوية المرسومة في مخيلتهم. هذا وتشير الخبرات الى ان أهم الأخطاء التي ترتكب من قبل بعض الآمرين والتي يمكن ان تؤثر على مستوى الضبط هي:

آ. قصر النظر. في التعامل مع المادون ومن تصورات ذاتية تستند على الفارق في مستوى إدراك الواقع المحيط، مما يدفع البعض الى التصرف بمعزل عن الاخرين والتمادي في الخطأ دون أن يعي من أن سلوكه مرصوداً، أي بالمعنى الآخر تكون كل اهتماماته وتطلعاته ومشاغله بعيدة عن اهتمامات، أو معاناة ومشاغل معيته.

ب. عدم تحمل المسؤولية. فيما يتعلق بأعمال الاخرين، أو اخطائهم غير المتعمدة، فاذا كان للآمر ان يكون قدوة، ينظر اليها الجميع بتقدير واحترام، لابد وان يتحمل مسؤولية بعض الأفعال التي يرتكبها قسم من المقاتلين دون قصد، خاصة ذلك النوع من الاعمال الذي لا يؤثر على مستقبل الوحدة وأمنها، فعلى سبيل المثال فان انتشار حالة الغياب في فصيل ما لابد وان يكون الآمر بشخصه، أو بأسلوبه في التعامل جزءاً من الأسباب المباشرة للغياب، كذلك الحال بالنسبة الى عدم أداء التحية من قبل أحد منتسبيه لضابط آخر في الوحدة، لابد وان يكون موضوع عدم قدرته على افهام ذلك المقاتل قيمة التحية واهميتها، من بين الأسباب التي دفعت المقاتل الى ذلك السلوك غير المنضبط.

وفي الوقت ذاته إذا حدث شجار بين منتسبي الفصيل، وفصيل آخر لابد وان تكون الذاتية، وضعف روح الجماعة التي أساسها الآمر من بين أهم الأسباب الكامنة خلف هذا التصرف غير الصحيح. وهكذا الحال في الجوانب الفنية العديدة والمتشعبة.

ان الضابط الجيد، أو من صفات الضابط الجيد تحمل مسؤولية الموقف، وعدم التنصل أمام الأعلى عند وقوع مشكلة ما، وأن لا يحاول رمي الخطأ على اكتاف الاخرين والخروج من الموقف بسلام، لان خروجه هنا قد يعفيه من المساءلة القانونية فقط، الا ان مسؤوليته الاجتماعية والأخلاقية ستتأثر، ومن ثم سيقضي بسلوكه هذا على الاستعداد النفسي الموجود لتقبل أوامره، علماً ان تحمل المسؤولية يزيد من ثقة الآمر بنفسه وثقة معيته به، ويدفعهم الى تقليده والاقتداء به، أما المغالاة في الابتعاد عن المسؤولية خشية الوقوع في الخطأ، سيبعدهم عنه، ويقلل من رغبتهم في تنفيذ أوامره[14].

ج. التردد في اتخاذ القرارات. تلك القرارات التي تعبر عن جوهر الحياة العسكرية، واسلوبها المميز في قيادة الأفراد سلماً، أو اثناء الحروب، واتخاذ القرار المناسب في الزمان والمكان المناسبين، هو أحد عوامل نجاح القادة والآمرين في اشرس المعارك واشدها قساوة، لذا فان الإصرار على اتخاذ القرار وضرورة البت في الأمور المطروحة يكون ضرورياً لبناء شخصية الآمر، وتحسين صورته المثالية بين منتسبيه، إذ ان التردد، أو تجنب اتخاذ القرار لأي سبب كان، يضعف الآمر عندما يحاول اصدار أوامره في مواقف أخرى.

د. سرعة تغيير القرارات المتخذة. من البديهيات المعروفة ان القرارات المتخذة عبر العصور لا يمكن ان تكون جميعها صحيحة، فالبعض منها خطأ في قسم من جوانبه والقسم الاخر خطر، وهناك نوع من القرارات يكون نافعاً للبعض، ومضراً للبعض الاخر في الوقت نفسه، ومثل هذه الحقائق لا تسقط حق القادة في اتخاذ القرارات، الا إذا كانت مفيدة للجميع دون استثناء، أو صحيحة تماماً.

إذا كان هذا المنطق صحيحاً في الحياة العامة، فانه يتجسد بشكل أكثر وضوحاً في ظروف الخدمة العسكرية، فالقرار على عقوبة كل منتسبي السرية لا يعني ان الجميع قد ارتكبوا مخالفة أو جناية يستحقون عليها العقاب ذاته، أو القرار على سجن أحد المراتب لتطاوله على آمر الحضيرة لا يلغي احتمالات خطأ آمر الحضيرة، وهذا واقع حال ينقلنا الى أهمية القرارات في مجال التعامل بين المافوق والمادون، وضرورة الالتزام بها بعيداً عن العاطفة وتأثير الآخرين.

هذا واذا كانت تلك الأهمية تحتم اتخاذ القرار، فإنها تتطلب أيضاً التمسك به، وعدم التنازل عنه، أو تغييره الا تحت ظروف تتطلب ذلك فعلاً، لأن آثار الغائه ستكون سلبية على الضبط والالتزام، فاذا قرر الآمر حرمان مقاتل من النزول الى المدينة على سبيل المثال، وبعد عدة دقائق قرر الغاء اجرائه هذا، نتيجة تدخل الآخرين سيضعف سلطته هو، ومن ثم قد يدفع البعض من معيته الى عدم الالتزام، أو ارتكاب المخالفات ايماناً منهم بان أي قرار بالعقوبة

---

14. ان خاصية عدم تحمل المسؤولية عند الآمرين من مستوى الفصيل صعوداً، ظهرت في الجيش العراقي بشكل ملموس إبان الحرب العراقية الايرانية، عندما شرعت القيادة السياسية "المدنية" العليا التي تدير الحرب في التدخل بالشؤون المهنية للعسكر وكذلك في القضايا التعبوية، وعندما توسعت في توجيه العقاب على النوايا في بعض الأحيان، وأخطأت في تحديد نوع العقاب للمستوى الذي يصل حد الاعدام ومن بعد فترة يتبين أن المعدوم بريء وبالمحصلة أصبح الآمر متوجساً يحسب الكثير من الحسابات في اصدار وتنفيذ الاوامر، ساعياً الى إشراك الآمر/ القائد في المستوى الأعلى في القيادة بكل صغيرة وكبيرة، وبالمحصل أصبح البعض غير القليل يتسمون بعدم تحمل المسؤولية.

يتخذه الآمر يمكن تغييره سريعاً، ومثل هذه الأمور تؤدي الى التفكير ملياً بموضوع لابد للآمرين من أخذه بنظر الاعتبار، وهو دقة القرارات المتخذة وعدالتها التي تتأتى عادة من تجاوز حالة الانفعال، وعدم اللجوء الى اتخاذ القرار في ظروف التوتر والغضب، لان جزءاً كبيراً منه جاء لتنفيس معالم ذلك الانفعال، وبالتالي سيكون قراراً قاسياً، ويمكن ان يشعر الآمر بشدته حال العودة لحالته الطبيعية، وقد يلجأ الى تغييره تحت تأثير الضمير، أو بسبب تدخل المافوق وهي إجراءات كان يمكن تلافيها مسبقاً للمحافظة على جدية الآمر وانضباطه العالي وضرورة تنفيذ أمره. وهنا تجدر الاشارة الى أن اتخاذ القرارات ومن ثم الغائها وفيما اذا تكررت لدى الضابط أو الآمر نفسه ولعدة مرات وان كانت متباعدة زمنياً، تحسب وعلى وفق مفاهيم علم النفس العسكري على انها ضعف في الشخصية.

هـ. المغالاة بالذاتية امام المنتسبين. ان من بين الاضطرابات السلوكية التي تتكون لدى البعض هي حب الذات المفرط، أو ما يسمى بالنرجسية أحياناً، حيث يكون محور الاهتمام ذات الانسان فقط، دون اعارة اية أهمية لشؤون وذوات الآخرين، وبذلك يسعى مثل هؤلاء وتحت تأثير حبهم لأنفسهم الى ادعاء المعرفة، أوان ينسبوا لأنفسهم كل الاعمال الجيدة والصحيحة، وبالوقت نفسه، وتحت تأثير الأسباب نفسها، يدفعون الأخطاء على الغير مهما كانت النتائج، ورغم ان مثل هذه الصفات موجودة عند البعض في حالة الاستقرار، الا ان آثارها تكون بادية للعيان ومؤثرة بشكل جلي في حالة الحرب، عندما تحقق السرية، أو الوحدة، أو التشكيل نجاحاً ملموساً ويحاول المعني الادعاء بان تحقيق ذلك النجاح يعود له وحده، سواء من خلال الخطط الموضوعة، أو بأسلوب القيادة، أو بالذكاء المتميز، وغيره من الصفات دون ان يدع حصة للمقاتلين الآخرين الذين كانوا أساس النجاح عملياً، وأصحاب هذا السلوك من الآمرين وبكافة المستويات، سرعان ما يفقدون احترام وتقدير معيتهم، والتي تكون من عوامل هدم الضبط العسكري الطوعي[15].

٢. السلطة الضابطة.

إذا كانت الصورة المثالية أو القدوة في السلوك تمثل الجانب الأول لنظرة المقاتلين اتجاه آمريهم، فان الجانب الثاني يتمثل في كون الواحد منهم هو السلطة الضابطة، ويقصد بالسلطة الضابطة، ذلك الحق المكتسب الذي يمنحه المنصب لشاغله، وهي القوة التي تعطى الى القائد/ الآمر الحق في إصدار الأوامر الى المرؤوسين، وتوجيههم الى أداء المطلوب منهم، هذا وان الآمر وفق سلطته هذه يصبح مسؤولاً عن تطبيق القانون في فصيله، أو سريته، أو وحدته صعوداً الى المستويات الأعلى، وعلى وفق الصلاحيات المخولة له في تطبيق مفرداته.

---

[15] . حدث بعد العام ١٩٦٨ ومن بعده عام ١٩٨٠ على وجه الخصوص أن اتجهت القيادة السياسية الحزبية البعثية للبلاد الى التدخل في شؤون العسكر جميعها، حتى الجوانب المهنية، واتجهت الى أن يكون الترشيح الى شغل مناصب القيادة من قبل الحزبيين، وكذلك الحال في التثبيت والترقية لاستلام مهام أعلى على وفق بعض الاعتبارات الحزبية والولائية، عندها بدأ توجه لدى البعض من الآمرين لتقوية مواقفهم بالتأسيس على سرقة جهد الآخرين، وفي الحروب وعندما شرع الى التكريم دون ضوابط بمنح المُكَرَمَينْ (رتب وقدم عسكري وسيارات وقطع أراضي) بات بعض القادة والآمرين يدعون تحقيقهم الانتصارات أو ينسبونها الى أنفسهم أو يحشرون أسماءهم مع أسماء الآخرين الذين حققوها بالفعل، وبدأ البعض أيضا الطلب من بعض منتسبيهم اعداد مقالات أو بحوث أو حتى رسائل ماجستير ينسبونها لهم، وهو سلوك وعلى الرغم من تصنيفه سلوكاً فاسداً الى ان وقعه لم يقل بعد العام ٢٠٠٣ على الرغم من سقوط ذاك النظام الذي تسبب في حصوله، بل وقد زاد في بعض الأحيان وبدا واضحاً بشكل أكبر. علما أن هذا السلوك وان أسهم في استشراء الفساد فهو قد قرب المسافة النفسية بين الآمر والمرؤوس الى حدود أسهمت في الإخلال بمعايير الضبط وهبوط مستوياته.

ان تنفيذ تلك الصلاحيات بشكل صحيح يساعد على إيجاد الضبط، وتعزيزه في الوحدة المعنية، اما الابتعاد عن الواقع، أو المنطق في التطبيق سواء في التراخي، أو التماهل، أو في التطرف والتشدد يؤديان كلاهما الى خلل في معالم الضبط.
ان المعايير والضوابط العسكرية المكتوبة منها، أو المتداولة في الوحدات عبر الزمن، أو القوانين المسجلة، وُجِدَتْ جميعها من خلال خبرات وممارسات قريبة من الواقع، فعندما يصاغ قانون يوقع عقوبة صارمة بمن يتغيب في حالة الحرب، لم يأت جزافاً، بل كان نتيجة لدراسات وآراء وتجارب شملت ظروف المقاتلين أنفسهم، وتأثيرات ذلك على حالة الجيش في أهم الفترات وأكثرها حساسية على مستقبل البلاد في مواجهتها لأعدائها، وهذا يوجب تطبيقه من قبل الآمر على منتسبيه حرفياً وبالتساوي.
هذا وان سلطة الضبط تضعف، أو تقوى تبعاً لعدة عوامل أهمها الآمر نفسه بقدرته وأسلوبه ومعلوماته وعلاقاته وانضباطه وإخلاصه، وغيرها من الأمور المتعلقة به. وبهدف ترصين تلك السلطة وزيادة فاعليتها يمكن ملاحظة بعض النقاط أهمها:
آ. فهم القوانين العسكرية وسبل تطبيقها. اذ ان الغاية الأساسية لتطبيق القوانين في المؤسسة العسكرية هي تشكيل سلوك الافراد، تبعاً لما تقتضيه الضوابط والأعراف العسكرية، وتهيئتهم لتنفيذ ما مطلوب منهم من مهام في كافة الظروف والمواقف، لذا يكون لزاماً على الآمرين بشكل خاص والضباط في المستويات القيادية بشكل عام ان يدركوا طبيعة تلك القوانين، وماهية الصلاحيات التي تخولها لهم تلك القوانين في قيادة منتسبيهم، وهذا الفهم والتصور يعطي الآمر حقوقاً في تطبيقها في الزمان والمكان الملائمين دون أية بوادر، أو ردود فعل سلبية، خاصة في الوقت الحاضر الذي اصبح فيه معظم المقاتلين بمستوى ثقافي متقارب مقبول، يؤهلهم على معرفة ما تستحقه كل مخالفة من عقوبة، طبقاً للصلاحية والقوانين العسكرية، ويمكن ان يجنبهم بنفس الوقت عدوانية أولئك المخالفين الذين يلجأون في حالة عدم اقتناعهم بها، الى التقليل من قيمة الآمر سواء بالكلام، أو بارتكاب المزيد من المخالفات، وفهمها جيداً سيقوي أيضاً من موقف الآمر تجاه تأثيرات الضباط، أو قادته الذين قد يطلبون الغاء عقوبة، أو تأجيل قرار تبعاً للتأثيرات والظروف المختلفة.
ب. التطبيق العادل للسلطة المخولة له. ان سلوك الانسان محكوم بحاجات معينة وانفعالات متنوعة، تشكل معظمها دافعاً للتصرف غير السوي باتجاه التعامل مع المنتسبين، أو بالنظرة اليهم في مجال الحقوق والواجبات، والآمر الناجح في واقع الحال هو من:
- يستطيع ان يعزل حالته الشخصية، أو مشكلاته النفسية جهد الإمكان عند حال التعامل مع المواقف الضابطة.
- يبتعد عن المؤثرات البيئية السلبية، أو الاضطرابات الاجتماعية العابرة، خاصة فيما يتعلق بالتعامل وفق المعرفة، أو القربى والمحاباة التي تؤثر جميعها على طبيعة السلوك، وتكبله باتجاه إمكانية اتخاذ ما يلزم لتصحيح الخطأ.
ج. ان يكون الآمر جزءاً من الحالة، أو الموقف المتخذ عندما تقتضي الضرورة، أي أن ينفذ الأمر الصادر، أو التوجيه المتخذ مع معيته سوية، وأن يتوحد معهم، فاذا استعرض فصيل، أو كردوس على سبيل المثال في احتفال ما، أو خلال التدريب، لابد والحالة هذه ان يوحد الضابط حركته مع حركة كافة المنتسبين في الفصيل، ليكون جزءاً منه، لان الاختلاف هنا يبعده نفسياً عنهم، ويعطي مبرراً لمخالفة البعض، وهنالك أمثلة أخرى في هذا المجال، فلو

تم افتراض أن آمر وحدة أصدر أمراً لكافة الافراد في وحدته، بعدم ترك الثكنة والنزول الى المدينة الا بعد إتمام تشجير شوارعها، أو تنظيف مرافقها، أو تعديل ساحة العرضات فيها، وهنا لابد للآمر ان يكون جزءاً من الأمر الصادر عنه، ويسعى الى تنفيذه، ويتعمد البقاء، ثم النزول بعد أن ينتهي سريان الأمر، حتى يكسب تقدير الآخرين واعجابهم في مستوى ضبطه والتزامه، ومثل هذه الإجراءات تساهم مع غيرها في تقوية سلطته في الضبط.

د. الحزم. يعني الإصرار والالتزام، وهو ليس مرادفاً للقسر والقسوة في استخدام الصلاحية والسلطة المخولة، وانما الجرأة في استخدامها، والشجاعة في تطبيق أوامرها، واختيار التوقيت الملائم لتنفيذها.

ان الحزمَ انضباطٌ، وهو خاصية عقلية من خواص الشخصية العسكرية الناجحة، ويمكن ان تكون الحاجة الى هذه الخاصية، أكثر في الحياة العسكرية عنها في المجالات الأخرى، فهي من مستلزمات القيادة الناجحة، ومن معطيات تجسيد حالة الضبط الجيد، والحزم كعملية عقلية تتطلب قدراً من الذكاء والمعرفة، وإمكانية في استرجاع الخبرات المتراكمة، مع سرعة في دراسة الموقف المطلوب فيه الحزم، فاذا كانت هناك مشكلة تتعلق بوضع مجموعة من المقاتلين خالفوا امراً ما، فالحزم هنا يعني أن الآمر وبأسرع ما يمكن يتخذ خطوات هي:

- فهم المشكلة، وتحليلها عقلياً.
- وضع الخيارات المناسبة (الاجراء العقابي أو الاداري الملائم) للتعامل معها مهنياً وقانونياً.
- اعتماد الخيار المناسب أي الاجراء الملائم للتعامل معها على وفق الصلاحيات المخولة.
- التمسك بالحل أو القرار المتخذ والاصرار على تنفيذه مرحلة هي الأخيرة.

المعنويات

ان المعنويات كمشاعر ترتبط بها الجماعة، تعبر عن حالة الرضا والقناعة بين افرادها، تكاد أن تكون عاملاً مشتركاً في عموم متغيرات الحياة العسكرية، على هذا يشار الى أن المعنويات إذا ما كانت عاملاً مساعداً على سرعة اكتساب المتدرب خبرات جديدة، فهي كذلك عامل مساعد مهم لتحقيق:

١. عملية التطبع على ظروف الخدمة العسكرية.
٢. تحسين أداء المقاتلين وتعاونهم فيما بينهم لتنفيذ المهام.
٣. زيادة مستوى انجازهم خصوصاً في حالة الحرب.
٤. المساعدة على مقاومة الضغوط النفسية في المعارك الشديدة.

أما علاقة المعنويات بالضبط فتأتي من إمكانيتها في خلق استعداد لتقبل الموقف، والتعامل معه بنوع من الاهتمام والجدية، والمعنويات استقرار انفعالي وسيطرة ذاتية على معالم التوتر والاستثارة، وبذلك تكون شكل من اشكال الضبط الداخلي، أو الانضباط الذاتي الذي يساعد المقاتل على تشكيل سلوك الضبط العسكري، أو بمعنى آخر يدفع الى الاستجابة الى الأوامر الصادرة اليه بقناعة ذاتية متميزة، وتشير الوقائع العلمية والخبرات العسكرية في هذا المجال الى أن الاقتناع بالأمر الصادر يؤدي الى التسريع في ردود الفعل الخاصة بتنفيذه، مما يعني في مجمله انضباطاً عالياً.

والعكس من ذلك صحيح، إذ أن معالم التوتر والانفعال، أو عدم الاستقرار أي هبوط المعنويات، يؤدي الى:

١. بطء الاستجابة للأوامر الصادرة.
٢. السعي نفسياً لمقاومة تنفيذها.

إنها تأثيرات تظهر على جوانب التنفيذ للأوامر بشكل واضح اثناء المعارك، عندما يتعامل المقاتل مع المواقف الصعبة تحت ضغوط التعب والاجهاد والقلق، وربما الخوف في بعض الحالات، لذا تكون المعنويات فيصلاً، أو عاملاً مساعداً يكون المستوى العالي منها دافعاً للمقاتل الى تنفيذ ما يصدر اليه من أوامر، والهابط منها ساحباً المقاتل الاخر نحو التردد وعدم التنفيذ تحت شتى الحجج والأسباب.

هذا وان تأثير المعنويات على تشكيل سلوك الضبط يكون مهماً على وجه الخصوص مع بداية التحاق العسكريين للخدمة عندما يكون السعي منصّباً على سرعة تطبيعهم لمستلزمات الحياة العسكرية وضوابطها، ومن ثم الالتزام بكافة معاييرها.

الفصل الثالث
تعلم الضبط

عملية التعلم

أن الضبط تنفيذ للأوامر العسكرية يتم اكتسابه من خلال عمليات تعلم تتابعية، إذ أن التعلم بحد ذاته عملية اكتساب لسلوك أو تصرف معين، والاكتساب تحصيل لمجموعة من المعارف والحركات والمواقف والمهارات، الخ... تتم في ظرف معين وبوضعية محددة، ومن خلال تفاعل ما بين الفرد المتعلم ذاته وبين متغيرات البيئة العسكرية، وبضوء عناصر أساسية بينها:

١. الفرد في موقف التعلم.

أن كل فرد يوجد في وضعية تعلم معينة، هو فرد متعلم يخضع لشروط محددة منها ما يتعلق به كذات، ومنها ما هو مرتبط بالوضعية التي يوجد فيها، فالفرد المتعلم كذات هو عبارة عن مجموعة من القدرات ومن الاستعدادات النفسية والذهنية والاجتماعية أو الثقافية، يعني أن العسكري في ساحة العرضات وأثناء تلقيه درساً أو أمراً ما، فان من المعتاد أن تكون لديه:

آ. قدرات. إمكانية عقلية لتنفيذ الأمر الصادر وفهم وإدراك طبيعة الموقف التدريبي الذي هو فيه لتنفيذ الأمر.

ب. استعدادات. رغبة ذاتية لتنفيذ الأمر، وميل الى أن يكون مسايراً للغير في عملية التنفيذ، ومنفتحاً على الواقع وقانعاً بما يجري.

ج. تفاعل اجتماعي. وجوده ضمن مجموعة، وتقبل لوجوده بينها منتمياً اليها غير راغب بالخروج من صفها ومخالفة ضوابطها.

فإن كان المعني بليداً أو مضطرباً نفسياً على سبيل المثال فان إدراكه سيكون ضعيفاً وفهمه بسيطاً، وبالتالي سيكون تعلمه لأي موضوع بطيئاً وغير مكتملاً، وان جاء في نشرة التدريب مثلاً أن هذا الدرس قد تخصص له ثلاث ساعات تدريبية حتى تكتمل عملية التعلم فان ضعف القدرات أو الخلل في مجالها، سيجعل الساعات الثلاث غير كافية وحتى مضاعفتها ساعات أخرى يمكن أن تكون كذلك غير كافية، وبالنسبة الى بعض المهارات بينها الضبط يمكن ألا يتعلمها بالمطلق مثل هؤلاء ناقصي القدرات والاستعدادات.

٢. الموقف الظرفي.

يشير الموضوع المتعلم إلى كل ما يكتسبه الفرد في وضعية وشروط معينة، ويتخذ أشكالاً وأنواعاً مختلفة، كالأفكار والتصورات أو المواقف والحركات والمهارات. والمقصود هنا هو أن لكل موضوع يراد تعلمه شروط ظرفية تساعد على التعلم أو تحول دونه، فالتدريب على الضبط من خلال تأدية بعض الحركات والمسير والتعليم المنظم في ساحة العرضات يكون أفضل في ظروف جوية عادية لا مطر فيها ولا غبار، وليس من الضرورة أن تجري في ظهر صيفٍ قائض أو خلال هبوب عاصفة ترابية، لأن في حالتها أي الأجواء العادية تكون الاستعدادات أفضل وعوامل الاعاقة أو التأثير على الاكتساب سلباً أقل، وفي حال كون موضوع التدريب هو التحمل، فالمسألة تكون مختلفة، إذ يمكن أن يجري التدريب على المسير أو تنفيذ تمرين تعبوي وسط أجواء ماطرة، أوفي نهار صيف حار، أو شتاء بارد.

٣. سياق التعلم.

الكيفية التي تشكل فيها هذه الوضعية الإطار أو السياق العام الذي يتم فيه فعل التعلم، وقد تكون هذه الوضعية أما:

آ. تلقائية. أي أثناء الرياضة أو اللقاءات العامة، أوفي أثناء ممارسة أية أنشطة أخرى، أي أنه هناك عملية يمكن تعلمها متداخلة مع عمليات أخرى وفي وضعيات أخرى، فمثلاً في درس التفكيك والتركيب للبندقية الآلية يمكن أن يكون الدرس مقتصراً على التفكيك والتركيب، والمتدربون يتمتعون بحرية التحرك والكلام وتبادل الأفكار، وربما التكلم فيما بينهم بوضعية يقال عنها حرة، ويمكن أن يكون في موقف آخر يطلب فيه من المتدربين أن ينجزوا التفكيك بوقت محدد أي يؤمروا بهذا أو ينتقلوا ببنادقهم لتأدية حركات أخرى متممة، تنفيذا لأمر آخر، عندها أصبح التدريب على الضبط ضمنياً.
ب. قصدية، موجهة. كما هو الشأن بالنسبة الى موقف تعليمي للضبط (التعليم المنظم) حيث الطلب من المتدربين تأدية بعض الحركات مثل الاستعداد والاستراحة والدوران والتجمع والتفرق.
٤. نواتج التعلم.
وهي عبارة عن أنواع من السلوك، أو تصرفات ظاهرة أو باطنة تأتي على شكل إنجازات، تختلف من فرد إلى آخر وتعكس درجة التعلم الذي يحوي السلوك المطلوب تعلمه في حالتها بأقل ما يمكن من الأخطاء والمحاولات الزائدة.

التفاعل في عملية التعلم

ان التعلم عملية تقوم على التفاعل بين أركان أساسية هي:
١. المتعلم.
العسكري المطلوب تعليمه – تدريبه، طالبا كان أم جندياً مستجداً أو ضابط صف أو ضابط وبكافة المستويات.
٢. موضوع التعلم.
المادة أو الحركة أو الأداء أو الدرس المطلوب تعليمه الى الفرد المتعلم.
٣. وضعية التعلم.
الظروف أو المواقف التي تهيئ مسبقاً من قبل الجهة المعنية بالتعلم على مستوى (الرهط/الحضيرة/الفصيل /الوحدة.../الخ) أو المعلم ذاته بقصد وضع المتعلم أو المتعلمين في أجواء تفكير وتقبل لتحليل وحل مشكلة أو صعوبة، وبما يؤدي الى تغيير معارف المتعلمين أو مهاراتهم أو اتجاهاتهم وتوجهاتهم.
ففي موضوع تعلم تبادل النار والحركة لمستوى الفصيل على سبيل المثال يهيئ الآمر المعني وضعاً لتعلم هذه المهام تكون فيه الساحة، الأرض مناسبة والسلاح المستخدم جاهزاً، وقد يحتاج الى عتاد خلّب وأعلَام وغيرها تدخل ضمن الوضعية العامة لتعلم الموضوع المذكور أي النار والحركة، هذا وان نوعية التفاعل وكثافته واتجاهه تخضع كلها لجملة من الشروط العامة والخاصة المتصلة بالعناصر السابقة، ومن ثم الحديث عن التعلم، لا يمكن إلا بالإشارة الضرورية لذلك التفاعل بين العناصر السابقة والمراحل التي يمر منها.
هذا وان التعلم كما أشير اليه سابقاً عملية اكتساب وسائل مساعدة لإشباع الحاجات والدوافع وتحقيق الأهداف المطلوبة، وهو تغيير في السلوك ينتج عن إثارة ما في مواقف الحياة[16]، والاثارة هنا يمكن أن تكون منبهات بسيطة وقد تكون نتيجة لمواقف معقدة. وعلى هذا فان

[16] . زيور، مصطفى (١٩٨٨) في النفس، دار النهضة العربية، بيروت.

التعلم هنا وفي مجال الضبط أيضا يعد عملية تغير شبه دائم لسلوك المنتسب نتيجة التدريب التي تظهر نتائجه تغير في الأداء.

استمرارية التعلم

ان الضبط سلوك يعتمد على خصائص الانسان وقدراته من ناحية وعلى المؤثرات الخارجية "عملية التعليم والاكتساب" المحيطة به من ناحية اخرى، لذا يكون من الضرورة فهم طبيعته وكيفية حدوثه، ومن ثم إدراك ماهية المؤثرات الخارجية، وتحديد اتجاهات تأثيرها عليه، بغية التحكم بها، وبالمعنى الادق تكيفها حسب طبيعة الانسان ومستوياته في الفهم والادراك والتحمل.

كما انه أي الضبط عملية تعليم مستمرة، لأن العسكري ينتمي الى بيئة متغيرة من حيث التواجد، أي أن المنتسب لا يمكن أن يقضي جل خدمته في وحدة واحدة، مع الأفراد أنفسهم وعلى يد الآمرين ذاتهم، ولأن في محيط هذه البيئة هناك أسلحة تتطور وأساليب تعبية تتغير وهناك خسائر تحصل وترقيات تتحقق، وهناك أيضا حالات غياب وهروب تجعل منتسبي الوحدة في حالة حراك وتغير، الأمر الذي يحتاج:

- استمرار عملية التدريب بشكل متواصل.
- العمل على توليف وتطوير روح الجماعة وتنسيق أعمالها في التنفيذ "الضبط".

كما وان الالتحاق من قبل المنتسبين الأحداث الى الوحدات مسألة شبه مستمرة، ومع وجود الفروق الفردية للملتحقين والمستمرين من حيث الاستعداد النفسي ومستوى التحصيل وبما يؤثر على التآلف والتآزر الجماعي، وعلى مقادير الالتزام والتنفيذ "الضبط" ولأن هذه العملية عملية تعلم واكتساب، ولأنها تتعلق بالمشاعر والميول والرغبات فقد أصبح لعلم النفس العسكري باع في مجالها، وأصبحت له اسهامات في تقديم الاطر النظرية لموضوعها في جيوش العصر الحالي، وهي في واقع الحال فائدة لا تتوقف عند هذه الحدود اذ أمكن الاستفادة من معطيات علم النفس التطبيقية في إطار:

١. فهم الانسان المقاتل.
٢. تحديد تأثيرات الظروف البيئية على سلوكه في الضبط والاداء وزيادة التحمل.
٣. تحسين مستوى معنوياته في الحرب والسلم.

ان المؤسسة العسكرية وتبعاً لخصائصها المذكورة ينفذ منتسبوها ما يصدر لهم من أوامر دون اعتراض، يتقيدون جميعهم بقيمها وتقاليدها وضوابطها وبسياقات العمل الجارية في بيئتها دون نقاش. لأن عدم التنفيذ أو التأخير في حصول التنفيذ لأوامر صادرة في المعركة على سبيل المثال سيؤدي الى التمرد والامتناع والتخاذل أحياناً، الأمر الذي يغير في النتائج المرجوة من القتال، ويحتم حصول الخسارة، التي تتدرب الجيوش منذ السلم وبشكل مستمر على عدم حصولها.

وعلى نفس المنوال فإن عدم التقيد بالقيم والضوابط وسياقات العمل الجارية، فوضى لتباين في الرأي وكثر اجتهاد وتعدد في التوجهات والاتجاهات بين المنتسبين في محيط الوحدة، يضر بروح الجماعة.

من هذا تعد العسكرية مجتمع منضبط، تسعى وبشكل دائم الى تشكيل سلوك منتسبيها على وفق معايير التزام محددة، وهي معايير تضعها هيئاتها ومؤسساتها عبر الزمن نتيجة الخبرات التراكمية الآتية من خلال الحروب أوفي اثناء فترات السلم والاستقرار من خلال الممارسات والتمارين، بحيث يكون لجملة هذه المعايير طابع الالزام في القبول والتنفيذ بحكم القوانين والتشريعات العسكرية.

دورة اكتساب الضبط

يعيش العسكريون في الوحدات مع بعضهم البعض، مجموعات مختلفة الحجم، وينفذون الواجبات المناطة بهم في الغالب كمجموعات ايضاً، إذ يندر ان يؤدي أحدهم عملاً بمفرده باستثناء بعض الحراسات، أو الخفارات، أو المهام ذات الطبيعة الفنية أو الاستخبارية الخاصة، وبذلك يكون للفرد المنتسب دوراً يتمثل في الآتي:

١. إنه جزء من الكل.

٢. يكمل العمل الذي يقوم به، أعمال الاخرين لإنتاج العمل المطلوب.

٣. أداؤه فرداً في المجموعة يزيد من كفاءتها، أو يقلل من متوسط أنجازها.

٤. دوره ضمن المجموعة، يدفعه خلال حياته العسكرية الى:

آ. استيعاب كل العناصر التي تحكم وجوده في وحدته أو مؤسسته العسكرية من ثقافة ومعلومات وأساليب وضوابط وانظمة.

ب. ادخالها جميعاً في شخصيته حتى تتسم ردود فعله، أو استجابته لأوامرها بنوع من الرضا والطوعية.

إنها عملية تفاعل للعسكري مع بيئته تعني اكتساب المعارف والنماذج والقيم والرموز، وبعبارة اخرى اعتياد طرق خاصة في السلوك والتفكير والشعور تساعده على الاستجابة المطلوبة لمستلزمات وجودها.

هذا وان كل فرد في المجموعة أو كل منتسب من منتسبي الوحدة مدعواً لان يعيش فيها، ويمتثل لأوامرها من خلال عملية الاكتساب التي تبدأ منذ التحاقه الاول للخدمة، وتستمر طيلة وجوده فيها وهي دورة اكتساب تمر بعدة مراحل اهمها.

١. فترة الالتحاق الاولى.

ان الحياة العسكرية في العصر الحديث وكما ورد في بعض العناوين المذكورة أعلاه، تختلف من حيث مسالك اتصالها مع حياة المدنيين ويختلف وقعها عن وقع العصور السابقة التي شهدت غياب المجندين عن عوائلهم حتى اكتمال خدمتهم الالزامية، أو بعد انتهاء الحرب التي جندوا من أجلها، ويعود الفضل في هذا الى تطور وتسارع وسائل المواصلات والتواصل الاجتماعي التي قربت الوحدات الى المدينة، ومجتمعها الكبير وقربت المقاتل شخصياً من عائلته وأصدقائه، ووفرت المعلومات لمن يريد الاطلاع عليها، وزادت من قدرة الجميع على استيعاب المعارف العسكرية وتفاصيل الحياة داخل المقرات والثكنات وبين ثنايا الجبهات خلال فترة الحروب.

إذ بإمكان العسكري وغيره في وقتنا الراهن أن يبحث في صفحات ومواقع الانترنت (غوغل مثلاً) عن أية معلومة يريد، وفي أي تخصص يطلب، وبسهولة يجدها على شاشة حاسوبه على الفور[17].

وتأسيساً على هذا أصبح المجند في الوقت الحاضر حاملاً لبعض التصورات والانطباعات والافكار وربما الحكايات والاقاويل السلبية منها والايجابية عن العسكرية وطبيعة الحياة فيها،

17. طوال سنوات الحرب على الارهاب التي حدثت في العراق، وبعد التطورات التقنية التي حصلت للهواتف النقالة الذكية والتغطية الواسعة للأنترنت، لوحظ قيام العديد من العسكريين بتصوير وبث لقطات فوتوغرافية وفديوية عن حالهم بعضها يتعلق بما يعانوه من تعب أو مشاكل واصابات، قسم منها لا يصلح للنشر من النواحي النفسية والأمنية، الا انها تنشر

وسلبياتها وإيجابياتها قبل التحاقه الى خدمتها، ومن ثم في أثناء تواجده الأولي في ثكناتها، مما يعطي الساعات والايام الاولى لدخوله عتبة الخدمة فيها أهمية كبيرة في ايجاد الانطباع والقناعة اللازمة للتعايش مع ظروفها، والامتثال لضوابطها وتقاليدها، خاصة وان هذه الفترة الحرجة سيعيش خلالها المتطوع صراعاً بين التوقعات ومؤشرات الواقع الفعلي، لتكون الاساس في تثبيت تلك الانطباعات والاخيلة، أو تغييرها تبعاً الى الواقع واسلوب التعامل آنذاك.

فقد يكون الاسلوب التهكمي لآمر الحضيرة مثلاً، أو التعامل غير الانساني لآمر الفصيل في أحد مراكز التدريب عاملاً مساعداً لترسيخ أفكار مضادة للعسكرية في اتجاهات البعض بعد أيام من التحاقهم الى الخدمة فيها، حيث تشكل تلك القناعات دافعاً ذاتياً لسلوك المخالفة لاحقاً. وبنفس القدر يمكن ان تتأثر نظرة البعض الآخر الى العسكرية كقيمة عليا من خلال ما هيئته مراكز التدريب، أو مدارس الصنوف من امكانات لاستيعاب اعداد الملتحقين اليها، اعتباراً من قاعات المنام وعدد الحمامات واسلوب تقديم الطعام.

وغيرها من الامور التي ينظرها البعض كمسألة مهمة في حياته اليومية، إذا ما اخذنا في عين الاعتبار اختلاف المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للجميع، والتي تحتم عدم تجاوز خصوصيات كل شريحة أو مستوى في فترة الانتقال من معالم المدنية الى جدية الحياة العسكرية وانضباطها الصارم. وكذلك النظر جدياً الى ضرورات الحياة العامة والحاجات الانسانية الهامة، وان لا يلجأ المعنيون في تلك الاماكن الى اعتبار القصور في التهيئة والاستعدادات في هذا الجانب معياراً للتحمل الذي يفترض ان يكون قدرة موجودة في الأصل عند عموم المقاتلين.

ان من الامور المهمة لاكتساب الضبط والتأثير على مديات اكتسابه في بداية الالتحاق الى الخدمة العسكرية هي اعتقاد البعض من الضباط وضباط الصف بان القطع السريع والحاد مع متغيرات الحياة المدنية مسألة ضرورية لتعزيزه، أي الضبط واستعجال التكيف الى الحياة الجديدة، فيلجؤون بسببها في الساعات الاولى أو اليوم الاول الى تطبيق اساليب يأملون من خلالها الحصول على نتائج كان يفترض ان يصلها المتدربون المعنيون بعد اسابيع أو اشهر من بداية الالتحاق، فيصرون مثلاً على ارغام منتسبيهم على اعتبار اللون الاسود أبيضاً أو بالعكس، مما يثير انفعال البعض أو عدم اقتناعهم داخليا بهذه الأوامر، وفي هذا المجال اثبتت الوقائع ان النقل التدريجي المبرمج يثمر اكثر باتجاه ايجاد ضبط عسكري ذاتي رصين، بالمقارنة مع التحول الآني السريع.

٢. مرحلة الالتحاق بالوحدات.

ان المرحلة الثانية أو الفترة اللاحقة التي تشكل أهمية من الناحية النفسية في حياة العسكري حيث انعكاسها مباشرة على مقدار التفاعل والالتزام مع الضوابط والاعراف، هي بداية الالتحاق الى الوحدات الفعالة، بعد انهاء مرحلة التدريب الاساس في مراكز التدريب أو مدارس الصنوف أحياناً، والتي يفترض ان تكون قد شكلت سلوك المستجدين باتجاه الضبط والشجاعة والثقة بالنفس، والتحمل واكسبتهم بعض المعارف العسكرية والمعلومات الفنية،

وبشكل مستمر، ويصعب السيطرة عليها، ولوحظ أيضا سعة الاطلاع عليها وكثر التعليق حول مواضيعها، الأمر الذي يمكن أن يكّون لدى البعض من الشباب تصورات عن العسكرية قبل التطوع والالتحاق الى خدمتها. [17]

إلا انها تختلف عموماً عن مجتمع الوحدة وسياقات العمل واسلوب التعامل وطبيعة الواجبات العسكرية المقبلة.
ان مراكز التدريب وإذا ما كانت معنية عن بداية التغيير في طبيعة الشخصية وإكسابها بعض خصائص الضبط، فان مسؤولية الوحدات أكثر عمقاً في اكتسابها الصفة العسكرية البحتة، وزيادة مجالات تفاعلها مع الظروف المحيطة من خلال التعامل والتدريب لتشكيل روح الفريق والتزود بالخبرات والمهارات اللازمة في مواجهة الظروف الصعبة، وزيادة قابلية التحمل لضغوطها، لذا تبقى صورة أول وحدة يخدم فيها العسكري راسخة في مخيلته طيلة فترة وجوده في الخدمة العسكرية وما بعدها.
إن أثر الوحدة في تشكيل السلوك الضبطي كان قد ظهر جلياً إبّان فترة الحرب العراقية الايرانية (١٩٨٠ - ١٩٨٨) عندما لم تتَح للجندي الملتحق بالخدمة العسكرية حديثاً أخذ كفايته من التدريب والتكيف للحياة الجديدة بسبب ضيق الوقت وحاجة الحرب الى مجندين، عندها وضعت الوحدات برامج تدريبية في داخلها لإتمام ما مطلوب من مراكز التدريب، إلا إنه وفي بعض الأحيان لا تجد الوحدات متسعاً للتدريب عندما يحتم الموقف القتالي زج المقاتلين في المعركة حال وصولهم وحداتهم المنسبين اليها، وهذا قصور يكاد أن يكون محتوماً ولا مجال لتلافيه، حتى إنه تكرر وعلى نفس الأسس في فترة الحرب ضد الارهاب ما بعد العام ٢٠٠٥.
على هذا كان للوحدة أثر في إرساء أسس الضبط والانطباع الايجابي عن الخدمة العسكرية يفوق كثيراً مراكز التدريب التي بات تأثيرها في فترة الحروب شكلياً.
وبات التعامل من قبل ضباطها وضباط صفها مع الملتحقين اليها حديثاً يعد الأساس في هذا المجال... تعامل على وفق منظور المؤسسة العسكرية الصحيح، والتساوي في الحقوق والواجبات، والعدل في تحديد المهام المطلوبة وأسلوب التدريب المتبع يمكن أن تسهم جميعها في زيادة دافعية المنتسبين لتقبل أوامر المافوق أحد مستلزمات الانضباط الطوعي.
وبات الخطأ في النظرة الى العسكري نظرة دونية، واستغلاله مادياً أو في السخرة والتمييز بينه وبين زملائه الموجودين في مجموعته على اساس المعرفة والتفريق في تحديد طبيعة الواجبات ونوع المهام عوامل هدم للدافعية واضعاف للضبط العسكري.
هذا وعلى الرغم من ان عملية اكساب الضبط العسكري وتجسيده في سلوك المنتسبين مسألة مستمرة طيلة فترة الخدمة الا انها عملياً تتأثر سلباً أو ايجاباً بالمواقف أو التأثيرات التي يتعرضون لها في بداية خدمتهم الفعلية، إذ ان البعض قد يتغاضى عن قصور حدث في مراكز التدريب لاعتبارات عديدة، الا انه وعلى الاغلب غير مستعد نفسياً الى اتخاذ نفس المواقف اتجاه ما يجري بالوحدات التي تمثل رمزاً للخدمة العسكرية النبيلة والمسؤولية الوطنية الفاعلة.
إن العسكري الملتحق حديثاً الى الخدمة يكون وطيلة هذه المرحلة في موقف تفاعلي هو طرفه الأول وفي المقابل له أطراف أخرى، كما مبين في أعلاه، وهناك في الموقف التفاعلي هذا نقاط يمكن أن تساعد المنتسبين الى التفاعل ايجاباً، خطوة ضرورية لتكوين شخصياتهم العسكرية الملائمة أي المنضبطة بينها:
آ. التآلف (التوحد) مع السلاح الشخصي والفهم الجيد لطريقة استخدامه من خلال المعلومات الفنية والحركات التوافقية التي تشعر المعنيين بأهمية هذا السلاح والاعتزاز بالمصاحبة

الدائمة له... توحد وعلاقة نفسية بين الاثنين لا تؤدي الى المعرفة الجيدة بكيفية الاستعمال للسلاح فقط، بل والى قبول الأوامر الصادرة لتحديد نوع الاستعمال في الزمان والمكان المعينين.

ب. التعرف السريع على طبيعة وأدوار منتسبي الوحدة، حيث ان التسلسل الهرمي في تنظيم الوحدات والمؤسسات العسكرية يفرض على كل منتسب دوراً واضحاً ضمن إطار المهمة الشاملة للوحدة، وهذا التصور أو الإدراك يجعل كل مقاتل يعمل مع الجميع وبشكل طوعي وانضباط عال، وبعكسه ستعاني الوحدة من الارتباك والفوضى وكثرة المخالفات وهدر الوقت وتبذير الطاقات المتاحة.

ج. معرفة بعض المفاهيم المتعلقة بالمخالفات، وطبيعة الجزاء الذي يتخذ في إطار الوحدة وخارجها، ثم حدود التصرف الشخصي أو الذاتية الفردية، وكيفية الاتصال مع المافوق والمستويات الأعلى وما يترتب على تجاوز سلسلة المراجع، وفي هذا المجال يؤكد أصحاب الشأن أن وفرة المعلومات ومقدار فهمها من المنتسبين يساعد على زيادة الحصانة، ويقلل من نسب المخالفة بينهم.

د. التكامل في الشخصية العسكرية، أي السعي لإعداد مقاتل ملم باستخدام سلاحه فنياً وتعبوياً، قادراً على تحمل مصاعب الطبيعة وضغوط البيئة الخارجية، مدركاً لما يحيط به، مستعداً للتضحية في سبيل وطنه، مقتنعاً بانتمائه لهذه الوحدة التي تمثل اساس وجوده العسكري، علماً ان التفاعل مع تلك المتغيرات الفنية والمعرفية والاجتماعية والعسكرية بشكل صحيح يمكن ان يجنب أفراد الوحدة بعض جوانب المخالفة، أو يبعدهم عن الاحساس بأية قيود انضباطية.

٣. مرحلة العودة الى خدمة الاحتياط.

ويقصد بها في مجال الخدمة التي يمكن ان يؤديها العسكري بعد فترة من التسريح والتحاقه إليها ثانية، أي وجود قطع زمني بين خدمته الالزامية إن وجدت في بعض الأحيان وخدمة الاحتياط[18]إن وجدت أيضاً، وما تسببه تلك الحقبة من الحياة المدنية من تأثير على الشخصية العسكرية التي تميزت عادة بالالتزام بالوقت واحترام المافوق والاستجابة سريعاً لتنفيذ الاوامر والقدرة على التحمل والصبر والرغبة في المجازفة وسلوك التضحية والايثار... خصائص على الرغم من انها تشكل أساسا لنجاح الانسان في مجالات عمله العسكرية

18 . كانت في قوانين العراق منذ تأسيس الدولة العراقية وجيشها عام ١٩٢١ ما يسمى بقانون الخدمة الالزامية أو خدمة العلم، وهي في فحواها الزام لمن يبلغ سن الثامنة عشر الالتحاق بالخدمة العسكرية لفترة محددة من الوقت تختلف مدتها تبعاً لمستوى التحصيل، وكان هناك في القانون أيضا صلاحيات مثبتة لإمكانية استدعاء الذين خدموا من قبل خدمة الزامية أو متطوعين لمعاودة الخدمة ثانية، تحت بند ما يسمى بخدمة الاحتياط، ولفترة محدودة من الوقت خاصة أثناء فترات التوتر والأزمات والحروب، الا إن التجاوز الحكومي على المدد خاصة إبان الحرب العراقية الايرانية (١٩٨٠ – ١٩٨٨) وما بعدها جعلت الخدمة الالزامية والاحتياط تمتد من سنة أوسنتين الى أكثر من عشر سنين وربما أكثر، مما كون ردود فعل شعبية مضادة لهكذا نوع من الخدمة الوطنية أفضى الى إلغائها بعد تغيير النظام عام ٢٠٠٣.

والمدنية، لكن العسكرية بطبيعتها بأمس الحاجة الى بعض المواصفات التي تختلف نسبياً عن الحياة المدنية.
فالزراعة لا تتطلب التزاما دقيقاً بالوقت ولا تحتاج تحديدات للحضور والانصراف.
ووظيفة حكومية في دائرة التسجيل العقاري، يمكن ان تتسبب في التعود على العمل المكتبي، لان التحرك خلالها يكون في العادة محدوداً، وهذه بطبيعتها تقلل تدريجياً من القدرة على التحمل.
كما إن مناقشة رئيس القسم مثلاً، أو التشاور مع مدير الشعبة في مؤسسة تجارية أمر طبيعي، وهذه عوامل تسحبنا تدريجياً الى مناقشة مقدار التفاعل بين الشخصية العسكرية وظروف الحياة المدنية بعد التسريح من الخدمة الالزامية، وما يمكن ان تسببه من تغير في سمات تلك الشخصية.
ان عملية التغير في الشخصية، تعود مقاديرها الى عدة عوامل يتعلق قسم منها بطبيعة الانسان نفسه، والقسم الاخر بالكم المتراكم للمعايير والقيم والضوابط والاساليب التي اكتسبها الافراد الذين يتسرحون، فاذا نجحت الوحدة أو المؤسسة في ايجاد الشخصية العسكرية الملتزمة فان مقدار التغير المقبل سيكون محدوداً والعكس صحيح ايضاً، اذ ان الانضباط القسري والالتزام الظاهري في الشخصية العسكرية سيكونان ايحاءً مضاداً لعموم الحياة العسكرية ومقاومة شديدة على التكيف لمعالمها، ومثل هؤلاء سيكونون مهيئين مسبقاً الى الابتعاد عن تقاليدها ومثلها السائدة، وهم بذلك اكثر احتمالاً للتغير أو بمعنى آخر اكثر نسياناً لما تعلموه في خدمتهم الاولى، وهذا يؤشر الى أن الالتحاق الى خدمة الاحتياط سيواجه نوعان من الافراد:
آ. يتميز النوع الاول باستعداد مقبول للتفاعل ثانية مع معالم الخدمة العسكرية والتعود سريعاً على بيئتها الاجتماعية، وهم بذلك لا يسببون أية اشكالات ضبطية.
ب. أما النوع الثاني أولئك الذين تركوا أو تناسوا المعارف العسكرية وقيمها فهم بحاجة الى اعادة تشكيل سلوكهم ضبطياً بعد ان غالوا في اهتماماتهم المدنية كتعويض عن عدم التكيف الى معايير وضوابط الخدمة السابقة.
ان العودة الى الخدمة العسكرية بعد فترة زمنية، محكومة بمعطيات مختلفة تماماً عن تلك التي كانت موجودة في مرحلة الالتحاق الاولى، أهمها:
ـ العمر. ففي البداية يكون العسكري الملتحق الى الخدمة حديثاً في ريعان شبابه وهو أكثر قدرة على تحمل ضغوط الحياة، الا انه وبنفس الوقت أكثر ميلاً الى التحدي والمخالفة والمجازفة، كذلك يكون أكثر امكانية في استيعاب ما يحيط به من مؤثرات.
ـ التزامات العيش. إذ أن الجنود المكلفين بشكل عام أقرب الى الاستقلالية في العيش وعدم تحمل أعباء المسؤولية الاجتماعية والاقتصادية اتجاه عوائلهم في حالات ليست قليلة، أما الاحتياط فيتميزون عادة بضخامة الالتزام وجسامته، بعد ان أصبحوا مؤهلين وذوي التزامات مختلفة.
لذا يتحتم على الوحدات التعامل مع المجموعة الثانية، أي الاحتياط بطريقة مختلفة تأخذ باعتبارها الاهتمام بالجانب الانفعالي، أي السعي لتكوين القناعات والرضا عن الحالة الجديدة التي يعيشونها، أكثر من تناول المسائل الفنية التي سرعان ما يتم تذكرها بعد قليل من الممارسة، هذا وتشير الدلائل الى ان مستوى الانضباط الطوعي يتناسب طردياً مع تقادم

العمر، وان تأثير المخالفة من قبل الأكثر عمراً يكون وقعها أشد على الوحدة لانهم يمثلون القدوة بالنسبة الى المجندين المستجدين في مجال الالتزام والضبط تبعاً للعمر والخبرة السابقة.

الفصل الرابع
تقدير مستوى الضبط

تقدير مستوى الضبط أثناء السلم

الضبط سلوك يستدل من خلاله على مدى الالتزام بالضوابط والتقاليد العسكرية، وعلى سرعة الاستجابة للأوامر الصادرة وحسن الاداء في الظروف الطبيعية أي الاستقرار، وخلال الحرب والتوتر، والضبط الجيد يتناسب ومقدار الشعور، أو مدى إدراك العسكريين لحقيقة مفادها:

ان السلوك الصحيح لتنفيذ الأوامر ينبغي ان يستمر حتى عند عدم وجود الرقابة أو سلطة الضبط، ومسألة الاستمرار هذه مسألة نفسية تتعلق بالاستعداد والمشاعر والحالة الانفعالية للفرد والجماعة ومقدار الرضا والدافعية للعمل والظروف المحيطة... متغيرات من الكثرة حداً باتت تضيف مصاعب لعملية قياس مستوى الضبط وفق معطيات الاحصاء والاختبارات، بالشكل الذي قد تفقد فيه امكانية الاستفادة من نتائجها في تحديد أرقام دقيقة يمكن أن تعتمد عليها الوحدات والتشكيلات والمقرات العليا في حسابات الاستعداد ووضع الخطط.

وتأسيساً على هذه المصاعب، يمكن التركيز بدلاً من القياس الرقمي، أي اعطاء أرقام لمستوى الضبط في الفوج الثالث اللواء الخامس عشر= ٩٠ على سبيل المثال، وهذا هو الشي الصحيح والذي يفترض أن يكون موجود في الجيوش بينها الجيش العراقي، لكن وجوده بالنسبة الى هذا الجيش أي العراقي صعباً لعدم وجود امكانية لضبط المتغيرات في ظروف الوحدات والقيادات لتكون الأساس في القياس الرقمي الدقيق حتى وقتنا الراهن، إضافة الى عدم وجود متخصصين في القياس النفسي داخل الجيش وعموم القوات المسلحة، عليه والحالة هذه يمكن الاعتماد على صيغ أخرى للتقدير بينها الاتفاق على بعض المؤشرات التي من خلالها يمكن الاستدلال على الضبط بشكل تقريبي مقبول، لكن المؤشرات وعوامل التأثير تختلف في حالة الاستقرار عنها في حالة الحرب.

في السلم وفي الحرب هناك على سبيل المثال العديد من المؤشرات التي يمكن الاستدلال منها على الضبط العسكري، يتكرر حصولها خلال تواجد الوحدات والوحدات الفرعية العسكرية في ثكناتها، وأثناء تأديتها لمهامها الاعتيادية في التدريب واعادة التنظيم وغيرها، وكذلك إبان خوضها المعارك في حروب طويلة الأمد أو حتى قصيرة، الا ان الاخذ بها بشكل مطلق وغير مقنن مسألة غير دقيقة، فالتأخر عن الالتحاق الى الوحدة بعد الإجازة أو المساعدة التي

منحت لمقاتل أو مجموعة مقاتلين تعد مخالفة ضبطية، لكن التعامل معها في هذا الجانب يثير أمام الساعي الى اتخاذها متغيرٍ للاستدلال أو القياس أكثر من سؤال قوامها:

١. هل يصح اعتبار التأخر عن الالتحاق الى الوحدة، وهي في معسكرها الثابت، أو أثناء التدريب الاجمالي، أوفي الموضع الدفاعي لساعات معينة، عملاً مخلاً بالضبط دون النظر الى الاسباب التي حتّمَت التأخير؟.

إذ أن التأخير هنا قد يحدث بسبب عطل السيارة الناقلة على الطريق، أو نتيجة الاصابة بوعكة صحية، أو التعرض الى حادث عرضي وأسباب أخرى تحتم حصوله، مما يقلل أثر هذا التأخير، أوعده عاملاً مباشراً لتأشير أو قياس الضبط.

٢. هل يجوز درج اسلوب مقاتل في مناقشته لآمره المباشر في موضوع فني واصراره على المزيد من المعرفة، تحت اطار التحدي وقلة الضبط؟.

اذ وفي حالات قد يطلب المافوق أن يسمعه المقاتلون، وهو يتكلم ويميل الى عدم مقاطعته أثناء الاسترسال في الكلام، ويمكن أن يعتقد أحدهم أنه في هذا الموقف بالذات لم يعد يفهم الكلام الذي يقال، وهو بحاجة الى أن يفهم، فهل يصح عد المقاطعة هنا وطلب الايضاح، أو حتى تقديمه مخالفة يستدل منها على انخفاض مستوى الضبط؟.

٣. وبنفس الاتجاه هل يمكن اعتبار عدم رغبة أحدهم العمل كمراسل لآمره، وامتناعه عن ذلك تجاوزاً على الضبط العسكري؟[19].

بالإضافة الى الأمثلة المذكورة هناك أخرى غيرها وهناك حوادث وممارسات ليست قليلة في حياة العسكريين، خاصة المراتب، مما يدفع الساعين الى اعداد مؤشرات للاستدلال الى طرح المزيد من الاسئلة تتمحور غالبيتها حول الجوانب النفسية للموضوع منها:

ـ ما مدى تيسر القصد من عدمه في السلوك المخالف؟.

ـ ما مستوى القدرة على التحمل عند التلكؤ في تنفيذ أمر ما ؟.

ـ ما هو مقدار المعرفة بالموضوع والتبعات في حالة التقصير أثناء التنفيذ ؟.

لذا نعود الى التأكيد ثانية بصعوبة اعتبار المجالات المذكورة معايير لتقدير مستوى الضبط لجملة أسباب منها:

١. حصولها جاء فردياً على الأغلب.

٢. عدم وجود الرغبة الذاتية للمخالفة.

ان المتغيرات المذكورة وأخرى غيرها وان كانت بسيطة، ولكي لا تتكرر في سلوك المقاتلين وتصبح عادة تحكم السلوك أو تقربه من حدود المخالفة، ينبغي عدم تجاوزها عند السعي

---

[19] . لابد من الأخذ في الاعتبار أنه وفي وحدات الجيش العراقي عادة ما يطلب آمر الفصيل صعوداً من أحد الجنود أن يكون مراسلاً خاصاً له، تبعاً لقناعته بمواصفات موجودة عند الجندي زيد وغير موجودة عند عَمْرو، وعادة ما يستهجن بعض الجنود خاصة القادمين من الريف هكذا أعمال ويرفضونها في حين يقبلها، بل ويفضلها جنوداً آخرين، فهل يمكن عد الرفض تجاوزاً على المعايير ومؤشراً لحصول مخالفة؟.

لتكوين أو تعزيز الضبط العسكري المناسب في الوحدات، أي أن يكون هناك جهداً منظماً للتعديل والتقويم من خلال التنبيه واللوم والحث والمحاضرة ولفت الانتباه.

التقدير النسبي

ان معايير الاستدلال على الضبط أو تقدير مستوياته في الوحدات العسكرية ليست كيفية، ولا يجب أن تكون كذلك، وهي بشكل عام تستند إلى استجابة، أي ردود فعل الجماعة وادائهم في الموقف المحدد، وخلال فترة السلم (الاستقرار) يمكن التأسيس على بعض الاستجابات من المجالات الآتية لتكون مؤشرات عملية لتقدير مستوى الضبط:

١. مخرجات التدريب.

يقصد بالمخرجات هنا نتاج كافة الاجراءات المتخذة لاكتساب خبرات جديدة، وهذا يعني أيضاً:

آ. إعداد الفرد العسكري نفسياً وبدنياً لتنفيذ الأوامر (الضبط) طواعية.

ب. تهيئته لاستخدام السلاح أو المُعَدة التي يعمل عليها، لتحقيق مستوى المهارة والاداء المطلوبين منه كفرد ضمن الجماعة.

هذا وإذا ما كانت أحد المهام الرئيسة للتدريب هنا تكوين الأساس النفسي للضبط (روح الضبط)، فانه يعد بنفس الوقت أحد معايير الاستدلال على مستوى الضبط، خاصة وان العلاقة بين كلا المفهومين علاقة متداخلة تفاعلية، فالمجموعة المنضبطة على سبيل المثال أسرع اكتساباً لمفردات التدريب من غيرها، وإذا ما تمت المقارنة في مستوى وسرعة الاكتساب لموضوع في نشرة التدريب لمجموعتين متدربتين "وفي حالة تساوي أثر المتغيرات الاخرى"، يصبح من السهل القول:

ـ ان الاولى هي أكثر ضبطاً من الثانية عندما تتقدم عليها في استيعاب مفردات التدريب واكتساب خبرات جديدة.

ـ ان طبيعة المسير أثناء التعليم المنظم وتوافق حركات الايدي والأرجل مثلاً يؤشر هو الآخر انضباطاً جيداً، لان الخلل فيه أي في الضبط ينعكس سريعاً على اتساق تلك الحركات وتوحدها.

ـ تعطي النتائج الايجابية لسياقات التدريب الفردي، أو الاجمالي بين الوحدات والوحدات الفرعية صورة واضحة على المستوى المتقدم للضبط، اضافة لما تمثله من تطور في منهاج التدريب، ووسائله وحسن القيادة وجودة التنظيم وعمق الوعي، وغيرها من معالم الاداء العسكري الجيد.

ـ كذلك الحال بالنسبة الى بعض انواع التدريب الخاصة مثل التدريب العنيف وتطعيم المعركة والقفز بالمضلات، حيث يؤشر اتقانها بالوقت المحدد ضبطاً رصيناً والتزاماً متميزاً.

٢. طبيعة العلاقات الاجتماعية.

يقضي المقاتلون جل خدمتهم بين زملاء لهم، يرتبطون واياهم بعلاقات خاصة واهتمامات مشتركة تؤدي الى التكافل الاجتماعي، وتذويب الفردية في إطار السلوك الجمعي المقبول

عسكرياً، ولكي يحدث نوعاً من الاتساق في أداء المجموعة وحاجة المؤسسة العسكرية لابد وان يكون هناك:
آ. انسجام في الرأي بين أفراد المجموعة.
ب. إيثار من بعضهم للبعض الآخر في سياق العلاقات فيما بينهم.
ج. سيطرة وتحكم في بعض الانفعالات غير المرغوبة والاتجاهات غير التوافقية.
إنها معطيات لا يمكن ان تتجسد في السلوك العسكري دون وجود مستوى مقبول من الضبط يساعد على عملية التوحد ونكران الذات. ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار:
- الوحدة/ السرية/ الفصيل/ الحضيرة التي تظهر انسجاماً جيداً بين منتسبيها أو أقل ما يمكن من مشكلات الخصام فيما بينهم أكثر ضبطاً من غيرها.
- ان الوحدة التي تنجز اعمالاً كلفت بها داخل الثكنة، أو خارجها دون تهرب منتسبيها أو تمارض البعض منهم، أحسن ضبطاً من أخرى انجزت نفس العمل مع تسجيل حالات ترك للواجب بحجج مختلفة.
- الوحدة التي يلاحظ أن البعض من افرادها يسعون الى الحصول على إجازات عند إحساسهم بتكليفها بواجب معين لابد وان يكون مستوى ضبطها أقل من وحدة أخرى ألغى بعض منتسبيها اجازاتهم، أو طلبوا تأجيلها حتى انجاز ذلك الواجب ومهما كانت طبيعته.
٣. المظهر العام.
تتميز المؤسسة العسكرية عموماً بطابع خاص من حيث نوعية الواجبات وأساليب تنفيذها، وكما موضح سابقاً، وهذه بطبيعتها تفرض نوعاً من المبادئ والاسس التنظيمية واساليب وممارسات عملية (سلوك) وتفرض مظهراً موحداً له وقعه على المعنيين أي المنتسبين وعلى الآخرين في البيئة العامة، مظهرٌ يتطلب:
آ. وحدة القيافة.
ب. نظافة المظهر.
ج. أداء التحية الى المافوق واحترامه.
د. جدية الحركة ونشاطها.
هـ. حلاقة الرأس.
و. التخاطب الهادئ.
وغيرها من الحالات والسياقات الدارجة في عموم القوات المسلحة التي يمكن عدها جميعاً من مؤشرات الضبط العسكري والالتزام الاجتماعي، التي عادة ما يستند اليها ضباط ومنتسبو الوحدات والتشكيلات في القرار على وجود الضبط العسكري أو تقدير مستوياته.
٤. مستوى المخالفة الدارجة.
تعد المخالفة وفق المفهوم العسكري دليلاً على قلة الضبط وانخفاض مستوياته، وان كان هذا الرأي صحيحاً في معظمه، إلا ان تعميمه وبشكل مطلق على كافة الحالات والمواقف يفتقر الى الدقة العلمية، لأن البعض من المخالفات تكون دوافعها أقوى من قدرة الانسان على السيطرة والانضباط، فالتغيب عن الوحدة مثلاً قد يكون جزءاً من الاسباب الكامنة وراء حصوله حاجة اقتصادية ملحة، أو مشكلة نفسية معقدة، وهذا يبين ان هناك ابعاداً اخرى، أو دوافعاً متعددة يمكن أن تضاف الى الاسباب الكامنة وراء المخالفات، وفي الوقت ذاته هناك نوع آخر منها يكون العامل الداخلي "الانضباط الذاتي" الاكثر هيمنة وراء سلوك المخالفة

مثل عدم تنفيذ الاوامر المباشرة وتخطي سلسلة المراجع أو التجاوز على المافوق وعدم اداء التحية واهمال أو رفض الاعتناء بالقيافة .... الخ.
وعموما فان المخالفة مهما كانت طبيعتها ترتبط بالضبط بعلاقة عكسية، أي ان شدتها أو مستويات تكرارها تمثل خللاً أكبر في مستوى الضبط العسكري وهكذا.
٥. كم ودقة الانجاز.
ان الميل لإنجاز عمل ما، أو الاندفاع لإكماله في الوقت المحدد يتعلق بجملة متغيرات أهمها:
آ. الدافعية.
ان الدافعية تعبر من بين أمور أخرى عن قدرة الانسان على ضبط انفعالاته والسيطرة على اتجاهاته، والميل القوي لإتمام الفعل الذي يشرع في القيام به. ومن هنا يمكن القول:
ـ ان الوحدة / الجماعة الاكثر دافعية يمكن ان تكون أكثر انضباطاً.
ـ الوحدة التي تنجز أعمالها قبل غيرها من الوحدات أكثر دافعية، وبالتالي يمكن ان يكون مستوى انضباطها متقدماً.
ان الوحدات تؤدي الكثير من البرامج والاعمال، خلال فترة السلم سواء في إطار الأعمال العسكرية أو بعيدة عنها قليلاً، مثل حفر خنادق أو بناء ملاجئ أو تشييد قاعات للسكن أو القيام بتشجير الارض المحيطة بالمعسكر أو القريبة منه، وانجاز مثل هذه الاعمال بالوقت المحدد والدقة المطلوبة وفي حالة توفرهما معاً يمكن ان تعطي تصوراً مقبولاً عن مستوى الضبط الذي تتمتع به تلك الوحدة، مع عدم اهمال احتمالات تأثير عوامل اخرى.
ب. الرضا.
الرضا عن الحال وكذلك الرضا عن الظرف المحيط والعمل القائم مسألة نفسية تتصل بمستوى الأداء ودرجة التنفيذ، وهي على هذا ومن الناحية المنطقية يكون العمل أدق والانجاز أفضل عندما يكون الرضا موجوداً، وبنفس الاتجاه فان التقيد بالتعليمات وسرعة ودقة تنفيذ أمر ما تتعلق بمتغير الرضا، بالإضافة الى المتغيرات الأخرى ذات التأثير المباشر وغير المباشر.
ان الرضا يتصل أو يتعلق أيضا بدرجة وشدة التحمل فالراضي عن نفسه وعن حياته القائمة تكون قدرته أكبر على تحمل مصاعبها وضغوطها، وهو بالتالي أكثر انضباطاً.
ج. القناعة الذاتية.
إن الاقتناع بالموضوع عامل يقترب ويتداخل مع الرضا من الناحية النفسية، وهوكما الرضا عامل مهم ومؤثر في مسألة التحمل والسعي الى التنفيذ وتحمل أعبائه، والعسكري المقتنع بالخدمة العسكرية الراضي عن حياته فيها يتعلم أسرع من غيره، ويكون مستعداً لتحمل ضغوطها وتنفيذ أوامرها بالمقارنة مع غيره، غير المقتنع أو المتذمر، لأن التذمر وعدم الاقتناع يسحب صاحبه عسكرياً كان أم مدنياً الى الرفض وكثرة التشكي وربما تكوين سلوك الايحاء المضاد الذي يتنافى مع الضبط ويؤشر مستويات دنيا منه.
ان القناعة الذاتية في مجال الخدمة العسكرية، قد لا تأتي نتيجة الرغبة أو الميل لأدائها خدمة وطنية، وقد لا تأتي كمحصلة لممارستها هواية كانت موجودة في الأصل يتجه اليها المعني لتحقيق الذات، فالبعض يمكن أن يدخل الخدمة العسكرية كعمل لم يجد سواه متاحاً في حينه، ويدخل آخر لكسب الرزق ولحين توفر فرص أحسن، لكن مثل هؤلاء الذين يشكلون نسبة غير قليلة وربما عالية تكون قناعتهم بالعمل أو بالخدمة العسكرية لا تتناقض مع قناعة الغير

بالخدمة العسكرية سبيلاً الى خدمة الوطن أو مجالاً للرفعة والسمو، وطنياً أو حتى شخصياً، وهنا يمكن القول أن أي من تلك القناعات الايجابية، يمكن أن تكون مفيدة لتقبل الحياة العسكرية المنضبطة، واكتساب الضبط عامل أساسي الى التكيف للعمل والعيش وسطها.

تقدير مستوى الضبط في الحرب

تختلف حالة الحرب تماماً عن حالة السلم في مجال الاعداد والتدريب والضبط والضغوط المحيطة، ففي ظروف السلم كل شيء يجري باتجاه اعداد الفرد وتهيئته لان يقاتل جيداً في أيام الحرب، لذا يكون مستوى تدريبه لما قبل حصول فعل الحرب متفوقاً وضبطه على العموم مرتفعاً واداؤه متميزاً، بالمقارنة مع حصول حالة الحرب التي يكون الواجب الرئيسي لكافة القوات خلالها القتال وادامته، وتأتي اجراءات التدريب والضبط وغيرها من معالم التأهيل في مرحلة تلي الاهتمام بالقتال وتحقيق النتائج المطلوبة على وفق الخطط الموضوعة كما ان الوقت قد لا يكون متاحاً في غالب الأحيان، هذا وإذا ما وضع القادة في حساباتهم التأكيد على تلك الاجراءات أي التدريب والضبط إبان سريان المعارك والاشتباك بالعدو، فقد لا يجدوا متسعاً من المجال لتحقيق رغباتهم هذه، أي أن الوقت والظرف قد لا يكونان مناسبين، فحدث على سبيل المثال إبان الحرب العراقية الايرانية (١٩٨٠- ١٩٨٨) أن وحدات وتشكيلات وفرق عسكرية أريد اليها أن تسحب من سوح القتال لتتدرب، وبسبب تبدل الموقف ألغيت أوامر سحبها، وحدث أن سُحبت أخرى من ساحة المعركة، ونفذت برامج تدريب لإعادة تأهيلها، لكنها وقبل أن تكمل مناهج التدريب أعيد الحاقها بالجبهة، وكلفت بواجبات قتالية، وفي مدارس الصنوف ومدارس القتال حصل أن ضُغطت مناهج تدريبية وقُلصت فتراتها بسبب النقص الحاصل في بعض التخصصات التي تحتاجها الوحدات من بين المتدربين في تلك المدارس بسبب كثرة الخسائر أو نتيجة تشكيل وحدات وقيادات جديدة، الأمر الذي تسبب في الحاق أولئك المتدربين المهيئين لبعض الاختصاصات الى الوحدات المعنية قبل أداء الامتحانات الخاصة بالتخرج، كذلك حصل بالنسبة الى الكلية العسكرية إبان فترات الحروب أن قُلصت سنيّ الدراسة فيها من ثلاث سنوات حسب المقرر الى سنتين وأحياناً أقل من هذا.

إنه واقع حال تكرر أيضا في فترة الحرب بالضد من الارهاب بعد عام ٢٠٠٣، اذ أُشركت وحدات في أعمال القتال الداخلي بالضد من التمرد والارهاب قبل اكتمال تشكيلها بالقدر القياسي، وقبل اكتمال تدريبها، علماً انه وفي الحرب يتم تجاوز القياسات وكراسات التدريب تحت بند الضرورة الحتمية في أحيان ليست قليلة.

تأشير المستوى

إن العرض المفصل في أعلاه، يلقي الضوء على مشكلة الضبط العسكري إبان الحرب، وينقلنا الى الجانب الثاني، وهو كيف يمكن لنا أن نؤشر مستواه في الوقت الذي تختلط فيه الاوراق، وتكثر فيه المتغيرات، ويصبح فيه كل شيء مؤثراً في الاداء والنتيجة خلال المعارك القاسية، ومع هذا فهناك معالم للاستدلال على الضبط العسكري وتقدير مستوياته خلال هذه المرحلة يكون من بينها:

١. نتائج المعارك الدائرة.

يحدث في الحرب ان تخوض وحدات معارك عديدة، فتدخل احداها لتتهيأ الى الثانية، وهكذا الحال حتى انتهاء الظرف القائم، لتكون نتائج تلك المعارك معياراً على كفاءة الوحدات من عدمها... معيار فشل أو نجاح في النتائج يستند عادة الى مدى القرب أو الابتعاد عن الهدف

المحدد لتلك الوحدة أو التشكيل أصلاً، والنتيجة التي تقترب أكثر من تحقيق الهدف، أي الناجحة بالمفهوم العام، تكون قد تظافرت عدة عوامل لتحقيق نجاحها هذا مثل:
آ. المعنويات العالية.
ب. القدرة على التحمل الجيدة.
ج. التدريب المناسب واجراء الممارسات العملية.
د. وضوح الهدف والايمان بضرورة تحقيقه.
هـ. التسليح الجيد.
و. طبيعة الخطة وسهولة تنفيذها.
ز. القيادة والسيطرة.
ح. بالإضافة الى ارتفاع مستوى الضبط وعوامل أخرى.
وفي الجانب الثاني فان الابتعاد عن الهدف، أي الفشل في المعركة تكون قد ساهمت في حصوله عدة عوامل ليست قليلة أيضاً مثل:
آ. ارتباك الخطط وتعقيدها.
ب. قدرة العدو وامكاناته الجيدة.
ج. ضعف التوعية بأهداف المعركة وأهميتها.
د. غياب الجهد النفسي للتحصين ورفع المعنويات.
هـ. عدم كفاية التدريب.
و. بالإضافة الى انخفاض الضبط ومتغيرات أخرى.
على وفق التصور المذكور يصعب القول بان الضبط العسكري، وحده هو العامل الحاسم في نجاح المعركة أو فشلها، الا اننا بطبيعة الحال قد نستطيع ترجيح كفة الضبط عندما يكون:
- تسليح الوحدة جيداً.
- أخذت فرصتها من التدريب وفق مناهج معروفة.
- مستوى وعي منتسبيها بأهمية المعركة غير مشكوك فيه.
- آمرها مشهود بكفاءته في قيادة وحدات أخرى وفي مواقف سابقة.
- العدو لم تتغير أساليبه أو امكاناته.
- بعدها لم يبق سوى العامل النفسي وبنية الضبط الاكثر تأثيراً في تحديد معالم الفشل عندما لم تستطع الوحدات الاقتراب من هدفها، خاصة وان دقة تنفيذ الأوامر وسرعة الاستجابة والالتزام بالتعليمات والتوجيهات والتفاعل معها، يمكن ان تكون مهمة وذات تأثير مباشر على نتائج المعارك الجارية، وبذلك يمكن ان تعطي نتائج المعارك، ومن بين أمور أخرى مؤشراً تقريبياً مقبولاً عن مستوى الضبط.
٢. الظواهر السلبية.
ان استجابة الانسان المقاتل لضغوط الحرب متباينة فقد يستجيب أحدهم لتأثيرات الحرب النفسية المعادية بالتحدي، وزيادة العدوان بالضد من جيشها، بينما تخلق لدى الشخص الثاني ميلاً الى التساؤل والاستفسار، وقد يلجأ أحد المقاتلين الى التغيب عن وحدته بعد استلامها لأمر بالتحرك من أجل التصدي لهجوم معادي مرتقب، وقد يجد زميله أن هذه الفرصة هي الأمل له في الانتقام لصديق له وَقعَ صريعاً برصاص الغدر والعدوان، ومن بينهم من يعتقد ان حياته مرهونة بقدرته على التسرب الى الخلف عند حصول تماس مع قوات العدو، في

حين يسلك الآخر بالضد عندما يرى ان نجاته تتعلق بإمكانات وحدته وزملائه بالصمود وتدمير العدو.
إن مثل هذه الانماط من السلوك، وكما موضح في مجال آخر يتعلق قسم كبير منها بمدى سيطرة المقاتل على انفعالاته في تلك اللحظات الحرجة، لذلك يصبح النزوع الى الغياب وبنسبة عالية بين منتسبي الوحدة مؤشراً على عدم انضباطها، اضافة الى ما تعكسه من حالة الخوف وضعف المعنويات، لأن الشخص الملتزم والمنضبط، بإمكانه الابتعاد عن سلوك المخالفة حتى وان مثلت له حاجة عضوية أو نفسية مهمة، كذلك بالنسبة الى التسرب، أوترك المواضع الدفاعية بدون أمر عند الاصطدام بالعدو، أو قبله قليلاً، والذي يعد أكثر المخالفات تأثيراً على القدرة القتالية للوحدة ومستقبلها، فهو سلوك اساسه ضعف الضبط أيضا.
هذا ومن بين الظواهر السلبية الاخرى التي ترتبط بالضبط في بعض جوانبها قيام قسم من المقاتلين بترك وحداتهم أثناء تحركها الى قواطع أخرى خاصة عند احتمال اشتراكها الفعلي بمعركة ما، ومن ثم الالتحاق اليها بعد انجلاء الموقف، أو قيام البعض بالاستفادة من معالم الطبيعة والحفر والملاجئ المتروكة في البقاء بداخلها عند تقدم وحداتهم الى اماكن انفتاحها، أومنها الى مكان التشكيل، أو خلال صولتها على العدو، ليظهرون ثانية بعد تحقيقها لأهدافها، أو بعد انسحابها لأغراض اعادة التنظيم.
ان مثل هذه الظواهر السلبية حدثت وتكرر حدوثها في غالبية الحروب التي خاضها الجيش العراقي الى المستوى الذي عدت ظاهرة مقلقة للقيادات الميدانية، أثرت على نتائج العديد من المعارك، وبسببها شكلت في وقتها مفارز مشتركة من الانضباط العسكري والاستخبارات العسكرية والتوجيه المعنوي للتعامل الميداني مع المراتب الذين يلجؤون الى هذا النوع من السلوك، وقد تسجلت آنذاك حالات من الاعدام الميداني كنوع من التعامل الرادع، وقد تكررت هذه الظاهرة بعد العام ٢٠٠٣ إذ رفض عمداً بعض المراتب التحرك مع وحداتهم عند صدور الأمر لها بالتحرك من جنوب البلاد الى غربها وشمالها، وترك آخرون وحداتهم في منتصف الطريق، وتسرب قسم من المقاتلين اثناء الهجوم على العدو، أوفي أثناء الدفاع ضد هجمات الارهابيين، وبطريقة تكاد أن تكون متقاربة بين الأمس واليوم، والفارق الوحيد أنه وما بعد العام ٢٠٠٣ لم تلجأ القيادات الميدانية، ولا العليا الى اتخاذ إجراءات ميدانية رادعة لتغيير أساليب التعامل أو سياقات القيادة للتعامل لاعتبارات أغلبها سياسية[20].
انه سلوك يمكن أن يحدث في كافة الحروب، ولكثير من الجيوش يرجعه المختصون الى جملة عوامل بينها قلة الضبط العسكري. لذا يمكن ان يؤشر تكرارها في وحدة ما، أوفي تشكيل معين ضعفاً، أو هبوطاً بمستوى الضبط.
٣. وقع الحياة اليومي.
لقد تعلم المقاتلون منذ السلم، أو اثناء فترات إعادة التنظيم التي تجري عادة في الحرب، أساليب التعامل مع كافة المتغيرات والأحداث المحتمل وقوعها، إذ تلجأ المؤسسات والوحدات الى تعليمهم التفاصيل التي تتعلق بطبيعة ادائهم، أو نوع سلوكهم في المواقف الشبيهة بالاستناد الى وسائل وطرق التدريب المتنوعة، وتدعم تلك المعطيات بتوجيهات وتعليمات مطلوب الالتزام بها وتطبيقها تصدر عادة من الجهات القيادية العليا بضوء تطورات الحرب وحاجتها الى التأكيد على بعض المتطلبات ومن الدروس المستفادة من المعارك التي يجري تحليلها،

[20] . العبيدي، سعد (٢٠١٤) الجش العراقي، الواقع واعادة البناء ٢٠٠٣- ٢٠١٤، دراسة غير منشورة.

حفاظاً على سلامة المقاتلين ودعم قدراتهم القتالية، لذا بات معروفاً كيفية حفر الملاجئ وخنادق المواصلات، والتحرك خلالها، ثم لم يعد هناك غموض في أوامر التنقل بالعجلات وضبط الفواصل بينها، وقد مارست الوحدة مراراً خلال التدريب والتطبيق العملي كيفية الانفتاح، وما يمكن عمله في كل مرحلة من مراحل الهجوم، أو ما يجب اتخاذه في حالة الدفاع، لذلك يكون سلوك الفوضى خلال الاركاب، أو حركة العجلات وتنقلها، أو المسير على الحافات الامامية للموضع الدفاعي، أو التنقل بين المواضع والملاجئ خارج الخنادق المخصصة لذلك، ومن ثم عدم الامتثال الى أوامر تطبيق الانذار الصباحي والمسائي في غياب الآمر المباشر، أو كثرة حركة العجلات في المواضع الدفاعية الامامية، وسرعة سيرها مع فتح الضياء ليلاً، أو اللجوء الى طهي الطعام في الخنادق والملاجئ الامامية، أو التكدس وعدم الانتشار عندما يطلب ذلك، معالم سلوك جميع أشكاله مخالفةً للضبط العسكري، ودليلاً واضحاً في حالة حصولها وانتشارها بين المقاتلين في وحدة معينة على تدني مستوياته أي الضبط.

٤. المخالفة.

بالإضافة الى ما مذكور فان المخالفات التقليدية التي تحدث في الوحدات سواء في حالة السلم اوفي ظروف الحرب، والتي سبق التطرق اليها، يمكن ان تعطي هي الاخرى تصور عن حالة الضبط، أو مستوياته في التشكيلات أو الوحدات والوحدات الفرعية، وهو من أهم المؤشرات وأكثرها استدلالاً.

الفصل الخامس
الآثار المترتبة على هبوط مستوى الضبط

الآثار المترتبة على هبوط مستوى الضبط

ان إعداد العسكري وتأهيله من شخص يمتلك قدراً كبيراً من الحرية والمرونة في التعامل مع الحياة أو البيئة العامة بأسلوبها المدني التقليدي بعيداً عن الضغوط والالتزامات، الى آخر متوافقٍ مع البيئة العسكرية بظروفها الضاغطة بمستوى عالٍ من الالتزام والضبط، للحد الذي ينفذ فيه ذلك العسكري، الأوامر الصادرة "الحرب" رغم احساسه أحيانا بان حياته قد تكون ثمناً لهذا التنفيذ.

انه تأهيل ليس سهلاً، ولم يتوقف اكتساب معطياته على مرحلة زمنية محددة أي فترة التدريب الأساس مثلاً، بل تعد عملية دائمة يحتاجها العسكري منذ التحاقه الى الخدمة مستجداً وحتى آخر يوم له فيها متقاعداً أو غير هذا، أي أن هناك ادامة مستمرة لمستوى الضبط.

هذا وان اعداد العسكري وتأهيله بالقدر المطلوب يعتمد عناصر عدة تتفاعل مع بعضها، ويكمل أحدها الآخر، وكما موضح سابقاً، لتتكامل الصورة التي تمثل مقاتلاً جيداً، قادراً على التنفيذ في أكثر الظروف صعوبة، علماً ان الاخلال بأي عنصر من تلك العناصر يمكن ان يؤثر على الضبط ومن ثم على الأداء المطلوب، وهذا بطبيعته لا ينسجم وتوجهات المؤسسة العسكرية في اعداد منتسبيها للتعامل مع الظروف الضاغطة.

ولمزيد من الايضاح سيتم تناول الاثار الجانبية لانخفاض الضبط في حالتي السلم والحرب، وتحت العناوين الآتية:

الآثار المترتبة على هبوط مستوى الضبط في السلم.

الآثار المترتبة على هبوط مستوى الضبط في الحرب.

تلقائية التأثير على الضبط في الحرب

الآثار المترتبة على هبوط مستوى الضبط في السلم

ان آثار ومردودات قلة مستويات الضبط أو انخفاضها في حالة الحرب تختلف عنها في حالة السلم والاستقرار كماً ونوعاً، ففي إطار النتائج تكون الحالة الأولى أكثر وضوحاً، ومن حيث التأثير فانه في الحرب أكثر خطورة على العسكريين كأفراد، وعلى الوحدة كتنظيم، وعلى الدولة والمجتمع كوجود.

في أثناء السلم مثلاً، لا يتسبب كثر الحركة في الموضع الدفاعي المفترض أثناء التدريب الإجمالي في أن يدفع المقاتل حياته ثمناً لقصف مدفعي مرتقب، ولا يمكن ان يضطرب وجود الوحدة ومستقبلها نتيجة لتسرب قسم من مقاتليها من مواضعهم أثناء هجوم شكلي للعدو، أو بسبب عدم امتثالهم لأوامر بالتقدم لاحتلال هدف ما في تمرين من تمارين اللواء أو الفرقة، لذا فان استجابة المقاتلين عموماً ستتغير بسبب طبيعة تحسسهم ومستوى ادراكهم للخطر، وجدية التعامل مع مصادره، الا إنه وعلى الرغم من هذه المعطيات فان لضعف الضبط في السلم اثاره السلبية أيضاً، سواء في مجال اعداد القوات للحرب كهدف رئيس للجيش وباقي أفرع القوات المسلحة، أوفي بعض المجالات الآنية الأخرى، منها:

١. ارتباك خطط التأهيل وضعف فاعليتها.

ان المؤسسة العسكرية بكافة قياداتها، ووحداتها تسعى الى تأهيل منتسبيها وفق برامج وخطط معينة، لبناء قدراتها القتالية أثناء السلم وبصفة مستمرة، وعلى وفق هذا المنطلق فان استعداد تلك القوات هو أساس كسب معاركها المقبلة عند حدوث الحرب فعلاً، وهذا التهيؤ والإمكانات المتقدمة تعود الى جملة أمور بينها التدريب والتسليح والاعداد الفكري والنفسي متفاعلة مع الضبط العامل المشترك، لأن تلك المتغيرات التي تعبر جميعها عن كفاءة تلك القوات وقدرتها على الحسم السريع والفعال، لا جدوى لفاعليتها دون وجود الضبط العامل الأساس لتنفيذ الأوامر الخاصة بها:

آ. ففي مجال التدريب، تكون الفرص أفضل في التدريب الأساسي منه للاستفادة من الدروس التي يلقيها المعلم أو الآمر، وتكون كذلك أفضل في تعلم الحركات المطلوب تعلمها لمن يتمتع بضبط عال، وبالتالي تكون المحصلة لهذا المستوى من التدريب نجاحاً في اكساب المتدربين المهارة المطلوبة. وفي التدريب الإجمالي يسعى المنضبطون الى تطبيق الوصايا والتعليمات بدقة أكثر من غير المنضبطين، والنتيجة ستكون تدريباً اجمالياً فاعلاً في قيام الوحدة/ القيادة بممارسة عمل تعبوي والاستعداد للقيام بمثله في حالة الحرب.

كما إنهم أي المنضبطين يتقنون فنون تلكم النوعين من التدريب ويستوعبون تفاصيلها بسرعة أكثر من غير المنضبطين.

ب. وفي مجال الاعداد الفكري والنفسي، فان مسألة إدراك المواطنة وحقوقها وحصانة الانسان ضد التأثيرات الخارجية المعادية، يتعلق قسم كبير منها بالإنسان واستعداده للتعامل مع تلك المفردات، ولا بد والحالة هذه ان يكون المقاتل المنضبط والملتزم مع نفسه ملتزماً أكثر من غيره في التعامل مع مشاعر المواطنة ومعطياتها.

وهو أقدر من غيره في الاستماع الى التوجيهات والمحاضرات في هذا الخصوص، ومن ثم الاستفادة منها في سلوكه العام.

على هذا يمثل ضعف الضبط ارتباكاً واضحاً في كل تلك المعطيات التي تنعكس على خطط تأهيل المقاتلين، وتنمية استعدادهم كما ينبغي.
٢. التأخير في تطبيق خطط إعادة التنظيم.
عادة ما تكون في الوحدات أعمالاً كثيرة مطلوب إنجازها بعد عودتها الى مقرات أكثر استقراراً بعد انتهاء معالم الحروب، أو بعد انقضاء فترات التدريب الإجمالي على سبيل المثال هناك:
آ. المساهمة في بناء أو ترميم المقرات، أو الثكنات لإسكان منتسبي الوحدات مع ادامة الأجهزة والمعدات وقياس فاعليتها بعد استخدامها لفترة طويلة، ثم إجراءات تنظيم تواجد المقاتلين وكيفية إشغال وقت الفراغ المتيسر، خاصة بالنسبة للوحدات البعيدة عن مراكز المدن. والتي لا تسمح ظروفها بالنزول اليومي.
ب. ديمومة التأهيل البدني من خلال ممارسة الرياضية، وخوض السباقات الفردية والجماعية.
ج. تعزيز روح الجماعة، وتجسيد حالة الانتماء الى الوطن.
د. إعادة تصنيف وتوزيع المنتسبين من الضباط والمراتب على السرايا والفصائل والحضائر، استناداً الى خبرة الحرب أو القدم والكفاءة التي يتم ادراكها في التمارين والممارسات.
هـ. وغيرها من الاعمال اليومية الدارجة ذات الصلة المباشرة بإعادة التنظيم، والتي تشمل عادة الكثير من التفاصيل والتوجيهات والوصايا.
إن مثل هذه الأمور الكثيرة والمتشعبة لابد وان يكون أحد عوامل تنفيذها بالمستوى المطلوب الضبط الطوعي، والالتزام الذاتي، وعلى سبيل المثال فان بناء ملاجئ أو قاعات سكن أو مقرات للوحدات يمكن أن يُنجز بأيام معدودة أو بعد عدة أسابيع تبعاً لاستجابة القائمين بالتنفيذ، كذلك الحال بالنسبة الى السباقات الرياضية وإجراءات المنافسة الجماعية بين الوحدات والوحدات الفرعية، التي يتسبب ضعف الضبط في افشال أهدافها استناداً الى ضعف مستوى الجدية، أو عدم التزام المعنيين وتقيدهم بقواعدها.
٣. التأثير على سمعة الوحدة.
لكل وحدة تاريخها المعروف وسمعتها بين باقي الوحدات ضمن الفرقة والقيادة، أوفي عموم الجيش والقوات المسلحة في بعض الأحيان، فنرى ان الفوج الأول لواء المشاة الأول في الجيش العراقي لا يزال معروفاً رغم مرور فترة طويلة على تشكيله عام ١٩٢١، وتعاقب عدة أجيال للخدمة فيه، وكذلك الحال بالنسبة للعديد من التشكيلات والوحدات التي أصبحت هي الأخرى علامة مميزة على مستوى القوات المسلحة وكذلك البعض من القادة. وتاريخها وتاريخهم هذا لم يأت جزافاً، بل دونته وتناقلته اعمال المنتسبين وجهودهم وادائهم المتميز عبر السنين، ولنا في الحروب التي خاضها الجيش العراقي أو شارك في خوضها أمثلة كثيرة عن وحدات خاضت معارك ناجحة تألقت خلالها عندما أصر منتسبوها على التحدي وكسب المعارك في أكثر الظروف صعوبة وتعقيداً، مثل اللواء المدرع ١٢ في حرب عام ١٩٧٤، ومن الأسماء اللامعة القائد عمر علي في حرب عام ١٩٤٨.
بينما فشلت الأخرى في معارك متعاقبة حيث أدت مواقفها هذه الى تشويه سمعتها تدريجياً، ومن ثم طي صفحات تاريخها تماماً والغائها من تنظيم الجيش، بالوقت الذي كانت فيه الحاجة على أشدها لوحدات وتنظيمات جديدة.

وقد تكررت الحالة ذاتها بعد العام ٢٠٠٣ إبّان حرب مكافحة الارهاب، إذ سجلت قوات مكافحة الارهاب ومنها الفرقة الذهبية أداءً متميزاً تمت الاشادة به من قبل عموم العسكريين والمواطنين، وكذلك الخبراء العسكريين في الخارج، في حين فشلت وحدات وتشكيلات في الصمود أمام هجمات بسيطة لقليل من أفراد العدو، كما حصل في معركة الموصل ١٠ نيسان ٢٠١٤، وما بعدها في الانبار وتسرب المنتسبون من مواضع وحداتهم وثكناتها الى المستوى الذي أخرجت فيه من المعركة.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن تاريخ الوحدات هذه ينعكس على سمعة منتسبيها، إذ يشار دائما بضابط كان له شرف الخدمة في الوحدة أو التشكيل أو الفرقة الفلانية، ويمكن أن يكون ذلك سبباً في تحديد مستقبله العسكري.

من هذا يتبين ان للوحدة تاريخهاً المعروف، وسمعتها الناصعة التي تتأثر في وقت السلم بعوامل عدة أهمها ضبط المقاتلين والتزامهم بالنظم والتقاليد والأعراف السائدة، لذا نلمس ان أية مخالفة لعسكري خارج وحدته تدفع الاخرين للاستفسار أولا عن الوحدة التي ينتسب اليها.

ان تكرار تلك المخالفات مع غيرها من المشكلات التي تحدث بسبب قلة الضبط سرعان ما ينتشر خبرها في الفرقة أو القيادة، وربما خارج قاطعها، وقد يخلق تصوراً سلبياً لدى المقرات الأعلى عن تلك الوحدة وضباطها.

٤. ضياع فرصة الاستفادة من الخدمة العسكرية.

ان في الخدمة العسكرية فرصاً عديدة لاكتساب الكثير من الخبرات الفنية، وتشكيل السلوك المنضبط الذي يحتاجه الانسان، ليس في عمله العسكري فحسب، بل وفي حياته المدنية، اذ ان وجود الانسان في وظيفة ما، لا يلغي الحاجة الى الالتزام بالحضور والانصراف بوقت محدد "الضبط" أو تجاوز احترام المستوى الأعلى أو المدير المباشر "ضوابط قِيَميّة"، لذا تكون الخدمة العسكرية مجالاً لتنظيم هذا السلوك، إذ انها تؤهل المنتسبين إبان خدمتهم فيها الى العمل في دائرة حكومية أو مؤسسة خاصة، وبمستوى مقبول من النجاح والاستقرار، حتى أن الموظفين فيما بينهم يسألون زملاءهم الملتزمين بالدوام والتوقيتات أي المنضبطين بعبارات دارجة على شكل أسئلة بينها على سبيل المثال:

قابل انت عسكري؟، أو.

هل خدمت في العسكرية؟. ... الخ.

كذلك لا يزال متداولاً في المجتمع العراقي وبين العوائل في الريف وقسم من المدينة على حد سواء من ان العسكرية المكان الملائم لإعادة تشكيل سلوك أحد أبنائها الذي كان قبل التحاقه اليها يتصرف بنوع من اللا أُبالية والتسيب أو الخوف والتردد، لان العسكرية مدرسة شاملة يقع على عاتقها المساهمة في التربية، واكساب الخبرات وتأطير السلوك، وبما ينسجم وحاجة المجتمع الى الانسان المقتدر.

هذا وان العتبة الأولى في سلم هذه المدرسة المجتمعية العامة الشاملة هي الوحدة العسكرية وطريقتها في بناء الانسان، وتحديد سلوكه المنضبط، وفشلها يعني ضياع الفرصة على الذين تتطلب حالتهم أو حاجتهم الفعلية لإعادة بناء وضعهم النفسي من جديد بعد أن عجزت العائلة أو المدرسة عن القيام بتلك المهمة، وكثيرة هي الأمثلة التي تؤكد دخول أفراد الى الخدمة العسكرية وهم أكثر ميلاً الى المخالفة والتحدي، أو التسيب وعدم الالتزام، وخرجوا منها أكثر استقراراً وهدوءً وانضباطاً، ثم أكثر شجاعة وثقة بالنفس واستعداداً للعمل والنجاح، الا

انه وبنفس الوقت تشير الخبرات الى ان العكس من ذلك قد يحدث للبعض من المقاتلين أحيانا، عندما يخرج مثل هؤلاء الى المجتمع بأفكار وسلوك بالضد من ضوابط ومعطيات الخدمة العسكرية، وهم على قلتهم بالمقارنة مع غيرهم يرى المتابع، وكأنهم لم يتعرضوا الى خبرات لتطوير امكاناتهم أو تشذيب سلوكهم، مما يعني خسارة للفرد في أن يجد نفسه في مجتمع أكبر، وأن يعيش حياته المستقبلية ملتزماً بضوابط وقيم المجتمع الأوسع، وخسارة للمجتمع ذاته في سعيه للاستفادة من كل الجهود في البناء والتعمير.

الآثار المترتبة على هبوط مستوى الضبط في الحرب

ان الحرب هي المعيار الدقيق والمحك الصادق لتقدير أداء المقاتلين، والمؤشر الواضح عن مدى جدية كافة الجهود التي بذلت لإعدادهم منذ السلم، لأنها التجربة العملية الصادقة التي من خلالها يعبر الفرد عن قدراته، وهي الحالة التي تكون نتائج العمل فيها ملموسة ومؤثرة، اذ تبدأ المعركة لتنتهي بتقييم معروف فيما اذا كانت ناجحة أو فاشلة، وتقدير قيمة هذا الفشل أو ذلك النجاح، يعتمد أساساً على جملة أمور بينها مستوى انضباط المقاتلين في تلك الساعات أو الأيام الحرجة، هذا بالإضافة الى ان طبيعة الضغوط خلال السلم لا يمكن مساواتها بما يجري في ظروف الحرب، حيث التأثير الفاعل للتعب والاجهاد البدني، ونتائج القلق والضغوط النفسية التي تستنزف طاقة المقاتلين وامكاناتهم البدنية والنفسية، وفي ظل هذه الظروف ومن الناحية المنطقية يكون:

أكثر صموداً من تدرب وتعلم معايير الضبط خلال مراحل التأهيل.

أكثر مطاولة من اكتسب صفات الضبط جيداً طوال فترة خدمته العسكرية.

ان الضبط في حالة الحرب لا يعني الطاعة المطلقة لأوامر المافوق وتنفيذ التوجيهات فقط، بل انه عامل مساعد على توجيه كل الجهود، وتركيز العمل نحو هدف الوحدة لتكون قادرة على أداء مهمتها على الوجه الاكمل، وأي خلل فيه يعني الفشل في ذلك.

هذا وان الآثار السلبية لهبوط مستوى الضبط في حالة الحرب تتركز على الآتي:

١. ضعف الاستجابة الى الأوامر الصادرة.

ان الاستفادة من الوقت واستثماره جيداً من العوامل المهمة لنجاح أي معركة هجومية كانت أو دفاعية، وعادة ما يحسب بشكل دقيق في تقادير الموقف المعدة بكافة المستويات، وعدم الالتزام به يعني الاتجاه نحو التعقيد، واحتمالات الفشل.

فالقصف المدفعي التمهيدي لمعركة هجومية محسوباً على سبيل المثال من:

الساعة (س) ناقص .... الى الساعة (س) زائد ... حسب ما ثبت في الخطة، وهذا يعني سقوط عدد من القنابل على مساحة محددة من الأرض يفترض تأثيرها على العدو بنسب تقريبية، ولكي يرمي المدفع أو الرعيل والبطرية أو الكتيبة، يحتاج من يحسب له الاتجاه والمسافة، ثم من يهيأ القنبلة، ومن يحملها الى سبطانة المدفع للتلقيم "التحشية"، حتى يطلقها شخص آخر باتجاه هدفها، وكل تلك الحركات حسبت نظرياً وعملياً، لتبين قدرة المدفع أو الرعيل والبطرية وحتى الكتيبة على الرمي في وقت محدد، وهذه الحسابات أحد المعطيات التي تستند اليها المدفعية في وضع خططها في القصف للتأثير على العدو، والتقصير أو التباطؤ أي ضعف الاستجابة في أي مفصل من المفاصل المذكورة، يؤدي الى تأخير الرمي، وهذا يعني حصول العدو على فرصة أكبر في النجاة أو الرد، وهكذا تنسحب كل تلك المتغيرات على قدرة المدفع، أو الرعيل أو البطرية على التأثير، ومن ثم احتمالات الفشل في تنفيذ الخطة برمتها.

ان ضعف الاستجابة كأحد نتائج قلة الضبط، يمكن أن تظهر تأثيراتها السلبية على أداء منتسبي كافة الصنوف المقاتلة والساندة أو الخدمية، ففي المشاة تكون الصورة واضحة، عندما يتطلب الموقف التحرك من مكان التشكيل الى خط الشروع، أو التقدم باتجاه العدو خلال الصولة بسرعة معينة، اذ يعكس التأخير مدى التعرض لنيران العدو من جانب، وارتباك الفعاليات

المحسوبة وفق توقيتات الخطة من جانب آخر، أما بالنسبة للعدو فسيقدم له التأخير فرص مضافة لزيادة قدرته في الاستعداد والدفاع عن مواضعه، ومرونة أكثر في تحريك قطعاته والمناورة بها في صفحة الهجوم[21].

وفي الشؤون الإدارية يمكن أن يساهم التأخير في إيصال الماء والارزاق أو العتاد، الى وحدة تدافع عن مواضعها تحت ضغط العدو لعدة أيام، الى التعجيل في سقوط مواضعها، خاصة عندما يكون الاجهاد والقلق على أشده بين المقاتلين الذين تساعد حالتهم النفسية على التمسك بأية تبريرات متاحة، لاتخاذ أخطر القرارات المتعلقة بإمكانية الاستمرار في القتال من عدمه.

وهو أي ضعف الاستجابة عامل مؤثر على العمليات القتالية وفي كافة صفحات القتال، خاصة في الحرب الحديثة التي اتسمت من بين أمور أخرى، بالسرعة والقابلية على الحركة، لذلك يكون التأخير في تنفيذ الأمر بسبب ردود فعل المقاتل وضعف انضباطه، مساهمةً مباشرة في الاتجاه نحو الفشل في تحقيق الهدف.

٢. عدم ضبط النار والرمي العشوائي.

ان الحاجة الى السيطرة على النيران بكافة اشكالها، مسألة مهمة في حالات الدفاع أو الهجوم أو حتى الانسحاب، ويلاحظ كثيراً أثناء المعارك حدوث الرمي دون وجود أية أوامر بذلك، مما ينعكس سلباً على طبيعة الحركة، أو ظروف القتال:

فيمكن ان يؤدي قيام أحد افراد الحضيرة الامامية بالرمي دون أمر الى انكشاف الهجوم الذي كان مفروضاً ان يتم تحت عنصر المفاجأة أي الهجوم الصامت، وما يسببه ذلك من احتمالات التأثير على نجاح الخطة، أو زيادة نسبة الخسائر التي قد تتكبدها تلك الوحدة أو التشكيل بعد ان علم العدو بحدوث الهجوم وقيامه بالرد على ذلك.

وفي مواقف تعبوية أخرى يمكن أن يطلب من المقاتلين في مواضعهم الدفاعية عدم فتح النار حتى تقترب مجموعة أو دورية للعدو باتت مرصودة، وعند عدم الالتزام بهذا الأمر سواء بقصد المخالفة، أو بسبب الارتباك يعني الفشل في القضاء على تلك الدورية، ثم فسح المجال أمامها لإيصال المعلومات التي تم الحصول عليها عن المواضع الدفاعية، فيما اذا كان من بين أهدافها ذلك الاستطلاع.

ان عدم السيطرة على النار أو الرمي العشوائي يمكن ان يعبر في مواقف عديدة عن القلق حيث اللجوء الى الرمي في حالة عدم وجود حركة واضحة للعدو تنفيساً لمشاعره أي القلق خاصة بمستوياته الشديدة، والقلق واحد من المشاعر الانسانية، التي يصاحبها انفعال سلبي يتسبب في حصول التوتر وقدر من الترقب لخطر قادم، مع عدم اطمئنان الشخص القلق لمتغيرات المحيط الموجود فيه[22]، وهو مثل الخوف، قليله غير مضر، بل مفيد في بعض الأحيان، وحياة الانسان بشكل عام لا تخلو من القلق الذي يحيط بالجميع من كل جانب، لذا يرى علماء النفس أن القليل منه يفيد في تهيئة الانسان لمواجهة الحياة اليومية، ويجعله مستعداً بقدرة أحسن لمواجهة المخاطر، وكذلك الحال في البيئة العسكرية، فإن قليل من القلق لدى جندي السيطرة أو الراصد في الحافات الامامية على سبيل المثال، يجعله منتبه بشكل أفضل، ومستعد للتعامل مع المتغيرات التي قد تحصل في الموقف، وعضلات جسمه ذات الصلة

---

21. ان ضعف الاستجابة علمياً لم تتأتى فقط من ضعف الضبط، اذ ان هناك عوامل أخرى يمكن أن تسهم في تكوينها من بينها التعب والحالة النفسية، مثل الاكتئاب وصدمة المعركة وضغوطها وتردي الحالة المعنوية، الا أن الضبط يمكن ان يكون من أقوى العوامل تأثيراً.

22 . العيسوي، عبد الرحمن (ب. ت) العلاج النفسي. دار المعارف الجامعية، الاسكندرية.

باستخدام السلاح مستنفرة بشكل كامل لاستخدام السلاح بالطريقة الصحيحة التي تعلمها في التدريب، دون توجس أو ارتباك، أي أن مستوى القلق المقبول هذا أسهم في زيادة درجة اتقان المقاتل لاستخدام سلاحه، وقليل من القلق لدى الطيار أثناء تأديته لمهمة قتالية، تجعله يركز أكثر على أجهزة الطائرة ويتابعها بشكل أفضل، وكذلك الحال بالنسبة الى البحارة والعاملين على شاشات الرادار، وهكذا لجميع الصنوف. لأن القلق بمستوياته البسيطة أي المقبولة يصبح باعثاً ايجابياً لتحقيق توافقهم مع الموقف، ومتطلبات التعامل معه.

إلا أن الزيادة المفرطة في مستويات القلق، والعالية منه على وجه الخصوص وهي الحالة التي تحصل كثيراً في الحروب، تدفع بالمقاتل الى الشرود الذهني، والتشتت في الانتباه، وقلة التركيز، ويؤدي استمرار الارتفاع في مستوى القلق فترة طويلة، الى أن يكون اضطراباً يعيق الانسان والمقاتل عن أداء مهامه بالشكل الصحيح وبالوقت المطلوب، بعد ان يُرهق جهازه العصبي ويجعله متوتراً، مستنزفاً جل طاقته النفسية، وبالتالي يدفعه باتجاه تعكر المزاج لمستوى الاكتئاب في الحالات الأشد، وقد يصل الحال بالنسبة للبعض الى الإصابة بالهلاوس السمعية، عندما يعتقد جازماً بانه يسمع أصواتاً لا وجود لها، تدفعه الى اطلاق النار باتجاهها، أو اصابته بالهلاوس البصرية عندما يتصور وجود اهداف معادية في مرمى البصر ويقوم بالرد عليها بإطلاق النار على الفور[23].

ان هذه الحالة من أكثر الحالات ملائمة لتحليلات العدو في المجال المعنوي، أوفي جوانب تدقيق القدرة القتالية الفعلية لتلك الوحدة، إضافة الى ما تسببه من تبذير في العتاد الذي قد يفرض الظرف القتالي الحاجة اليه في مواقف أكثر تعقيداً[24].

٣. التفكك وضعف الإحساس بوحدة الهدف.

ان القوات المسلحة بكافة صنوفها وتشكيلاتها مصدر قوة الدولة ورمز استقلالها، والضبط العسكري أساس ترابط تلك القوة، وادامة اقتدارها باتجاه تحقيق أهدافها، واذا كان الضبط اطاعة للأوامر الصادرة، فانه أيضا معيار للالتزام بالتعليمات بهدف تحقيق الغاية العامة للقوات المسلحة التي تكون عادة الدفاع عن ارض الوطن، وضمان استقلال وسلامة الدولة، أو الغاية الخاصة لقيادة منطقة ما، أو فرقة معينة في إعادة احتلال أرض سبق وان تجاوز عليها العدو نزولاً الى هدف الوحدة في الدفاع عن موضعها وحرمان العدو من احتلاله، والذي لا يخرج عن السياق العام لهدف الفرقة، أو قيادة المنطقة والقوات المسلحة، وهذه أهداف بحاجة الى حشد جهود الجميع في سبيل تحقيقها، وهنا يأتي دور الضبط في توجيه الجهد الجماعي، وتركيز العمل وتوحيد الرأي بشكل يضمن الاستفادة من الكل لتحقيق الهدف

---

[23] . young J. and Dobler, M. (1983) Anxiety states, Panic and Phobia in a Angst, general population -World. Psychiatry congress proceedings, Vienna, plenum.

[24] . ان الرمي دونما سبب، قلقاً موقفياً هو التفسير الأكثر احتمالاً، وهو سلوك غير صحيح تكرر بكثرة في بعض وحدات الجيش العراقي إبان الحرب العراقية الايرانية، وكذلك في الحرب بالضد من الارهاب بعد ٢٠٠٣، وعلى الرغم من محاولات القادة والآمرين التقليل من تكراراته والسعي الى ضبط النار، ووضع تقييدات على صرف وتوزيع العتاد، واللجوء أحياناً الى تغريم المراتب ثمن المصروف منه جزافاً، لكن جميعها لم تنجح بالشكل المطلوب، واستمر الرمي العشوائي أو لغرض التخفيف من القلق علامة من العلامات التي علقت، والتي تعد من أكثر العلامات دلالة على تأثر مستويات الضبط سلباً، كما يحدث مثل هكذا رمي لأغراض الاستعراض الذاتي، اذ يلجأ البعض الى الرمي عند حضور الاعلام وآلات التصوير، أو عند قيام الأعلى بزيارة المواقع الأمامية، وهذه وان كان حصولها بنسب أقل، لكنها تؤشر هي كذلك تأثر مستويات الضبط سلباً.

ومهما كانت الظروف، وضعف الضبط هنا يؤدي الى تخلخل، أو تفكك الإحساس بوحدة الهدف والمصير المشترك، عندما يسعى البعض الى التصرف كما تمليه عليهم حاجاتهم واحاسيسهم الشخصية، أو كما تعبر عنه استجاباتهم الذاتية للضغوط المحيطة بعيداً عن الشعور بالمسؤولية لتحصل حالة الهلع، أو الرعب الجماعي والتي تبدأ عادة في شخص واحد، أو عدة اشخاص يلجؤون الى تبرير حالهم، أو مخاوفهم، أو عدم قدرتهم على الصمود والانضباط من خلال بعض الكلمات المعروفة مثل:

ان العدو أصبح قريباً.

العدو ظهر في الخلف.

العدو أحتل الموضع الدفاعي للوحدة.

...الخ من أقاويل وعبارات ليعطون سبباً نفسياً لا شعورياً الى ذواتهم والآخرين الى التسرب، أو الانسحاب دون أمر، وقد يؤيدهم لا شعورياً أيضاً، شخص ثالث، أو رابع لتنتقل العدوى في حالة أساسها بالإضافة الى الهلع أو القلق الشديد، ضعف الضبط دون النظر الى هدف الوحدة وغاية الدولة ومستقبلها.

علماً أن حوادث من هذا النوع تكون أكثر خطورة على الوحدات سواء في مواضعها الدفاعية او في غيرها، لأن تأثيراتها لا تتوقف عند الفصيل المعني، أو السرية والوحدة، خاصة في حال عدم التدخل السريع من قبل الآمرين، بل وقد تتجاوز آثار ذلك الهلع الى الوحدات والتشكيلات القريبة إذا ما استثمر الجانب المعادي حصولها في حربه النفسية، وزاد من ضغطه على دفاعات تلك الوحدة أو الوحدات القريبة[25].

٤. زيادة نسبة الخسائر

ان الضبط لا يعني الاستجابة لأمرٍ صادرٍ بشكل مباشر، أو تنفيذ توجيهات الأعلى وجهاً لوجه فقط، بل انه سلوك متعلم يتجسد في قدرة المقاتل على التوافق ومتطلبات العسكرية وتعليماتها وتقاليدها، أو توجيهاتها المكتوبة منها وغير المكتوبة، ومثل تلك التوجيهات أو التعليمات كثيراً ما يجري التأكيد عليها أثناء المعارك، أو خلال الحرب نظراً لتأثيراتها على المقاتلين من ناحية، أو على قدرة الدفاع، أو إمكانية الهجوم من ناحية أخرى، ولو أخذنا مثلاً على ذلك، التحديدات التي تفرض على حركة المقاتلين في الموضع الدفاعي للضرورات التعبوية أو تنقل العجلات بين الأماكن والمواضع نهاراً، أو فتحها للضياء في الأماكن القريبة من

---

[25] . الهلع حالة خوف شديد ومفاجئ، تدوم أعراضها دقائق، وربما ساعات، وقد تستمر الى أسابيع وأشهر، وان الاصابة بها وما ينجم عنها من أعراض عضوية سريعة، عادة ما تربك التشخيص الابتدائي، خاصة عند حصولها بشكل فردي، اذ يؤشرها البعض وفي ظروف خاصة، نوبات قلبية أو أحد الاصابات العضوية أو حالات عصبية ... الخ. لذا صنف الهلع من الاضطرابات الغامضة، التي تصيب نسبة كبيرة من البشر، ومن كافة الأعمار، فسرته غالبية النظريات النفسية، محاولة فاشلة للدفاع تجاه مثيرات القلق التي قد تتضخم تحت تأثير الضغوط النفسية في الموقف، فيصبح المثير الصغير أو البسيط للقلق حالة من الشعور بالترقب، والخوف مصحوباً بالكثير من الأعراض الجسمانية. علماً ان حدوث نوبات الهلع، عادة ما تحصل فجأة، وكأنها تحصل تلقائياً، فالجندي في خندقه، قد يؤدي به التفكير بالإصابة نتيجة لقصف العدو المفاجئ على موضعه، وخوفه الشديد من حدوثها الى التعرض لنوبة الهلع الأولى، وعندما يكون مستوى ضبطه قليلاً، وعندما لم يتم التدخل من قبل آمره المباشر أو زملائه القريبين، قد تؤدي المؤثرات الموجودة في الموقف، مثل اصابة أحد زملاءه بجرح شديد، أو استشهاد زميل آخر، الى حدوث نوبة هلع أخرى أشد من الأولى، وكل نوبة منها يمكن أن تصل الى ذروتها خلال عشرة دقائق مصحوبة بأعراض عضوية ونفسية، والنوبة قد تتكرر بفترة زمنية قصيرة، وعندما يشاهدها الآخرين، سرعان ما تنتقل بين الضعفاء وقليلي الضبط منهم، فتصبح عند عدم التدخل جماعية.

الطيب، محمد عبد الظاهر (1989)تيارات جديدة في العلاج النفسي، الاسكندرية، دار العرفة الجامعية.

العدو ليلاً يمثل تطبيقها أعلى أنواع الالتزام عندما تكون المراقبة المباشرة مسألة صعبة، أو مستحيلة في بعض الحالات، وهو يمثل أيضاً قدرة المقاتلين على السيطرة على انفعالاتهم أو توتراتهم، عندما تتطلب الحاجة الى الحركة كتنفيس لتلك الانفعالات الذي يزيد ضعف الضبط من مستواها، وهنا وفي مثل هكذا حالات قد يتسبب التحرك غير المنضبط في خسارة المقاتل لنفسه والقريبين منه نتيجة القصف المدفعي القائم، وأعمال القنص المعادي، أوقد يكون عاملاً في كشف الموضع أو المكان الى العدو في الوقت الذي يتطلب فيه الموقف أن يبقى مستوراً، وكذلك الحال بالنسبة الى حركة العجلات، وكثرة تنقلها في الموضع الدفاعي، أوفي نقاط التجمع، وأماكن انفتاح الوحدات المتهيئة للهجوم.

ان هذه الحالة وعلى الرغم من انها تعبر عن مستوى الارتباك، وضعف السيطرة ورداءة التخطيط، الا انها تعكس خللاً في الضبط العسكري للمعنيين أيضاً، عندما لا يستطيع سائق العجلة من السيطرة على مشاعره ويندفع نحو المكان المخصص بسرعة عالية وما تسببه تلك السرعة من إثارة لغبار يمثل إشارة للعدو بالقيام بعمل ما، وتأثيراته المحتملة على العجلات والافراد المعقبين في الاصطدام والدهس، واحتمالات السقوط في حفر الانفلاقات لقنابل المدفعية والمواضع المتروكة.

أو عندما يلجأ تحت تأثير نفس الضغوط الى فتح ضياء عجلته ليلاً، ليكون وزملائه هدفاً سهلاً لمدفعية العدو وهاوناته وقناصيه، ودليلاً واضحاً لما ستقوم به الوحدة، أو التشكيل من أعمال في تلك الفترة الحرجة، وهذه أعمال ومثيلاتها غير المنضبطة تزيد من نسبة الخسائر في الوحدة.

تلقائية التأثير على الضبط في الحرب

يقصد بالتلقائية هنا حصول الهبوط لمستويات الضبط نتيجة عوامل ومتغيرات تفرض واقعاً يسهم في ذلك الهبوط بشكل شبه محتوم، حتى بات معروفاً أن الوحدات العسكرية ومهما كانت رصانتها واستعدادها القتالي تدخل الحرب بمستويات ضبط عادة ما تكون عالية لتخرج منها بمستويات أخرى تقل عن الأولى بكثير أو حتى تصنف مستويات هابطة، كذلك تسهم الحرب ولتدخل المتغيرات ذاتها في تبدل كثير من الضوابط والسياقات العسكرية التي كانت جارية في أوقات السلم، وقد يتطلب العودة اليها زمناً ليس قصيراً وربما البعض منها قد لا يعود الى سابق العهد بأي حال من الأحوال[26]، ومن بين هذه المتغيرات التي تنتج أو تتسبب في حصول ضعفاً تلقائيا بمستويات الضبط هي الآتي:

١. الفاقد النوعي.

ان الهدف الاساس لأي جيش من الجيوش هو اعداد منتسبيه وتهيئتهم لحين الاشتراك في الحرب، والاستمرار بهذه الاجراءات والممارسات بشكل دوري ومنسق، وأن يكون المقاتل في الذروة من حيث الامكانات والاداء والضبط عند دخوله المعركة الاولى، استنادا الى الخبرات التي اكتسبها في ظل برامج التأهيل الكاملة، وعلى نفس الاعتبارات أن يكون ضبط الوحدة وقدرتها القتالية بمستوى عالٍ أيضاً.

الا ان الوحدات والتشكيلات لا يمكن ان تحتفظ بموجودها كما هو من حيث النوع والكم طيلة فترة الحرب، فهناك الاستشهاد والأسر والعوق والنقل والترقية، وهي أمور طبيعية تتسبب في التقليل من الموجود الكلي تدريجياً، فاذا كانت خسائر المعركة الاولى مثلا 1% والمعركة التي تلي بنفس القدر أو أكثر قليلاً، فهذا يعني ان الوحدة التي دخلت الحرب وعدد منتسبيها بحدود "٦٠٠" منتسب سيقل ذلك الرقم تدريجياً حسب نسبة الخسائر، مما يتطلب سد النقص من خلال التعويض المستمر، أي التحاق مراتب من المتطوعين الجدد أو المجندين الاحداث أو الاحتياط لم تسنح الظروف لهم من أن يأخذوا فرصتهم كاملة في مجال الاعداد والتأهيل مقارنة بمن سبقهم، علماً أن تكرار عملية الفاقد النوعي أي خسارة أعداد من المقاتلين الاوائل وتعويضهم بآخرين جدد يعني:

آ. انخفاض تدريجي في النسبة العامة للضبط داخل الوحدة.

ب. الحاجة الى تكثيف الجهود بهدف المحافظة على مستوى مقبول من الضبط في ظروف يكون تنفيذ الأوامر فيها مسألة مصيرية.

٢. الظرف القائم.

ان الحرب بطبيعتها توتر وشد وكثر تنقل، أي عدم استقرار للوحدات والتشكيلات والفرق، فطبيعة المعارك وخطط المناورة تستدعي الانتقال من مكان الى آخر وفي فترات زمنية قليلة جداً، يقتضيها التطور الحاصل في المعركة أحياناً، وتستدعي أحياناً تغير في طبيعة الظروف

---

[26] .كان ومنذ تأسيس الجيش العراقي عام ١٩٢١ السياق الجاري لمنح اجازات الضباط خارج البلاد وكذلك الدورات الخارجية والدراسات الأولية والعليا خارج البلاد أيضاً من صلاحية رئيس أركان الجيش، ويمكن الحصول عليها بقليل من الأيام، وقد انتقلت هذه الصلاحية مع بداية الحرب عام ١٩٨٠ الى الوزير ومن ثم الى القائد العام للقوات المسلحة واستمر الحال على هذا المنوال حتى حل الجيش عام ٢٠٠٣ حيث لم يعاد الأمر الى سابق عهده أي صلاحية رئيس أركان الجيش، وبعد اعادة تأسيس الجيش من جديد بعد التغيير عام ٢٠٠٣ احتفظ مكتب القائد العام على هذه الصلاحية وحتى بعد الغاء هذا المكتب لم تعاد الأمور الى سابق عهدها وقد لا تعاد بالمطلق.

والمهام بين الهجوم والدفاع، أو الاستعداد والتهيؤ وبما يؤثر مباشرة على خطط تلك الوحدات ومناهجها لتدريب منتسبيها وإعادة تأهيلهم فنياً وبدنياً ونفسياً، أو لممارستهم على تنفيذ بعض الخطط، فاذا كانت احداها قد بدأت تواً لإعادة التنظيم ورفع القدرة القتالية ثم اقتضى الموقف تكليفها مع باقي وحدات الفرقة بواجب الهجوم، يعني توقف كافة الجهود في هذا المجال حتى انتهاء الواجب الذي قد يستمر لفترة ليست قصيرة، أو قد يتطلب الموقف تكليفها بمهام أخرى مكملة مثل الدفاع عن المواضع التي تم احتلالها، أو البقاء في الاماكن التي جرى الانسحاب اليها أو الانفتاح لمهام الاحتياط، وهكذا الحال حتى سنوح الفرصة بعد فترة من الزمن للبدء بمناهج أخرى في مجال التدريب والتأهيل والضبط.

ان كثرة الحركة والتنقل من قاطع الى آخر وطبيعة المواقف لا تساعد على التقيد بخطط ثابتة، اي كافية لإعادة التأهيل وتعزيز الضبط، وتكرار الحالة يؤدي حتماً الى إضعاف مستوياته. وفي الحرب قد لا تتوقف الحال عند هذا المستوى، فان تعقّد الموقف وجسامة الخسائر وضغط العدو في بعض الاحيان يستدعي ان تكون عملية التعويض بالأفراد والمعدات في ساحة المعركة سريعة، بغية المشاركة في الجهود المبذولة لإيقاف زخم هجوم العدو دون ان يكون هناك وقت للتوافق والانسجام، أو حتى التعرف على الامكانات والكفاءات الفنية والنفسية للاستفادة منها، أوفي التعامل معها[27].

ولنفس الاسباب يلاحظ ان الضرورة تحتم التحاق بعض الضباط والآمرين الى وحداتهم وقيادتها خلال المعركة، أو قبلها قليلاً حتى يجدون أنفسهم في اجواء الوصايا والتعليمات قبل ان يتعرفوا على قدرات أو إمكانات من يصدرون إليهم تلك الاوامر.

ان خبرة الحروب بالنسبة الى الجيش العراقي بينها الحرب العراقية الايرانية والحرب ضد الارهاب وحربي الخليج الثانية والثالثة تشير الى ان تجاوز قسم من السياقات، أو قبول نسبة عالية من المجازفة مسألة طبيعية في الحرب، إذا ما وضعت في الكفة الاخرى من ميزان الاهداف والنتائج، فإسناد واجب الى احد تشكيلات الفرقة، ثم العودة لتغيير طبيعته قبل البدء بالتنفيذ حالة يمكن ان تتكرر مع تغير الموقف، وقد يلجأ اليها القائد رغم الخسارة النفسية والاجهاد البدني الذي يصيب المقاتلين، في حالة قلة الخيارات المتاحة، أو عندما يضع في حسابه ان تلك الجهود ستساهم في إيقاف تقدم العدو باتجاه احتلال أحد الاهداف المهمة، أو لجوئه الى اشراك احد الافواج أو الكتائب بالمعركة حال وصولها الى القاطع بعد فترة تنقل استمرت اكثر من 24 ساعة وقبل قيام ضباطها، أو تكليفها بمهام الاستطلاع، وقد يضطر قائد آخر الى دفع أحد الويته الى ساحة المعركة ثانية بعد خروجه منها وتكبده خسائر تجاوزت النصف[28].

---

[27] . ليس الجيش العراقي وحده، بل وهناك عديد من الجيوش شهدت مواقف في الحرب تطلبت منها زج منتسبين جندوا حديثاً، لم يتسن لهم اتمام التدريب أو حتى الرمي في ميدان الرمي، وأحياناً اقتضت الضرورة الحاقهم الى وحداتهم قبل تسليمهم التجهيزات العسكرية، إذ أن في الحرب تفرض الضرورة الحتمية ضلالها على الكثير من السياقات والضوابط الدارجة.

[28] . خرج اللواء التسعين من معركة خاسرة عند نهر جاسم على خط الحدود الدولية مع إيران عام 1986 ولم يتبّق من قوته العمومية ما يزيد عن سرية مشاة، وقبل الشروع بالتمتع بالراحة اللازمة واعادة التنظيم وسد النقص الحاصل بالأسلحة والعتاد والاشخاص، طلبت منه القيادة العامة للقوات المسلحة الهجوم على الموضع الدفاعي الساقط للواء التاسع والعشرين مباشرة، دون ان تلتفت الى قناعات آمره المباشر وقائد فرقته الخامسة، اللذان يؤكدان عدم أهلية اللواء لاستعادة الموضع الدفاعي الذي يحتاج الى قوة بمستوى فرقة مشاة، ومع هذا أصرت على معاودة الهجوم، مصحوب بتهديد الاتهام

ان المشكلة هنا ليست في طبيعة التجاوز على السياقات العسكرية، أو الاجراءات التعبوية التي قد تفرضها الظروف السائدة أو النظرة الموضوعية للمصلحة العامة أو حتى المصالح الشخصية للقادة في الوقت الحرج، بل تتعلق بمستوى إدراك المقاتلين للتجاوز والخطأ، وطريقة تحسسهم لها، وما تثيره من أسئلة واستفسارات ذات أسبقية عالية للإجابة والايضاح، حتى يتجنب الآمر، أو القائد احتمالات انعكاسها سلباً على الضبط العسكري.

٣. ارهاصات الحرب.

ان الحرب من جانب الدولة والمجتمع توضع ضمن مفهوم الدفاع عن الامة والمحافظة على السيادة والاستقلال، وهي وان كانت هكذا من الناحية الوطنية القيمية، الا إن المنتسبين خلالها يواجهون العديد من الضغوط النفسية والبدنية ارهاصات تتطلب قدراً كبيراً من الاستعداد البدني والطاقة النفسية للتعامل معها. فطبيعة المعارك وتسارع أحداثها في الحروب الحديثة تتطلب بقاء المقاتل في حالة الوعي لأيام عدة في احيان كثيرة، وهذا الشد والتوتر والتركيز والانتباه استنزاف للقدرة سرعان ما ينعكس على الاداء، إذ تتميز الساعات الاولى من بدء المعركة بالنشاط، وكثرة الحركة وسرعة رد الفعل والانضباط العالي، أما اليوم الثاني فسيشهد ضعفاً في التركيز واخطاءً في مجال التسديد والتصويب وظهور بوادر التعب، وقد تتغير الحال بعد " 48" ساعة حيث الشعور بالإرهاق، أو الاعياء ومحدودية القدرة على الاستجابة وبطء التفاعل مع المثيرات، أو المنبهات المحيطة.

هذا وإذا ما استمر المقاتلون بعد ذلك دون أخذ أي قسط من النوم والراحة يمكن ان تكون ردود افعال البعض منهم مصحوبة بأنواع من الهلاوس السمعية والبصرية، أو حتى أفعال هستيرية، ثم تتطور الحال تدريجياً حتى تصل الى مستوى عدم القدرة على تنفيذ الاوامر بسبب الانهاك القتالي.

ان المواقف الضاغطة في الحرب وارهاصاتها ليست قليلة في معارك العصر الحالي بينها على سبيل المثال:

آ. عندما يكون الجو رديئا على سبيل المثال، والوحدة تخوض معركة قاسية، وخسائرها جسيمة، ومعالم الفشل في معركتها بادية على وجوه الجميع هنا يمكن القول بان امكانية أو طاقة الانسان على التحمل قد استنزفت، وان كل شيء يتوقف على الضبط، لان الشجاعة والتحمل والاخلاص وحدها لا تكفي للخروج من هذه الازمة، وان الخطر هنا يتمثل في احتمالات تكرار نفس المتغيرات في مواقف لاحقة، الأمر الذي يؤدي الى إضعاف مستويات الضبط تدريجياً.

ب. الضوضاء والصخب واسلوب التعامل وقلة الطعام واختلاف أنواعه تشكل هي أيضا ارهاصات وضغوط نفسية وبدنيةً تثير التوتر بين صفوف المقاتلين، إذ ان كثرة الحركة والشعور بالقلق مثلاً تزيد من حاجة الجسم الى الطعام والشراب، وعندما لا يُقدم بالوقت المحدد، أو بالقدر الكافي لا يؤدي الى كثرة تشكي المقاتلين وتبادل الاتهامات فقط، بل يتسبب في بطء الحركة والتراخي، ثم فتور الهمة وضعف الاستجابة.

بالتخاذل وتلقي عقوبة الاعدام ميدانياً. وبالنتيجة لم يستعاد الموضع الدفاعي الساقط للواء الا بهجوم منظم لقوات من الحرس الجمهوري تزيد عن فرقتين متجحفلتين.

سعد العبيدي (٢٠١٥)، وأد البطل، نهاية جيش وملحمة وطن، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.

أما في مجال التعامل، فان الأمور تكون أكثر حساسية من الناحية النفسية، ففي جو المعركة الصاخب مع كثرة الخسائر وشدة الاجهاد لا يكون السلوك محكوماً بما يمتلكه المقاتل من معارف فنية واساليب تعبوية وشجاعة في تحدي العدو فحسب، بل وبما يحسه من مشاعر التقدير والاحترام والعدل في التعامل، وبمدى تطبيق المثل والقيم والاعراف المتعلمة وطنياً وعسكرياً، لذا فان سحب أحد منتسبي الفصيل الى المقر الخلفي اثناء الاصطدام بالعدو، أو استدعاء احدهم الى المقر الاعلى مع بداية هجوم على الموضع الدفاعي، أو ارسال آخر في مأمورية مع الشروع بالتحرك للاشتراك بهجوم مرتقب تشكل جميعها تحدياً لتلك المشاعر وأرضية خصبة لإثارة التساؤلات، ومن ثم اضعاف تدريجي لسلطات الضبط.

ان ارهاصات الحرب لا تتأتى فقط من خارج الانسان، أي من الوحدة والآمرين والطقس وكثرة الخسائر والابتعاد عن الاهل وفقدان الاصدقاء، وغيرها من المؤثرات البيئية التي يعيشها المقاتل يومياً، بل ومن استعداده النفسي للتفاعل معها أيضا، وفي هذا الصدد نرى ان الحرب بطبيعتها عامل ضاغط على مشاعر المقاتلين وأحاسيسهم وثقتهم المفرطة بالنفس التي تنعكس مباشرة على مستوى الضبط، خاصة عندما يعتقد مثل هؤلاء بان تنفيذهم للأوامر الصعبة، وخوضهم للمعارك الحاسمة، وتحملهم للضغوط القاسية، يفوق بأهميته كثيراً مسألة الاستجابة لأمر أصدره ضابط صف لتقليل شدة الصوت في أثناء الاستراحة، أو اداء التحية لضابط في أثناء الانتقال من مكان الى آخر، أو وضع غطاء الرأس في مكانه عند التنقل تمتعاً بالإجازة، أو الاعتناء بالقيافة بعد استلام عدم التعرض للنزول الى المدينة، علما ان تكرار هذه الاستجابات يؤدي الى اعتياد المقاتلون التعامل معها بنفس الصيغة في المواقف المشابهة لاحقاً وبما يضعف الضبط. وفي الجانب الآخر يتسبب هذا التكرار في أن يجد الضباط أو المعنيون أنفسهم غير قادرين على معالجتها، أو محاسبة المقصرين خارج إطار الوحدات، أو المواضع والمعسكرات سواء لكثرة حدوثها، أو تفاديا لردود فعل غير منضبطة، أو لأسباب انسانية حيث يرى البعض ان مثل هؤلاء قد اتعبتهم الحرب وشدة المعارك، وهم بذلك معذورون عن سلوكهم غير المنضبط، ووفق هذا المنطق يساهم المقاتل وسلطة الضبط سوياً في إضعاف مستوى الضبط تدريجياً كنتيجة حتمية لكثر وشدة الضغوط الخارجية والذاتية.

٤. إدارة الأفراد.

في ظروف الحرب وعندما يقف الرِجال أمام عتبة التضحية بالروح في سبيل الوطن ومبادئه السامية يصبح من الضرورة إثابة سلوكهم هذا، حتى يكون جزءاً من ذواتهم ودافعاً للمزيد من العطاء، كما ان ملابسات الحرب ومتغيراتها تفرز بنفس الوقت أناساً لم يستطيعوا ان يسايروا حقائق المواقف السائدة، ويتخلفوا كثيراً عن الركب عندما يغلب على سلوكهم الفتور والتقصير وضعف الاستجابة، وهنا تحتم الضرورة أيضا توجيه العقوبة الملائمة لذلك السلوك بهدف اطفائه، أو تعديله وبما يتلاءم وحاجة الحرب الى الرجال الابطال لكسب جولاتها العنيفة والمصيرية.

وما يهم هنا هو الجانب الاول من هذا المبدأ "الثواب" حيث يلجأ القادة والآمرون كل ضمن الصلاحيات المخولة له قانوناً الى الأمر بترقية مقاتلين من مستوى الى آخر، أو منح آخرين قدماً لفترة محددة، وعند المناقشة الشاملة لكافة جوانبه نرى انه يمثل دعماً للشجاعة وتحفيزاً للدافعية ورفعاً للمعنويات، وترغيباً لتقليد السلوك الجيد، وهو يعني أيضاً ان الفسحة الزمنية

المتاحة أمام هذه الشريحة، أو المجموعة لاكتساب الخبرة اللازمة لتلك الرتبة، أو ذلك المستوى قد انضغطت، أوقلت نسبتها مقارنة بالأقران، أو المثيلين، ومع وجود الفروق الفردية في القدرة على الاستيعاب وسرعة التعلم، فان الجندي بعد ترقيته الى نائب عريف خلال عدة أشهر وقيادته للحضيرة يكون بحاجة الى معلومات فنية وخبرات ادارية مضافة الى عامل الشجاعة الذي كان أساساً في ترقيته، لتعينه في السيطرة على الحضيرة وقيادتها في المواقف الصعبة، وما ينطبق على ضباط الصف هنا يمكن ان يشمل بعض حالات الضباط خاصة في الرتب الصغيرة، حيث يتطلب الموقف من هؤلاء المتميزين الاستجابة سريعاً لتوجيهات القيادة بصدد الدخول الى الدورات الاختصاصية والتزود بالثقافة العسكرية والعامة ذاتياً لغرض تجاوز تحديدات الزمن المضغوط، وتجنب أية أخطاء، نتيجة قلة الخبرة في ادارة المقاتلين وقيادتهم خاصة وان كثرة الاخطاء وتكرارها يبعد المقاتلون عن آمريهم ويضعف حالة الانضباط العام في تلك الوحدة أو الوحدة الفرعية.

الباب الثاني
البيئة العسكرية والضبط

الفصل السادس: الضبط في البيئة العسكرية
الفصل السـابع: الضبط وخصوصيات البيئة العسكرية
الفصل الثامن: الضبط وضغوط البيئة العسكرية
الفصل التاسع: الضبط في حالات الاجهاد القتالي
الفصل العاشر: الحزبية وعمليات الهدم المنظم للضبط العسكري

الفصل السادس
الضبط في البيئة العسكرية

البيئة العسكرية

ان البيئة العسكرية أو ما تسمى تقليدياً بالحياة العسكرية، تختلف عن باقي أنواع البيئات في المجالات التي تشكل حياة الانسان على كرتنا الأرضية، وسبل استمرار عيشه على سطحها، وتأديته المهام للبقاء فى ربوعها، إذ أن لهذه البيئة "العسكرية "خصوصياتها كبيئة عيش خطيرة، ذات ضغوط شديدة، وأساليب خاصة لتهيئة المنتسبين الى التحمل والتقبل والتطبع، وكذلك طرق هي الأخرى خاصة في مجال إدارة شؤون أفرادها بالسبل التي تجعلهم جماعة:

١. منضبطة أداءً وسلوكاً.

أي أن المنتسبين اليها والعاملين في مجالها يلتزمون بتأدية المهام التي يكلفون بها سلماً أو حرباً كما يطلب منهم على وفق المعاير التي وضعتها المؤسسة إليهم، وسلوكهم في أثناء تواجدهم في ثكناتها أو خارجها يتماشى وتلك المعايير الموضوعة.

٢. متفاعلة مع الأوامر والتعليمات والتوجيهات الصادرة.

ان العسكريين وان كانوا يُدرَّبون على تنفيذ الأوامر لأن يكون طوعياً بحدود كبيرة، أي دون الحاجة الى الخوض تفكيراً في تفاصيله، الا أن تقبل الأوامر بشكل عام يعجل من سرعة التنفيذ ويحسن الأداء[29].

٣. منفذة بشكوى أقل.

اذ أن الاقتناع بالأمر المستلم من الجهة الأعلى سواء في أثناء المعركة أو خارج ساحتها، يقلل الشكوى من اصداره أمراً والتذمر من جهة الاصدار، اذ أن وجودهما "الشكوى والتذمر" يشتت التفكير ويبدد جزءاً من الطاقة النفسية، الأمر الذي ينعكس سلباً على الأداء.

عوامل التفكير

عند تناول موضوع الضبط، والسبل التي تدير بها المؤسسات العسكرية شؤونها، تجدر في مجاله الاشارة الى افتراض، وضمن سياقات التدريب لأغراض اكتسابه، أن يصل مستوى التنفيذ الحاصل للأوامر العسكرية الصادرة حدود عدم الانشغال فكرياً "نسبياً" في معطيات الموضوع، أو بمعنى أدق فان الضبط العسكري الفاعل على وجه الخصوص يقترب في مجاله التنفيذ الجاري للأوامر من أن يكون العسكري المنضبط خلال عملية تلقيه الأوامر أن لا يفكر ببعض الجوانب ذات الصلة التي يمكن أن تأخذ جزءاً من طاقته ووقته المتاح، وعادة ما يكون التفكير بواحدة أو أكثر من الجوانب الآتية:

١. الجهة التي تصدر الأمر.

أي من أين جاء هذا الأمر؟ إذ ان التفكير بماهية الجهة التي أصدرت الأوامر وما يتعلق ببعض جوانبها على سبيل المثال، يتسبب بهدر الوقت المفروض أو المتاح الى التنفيذ، علماً إن مثل هذا الوقت الذي قد يستغرقه العسكري في التفكير لما يتعلق بالجهة التي أصدرت له الأمر ومهما كانت فسحته، فإنه وقت مستقطع قد يحتاج المقاتل الى بعضه لأغراض التفكير بالكيفية التي ينفذ بها المهمة، والسبيل الذي يتفادى به نيران العدو، اذا ما كان هناك هجوم أو قصف معادي بالإضافة الى أن التفكير وبأي جانب من جوانب الحالة أو الموقف يحتاج

[29] . زهران، حامد (١٩٧٧)، علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب، القاهرة.

بطبيعته الى طاقة يفضل الاحتفاظ بها والاحتياطي منها للتعامل مع المواقف القتالية الصعبة وذات الضغوط الشديدة.

٢. الغاية من اصدار الأمر.

ان كثر التفكير بالغاية وراء إصدار الأمر الصادر ودوافعه، وإذا ما جاءت تلك الاوامر في ظروف صعبة وضغوط قتال شديدة يمكن أن يسهم التفكير السلبي فيها والاسهاب في التفكير بتكوين شكوك يمكن أن تُضعف الهمة والدافعية في القتال، وقد يؤدي الايغال بالتفكير بالنسبة للبعض الذي يعاني مشكلات أو وهن نفسي الى الاصابة باضطرابات التسلط القهري[30].

علماً ان الناس وبينهم المقاتلين في حالتهم الطبيعية يكونون قادرين على التحكم بالأفكار التي ينتجها العقل، أي لديهم القدرة على التفكير بما يريدون التفكير به، وعدم التفكير بما لا يريدون، وبمعنى آخر امتلاكهم قدرة لطرد الأفكار التي تكون مزعجة وفي الوقت الذي يريدون.

هذا وان الكلام عن الأفكار ينطبق على الصور العقلية أي التخيلات، وهي عند الانسان في حالته الطبيعية إمكانية إبقاؤها إذا ما كانت متوافقة مع ارادته كصورة صديق أو حبيب أو منظر جميل، ويستطيع في الوقت نفسه إبعادها عن مخيلته إذا لم تكن تعجبه، أما في حالات التعب الشديد والعيش تحت الضغوط النفسية الشديدة بالنسبة للإنسان العادي، وحتى المقاتل مثل البقاء في حالة اليقظة لثلاث أيام متواصلة بسبب الاستمرار في القتال أو عند حصول انفجار في الجوار وتقطع أوصال زميل له في الحضيرة، فان البعض من المقاتلين يمكن أن يشعرون بوجود أفكار تقتحم مخيلتهم مثل:

أنا سأموت. سأصاب بجرح. سأفقد الوعي ....الخ من أفكار لا يكونون قادرين على ابعادها أو صور عقلية مثل صورة الصديق المُقطعة أوصاله، غير قادرين أيضاً على ابعادها، وهنا تسمى الحالة بالأفكار القسرية، والشديد منها يصنف اضطراب نفسي حيث تكون ديمومة الأفكار وتكرارها أكثر والقدرة على طردها تكاد تكون غير موجودة[31].

٣. التبعات المحتملة.

كذلك فان التفكير بما يمكن أن يحصل جراء تنفيذ الأوامر، وبما ستؤول اليه الأمور بعد التنفيذ أي التبعات، وإذا ما كانت سلبية فإنها ستثير قدراً من القلق الموقفي "الآني" الذي يسهم مع عوامل أخرى في تكوين توجهات من التردد أثناء تنفيذ المهمة، عليه تُدَرِبْ الجيوش منتسبيها في فترات التدريب الأساسي والاجمالي على سبيل المثال لأن يستتر الجندي في المعركة عند إدراكه ناراً قد فتحت باتجاهه نتيجة الأوامر المماثلة التي تعلَّم تنفيذها أثناء التدريب، ويتقدم ويهرول ويرمي ويصمت بمجرد حصوله على الأمر من المستوى الأعلى رتبياً.

---

[30] . أحمد عكاشة (١٩٨٠) الطب النفسي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

30. التسلط أو الوسواس القهري، اضطراب يعبر عن ايمان الشخص المعني بفكرة معينه تلازمه وتحتل جزءاً من وعيه وشعوره، على الرغم من عدم اقتناعه بواقعيتها أو حتى اعترافه بغرابتها أحياناً وتكون الفكرة هذه قهرية أي متسلطة، لا يستطيع ازالتها أو التخلص منها، وقد تنتج في بعض الأحيان سلوكاً جبرياً، مثل تكرار وترديد عبارة سنموت أو(إجونة) التي تظهر أثناء الهجمات الشديدة في الحرب، وتلك التي تحصل فيها خسائر عالية على وجه الخصوص، وهي عبارة تبدو وكأنها تلاحق الشخص المعني، وتأخذ جل تفكيره وتقطع عليه التفكير بغيرها وبما يتعبه، وفي الحالات الشديدة قد تدفعه الى ايذاء نفسه جسدياً، علماً أن تسلط الأفكار والخفيف منها على وجه التحديد يمكن أن يحدث لكل انسان في موقف أو فترة من فترات حياته، مثل العودة للتأكد من غلق الباب أو إطفاء النار، لكن الوسواس القهري الشديد قد يعيق الانسان عن ممارسة حياته في العمل أو حتى في العلاقات العامة مثل بعض وساوس النظافة بمستوياتها الشديدة.

التنفيذ الطوعي للأوامر

ان التنفيذ الطوعي للأوامر أو ما يمكن تسميته من قبل بعض العسكريين المحترفين بالتنفيذ شبه الآلي أو التلقائي للأوامر، لابد من التنويه الى أن مصطلح اللاإرادي الذي يستخدم بشكل محدود في البيئة العسكرية هو مصطلح تم استعارته من علوم الأحياء، ويقصد به ذلك الفعل الذي يحدث دون اختيار واعٍ من صاحبه، ويحدث بشكل عام كاستجابة لمثير حاصل. وفي علم النفس يسمى الفعل المنعكس، وهو سلوك استجابي يحدث بوعي أو بدون وعي من الانسان الذي يؤديه، مثل فعل التنفس، على هذا وفي مجال الضبط يكون المصطلح الأكثر توافقاً مع هذا المفهوم هو الطوعي. وفي إطاره يطمح القائمون على التدريب من جعل فعل تنفيذ المنتسب للأمر الصادر اليه وكأن تنفيذه تلقائياً.

ان التنفيذ الطوعي للأوامر مهم في البيئة العسكرية حرباً، وكذلك في أثناء السلم، وتأتي الفائدة من خلال جملة استجابات ايجابية تعد ذات أهمية بالغة لإتمام المهام العسكرية بالشكل المطلوب أو بالمعنى الأدق أن الطوعية في مسألة الضبط تؤمن الاتي:

١. سرعة التنفيذ.

ان السرعة في انجاز المهام المطلوبة بالأمر الصادر، حقيقة تتطلبها المعركة في غالب الأحيان، اذ وكلما حسم أمر المهمة القتالية على سبيل المثال بسرعة أكبر كلما:

آ. قلت الخسائر بوقع أكثر.

ب. تحققت الغاية بوقع أحسن.

ج. تأمنت المفاجأة باحتمال أكبر.

د. توفرت قوة دفع معنوي أعلى.

هـ. صرفت طاقة أقل.

وفي بعض الأحيان وعندما تحصل مواجهة قتالية بين طرفين أو خصمين يمتلكان أسلحة متقاربة في المدى، وحجم التأثير كما في القتال الجوي والبحري وأنواع القتال الأخرى ستكون الغلبة في جولة القتال الحاصل لمن يبدأ أولا، أي أسرع، وفي هذا المجال اذا ما افترضنا على سبيل المثال أن كتيبتين مدفعية ميدان متقابلتين في موقف قتال مطلوب فيه من كل منهما حسب الأوامر الصادرة لها اسكات النار الآتية عن الكتيبة المعادية المقابلة لها، وكان عيار مدافعهما هي ذاتها ومدياتها متقاربة، فسيكون السبق في تنفيذ الأوامر الصادرة والالتزام ضبطاً بتوقيتات خطط النيران المعدة مسبقاً هو الحاسم في تدمير العدو المقابل وإسكات نيرانه.

وكذلك الحال بالنسبة الى أسلحة الدمار الشامل والتي ستكون الغلبة في مجالها عند التقابل في الحرب، وبشكل أعم لمن يبدأ الضربة أولاً، أي الأسرع في تنفيذ الأوامر الصادرة وفي تطبيق السياقات.

في مجال سرعة التنفيذ في القتال ولأهميته في حسم النتائج بات علماء التصنيع العسكريون والفنيون يسعون من جانبهم لدعم وتعزيز مبدأ السرعة، إذ وفي سياقات القتال الجوي نرى وعندما اقتربت الطائرات المقاتلة وتسليحها الصاروخي مع بعضها بالسرعة والمناورة لجأ العلماء والفنيون في الطيران وأسلحته الى تطوير تكنولوجيا محددة للخوذة (Helmet) الخاصة بالطيار، تفضي الى قيام الحاسوب في الطائرة بتوجيه الأسلحة نحو الهدف مع التفاتة

الطيار بخوذته، وهي تقنية انتجت تحت مصطلح (JHMCS) إذ تختزل هذه الخوذة الوقت في الوصول الى نقطة الاطلاق وكذلك الدقة العالية في متابعة الهدف على وفق مبدأ الرمي من النظرة الأولى أو ما يسمى أول نظرة تساوي أول رمية، وهي تقنية توفر للطيار امكانية التسديد على الطائرة المعادية واطلاق الصاروخ عليها مباشرة حتى أثناء تأديته مناورة عالية وسريعة، كما انها تعرض أمام عيون الطيار بشكل واضح جميع المعلومات من رادار وحاسوب الطائرة دون الحاجة الى تبديد الوقت في النظر الى الشاشة الخاصة بهذه المعلومات في قمرة القيادة.

ومع هذا وفي إطار سرعة التنفيذ التي يحاول المختصون اختزالها الى الأسرع والأدق كما ورد في الأمثلة السابقة ولجميع الأسلحة، وعلى الرغم من أهمية الضبط في انتاج السرعة المطلوبة، فلا يمكن إهمال الجانب الانساني المعنوي في التأثير على السرعة وتداخل الضبط أو تفاعله مع الجانب المعنوي لإنتاج السرعة في تنفيذ الأمر، فكتيبة المدفعية ولكي تبدأ ضربتها الأولى أسرع من الكتيبة المعادية، المقابلة لها تحتاج سلسلة من الاجراءات العملية والأوامر المتسلسلة، واذا ما كان أحد المفاصل في هذه السلسلة مكتئباً ومعنوياته هابطة فسيكون أبطأ في نقل الأمر أو تنفيذه من الشخص الآخر الذي يتمتع بمعنويات عالية، ومجهز المدفع المعني بوضع القنبلة في السبطانة (عملية التلقيم) إذا ما كان منزعجاً يعاني من أفكار تسلطية سيكون أبطأ من غيره على وفق القياسات الفنية للوقت المحدد أصلاً في نشرات التدريب، وهكذا الحال بالنسبة الى الطيار المشغول بهموم صدمة عاطفية أو فقدان عزيز سيلتفت من حوله أبطأ من المعتاد، وهكذا لباقي الأعمال أو جميعها التي تكون فيها السرعة مطلوبة ويكون للإنسان دوراً في تنفيذها.

٢. وحدة التنفيذ.

التنفيذ الطوعي للأوامر يؤمن وحدة تنفيذ لها في محيط الجماعة (الوحدة العسكرية)، إذا ما تم الأخذ في عين الاعتبار أن الأداء العسكري هو في الغالب أداءً جماعياً، فعندما يعتاد منتسبي الجماعة/الوحدة أو الحضيرة/الفصيل/السرية فأعلى، الاستجابة للأمر الصادر بنفس الطريقة وبالدافعية ذاتها ستكون المخرجات فعل جماعي موحد، يفضي الى سهولة تحقيق غاية الفعل العسكري المطلوب تنفيذه، فتلقي اللواء أمراً بتنفيذ خطة الهجوم على موضع دفاعي لفوج معادي مثلاً تعني أن:

آ. ينفذ آمر اللواء وهيئة ركنه ما يعنيهم من الأمر بوضع الخطط وأوامر الحركة وغيرها من مستلزمات التنفيذ.

ب. ينفذ كل فوج من أفواجه ما يخصهم في خطة الهجوم تبعاً للخطة وفقاً لخطوات تتابعية.

ج. تنفذ سرايا الفوج والفصائل في السرايا وامتداداتها الحضائر والمفارز كل من جانبه ضمن التوقيتات المرسومة والمهام والأسلحة المحددة.

د. تكون المحصلة وحدة فعل هجومي يؤدي الغاية المتوخاة أو الأمر الصادر، ألا وهو الهجوم على الموضع الدفاعي المعادي، وكذلك الحال بالنسبة الى الأوامر الصادرة لتنفيذ مهمة الدفاع عن موضع دفاعي اتجاه هجوم معادي.

وهنا وكما في مثال السرعة فأن التدريب والضبط اللذان ينتجانها، وينتجان وحدة التنفيذ المطلوبة "روح الجماعة" عملية تتأثر هي الأخرى بالعوامل النفسية بشكل كبير، قد لا تقل مستويات نتائج تفاعلها عوامل مع روح الجماعة عن المثال السابق، فالحضيرة التي تنتكس

فيها المعنويات عادة ما تكون خارج الكتلة المحسوبة لفعل التأثير الجماعي، وكذلك الحال بالنسبة للفصيل والسرية صعوداً الى اللواء والفرقة، ولهذا السبب النفسي المعنوي أثر في خروج وحدات من القتال أثناء التنفيذ، وقد يتسبب في حدوث ثغرات في معارك الدفاع ينفذ منها العدو لإسقاط الموضع الدفاعي، وقد تتخلف وحدة عسكرية ما أو تتلكأ في أثناء الهجوم لهذه الأسباب أي النفسية، فيكون تأثير نيرانها المطلوبة لإنجاح الهجوم أقل من المعتاد وقد يكون معدوماً.

٣. دِقّة التنفيذ.

ويقصد بالدِقة هنا الاتقان أو الإجادة، المرادفة لتنفيذ المهمة الصادرة بالأمر "الضبط". وبصددها يمكن القول ان التنفيذ للأوامر طوعياً يعني قبولاً ذاتياً للأمر الصادر، ولأكبر عدد ممكن من المنتسبين في الموقف دون الحاجة الى التدقيق والاقتناع. والتدقيق بطبيعة الحال وحتى في حالة الأشخاص الطبيعيين "غير الوسواسين" أي الذين لا يحتاجون وقتاً اضافياً للتدقيق واعادة التدقيق بشكل متكرر، وفي هذه الحالة الطبيعية يجد العسكري المنضبط نفسه في سياق التنفيذ السريع للأوامر أنه قد:

آ. اختزل بعض من العمليات العقلية. تلك العمليات التي تجري داخل العقل مفسرةً الكثير من نشاطات التفاعل الإنساني له، وهي مفهوم نفسي افتراضي للدلالة على تلك العمليات التي يجريها العقل لإنتاج السلوك، ولأغراض الايضاح سنذكر فقط الانتباه والادراك من بين العمليات العقلية:

- الانتباه. عملية عقلية معنية باتصال الفرد في البيئة المحيطة، تقوم بتوجيهه نحو الموقف السلوكي ككل فيما إذا كان جديداً أو مألوفاً وهي عملية معرفية يتم بواسطتها انتقاء المثيرات التي يلاحظها الفرد أو يكون مستعداً لملاحظتها عن بقية المثيرات الأخرى[32]. وفي حال التدريب وتكرار مفرداته حد الوصول بالقدرة الى التنفيذ الطوعي ستكون المنبهات مألوفة، وحين تكون هكذا فستختزل العملية العقلية هذه أو جزء من الوقت الخاص بها.
- الادراك. العملية العقلية التي عن طريقها يتم تنظيم أنماط المنبهات وتفسيرها وإكسابها المعنى الذي يساعد أو يسرع عملية التنفيذ، وهي قراءة المعاني من الاشارات الحسية، أي ترجمة الاحساسات واعطائها معنى[33]. وبهذا كلما تدرب المقاتل على مواقف القتال المختلفة وانضبط في التنفيذ ستكون المعاني ماثلة أمامه أسرع من أولئك الأقل تدريباً وانضباطاً. على هذا الاساس يمكن القول أن الأمر الصادر وعند استلامه من قبل المقاتل المدرب المنضبط "السليم نفسياً" يكون تنفيذه أسرع، لأن دورة الانتاج العقلية منذ استلام الأمر والى آخر خطوة من خطوات التنفيذ لا تأخذ وقتاً عند مرورها في مسارب العملية العقلية اللازمة للتنبه اليه ومن ثم تفسيره وإعطائه المعنى المناسب.

ب. تجاوز عوامل التشتت والتركيز التي قد تصاحب أحياناً استلام الأمر وتنفيذه. وتشتت الانتباه هو عدم التركيز على الأمر الصادر الذي يشكل عائقاً أمام التنفيذ السليم للأمر، هذا وان التشتت شرود ذهني، والشرود بحد ذاته على مستويات قد تكون بسيطة وقد تكون شديدة تصل الى مستوى الاضطراب، وفي حالته نرى المعني أي المقاتل الشارد ذهنياً، يتنقل من

---

[32]. ناجي قاسم (٢٠٠٧) علم النفس التعليمي، كلية التربية، جامعة الاسكندرية، مصر.

[33]. أحمد محمد عبد الخالق (٢٠٠٢)، أسس علم النفس، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، مصر.

موضوع الى آخر وعند استلامه الأمر نراه يستلم "يسمع" للوهلة الأولى ثم سرعان ما يبتعد عن أصل الموضوع، ويلاحظ هذا الابتعاد على عينيه وبعض حركاته، وهي حالة تقترب من أن تكون مرضية. هذا وقد يكون التشتت وخاصة الذي يفوق العادي في بعض الأحيان ناتج عن أسباب عضوية تعود الى النواقل العصبية أو في بعض خلايا التركيز في الدماغ، ومع هذا هي حالة يمكن التغلب عليها عن طريق التكرار في التدريب والزام الذات "الضبط" على التركيز عليها، لكنها حالة لا تهم المدربين الذين يمكن أن يعزلوا مثل هؤلاء أو يخرجوهم من الجماعة المتدربة خاصة لبعض الصنوف التي تتطلب مستويات استجابة سريعة ودقيقة أكثر.

ان ما يهم في موضوع التشتت هو التعامل مع البسيط منها التي يمكن تجاوزها من خلال التكرار المقبول في التدريب على الضبط حيث التنفيذ الطوعي دون تدخل عوامل قد تسحب عقل المنفذ الى التفكير بأخرى غيرها، وهذا بحد ذاته يكون كافياً لتأمين الدقة اللازمة في العمل المطلوب تنفيذه، وبما يسمح بالتفوق على العدو في أرض المعركة في الزمان والمكان المحددين.

٤. الاقتصاد بالجهد أثناء التنفيذ.

ان التنفيذ الصحيح للأوامر طوعياً، يعني القيام بإنجاز الفعل المطلوب "التنفيذ "حسب الخطة الموضوعة بأقل ما يمكن من الصرف أو الاستنزاف اللازم للطاقة الواجب المحافظة على مقاديرها والاحتياطي منها للتعامل مع المواقف الصعبة. اذ أنها عادة ما تستنزف في حالات التفكير بالأمر وعند الشعور بالقلق من تبعات تنفيذه، وإذا ما استنزفت لا يمكن تعويضها. والخشية في حالتها أن يواجه المقاتل موقفاً يتطلب كماً من الطاقة لا يجده متيسراً في داخله عند الاشتباك بالعدو، فيصاب بأحد الاضطرابات النفسية "صدمة المعركة". وهذا ما سيتم تفصيله لاحقا عند تناول موضوع الاجهاد النفسي والطاقة.

ان الاقتصاد بالجهد لا يتوقف على الطاقة النفسية، بل ويمكن تعميمه في الوقت ذاته على الجوانب المادية للموقف القتالي، اذ أن الانضباط الطوعي وناتجه التنفيذ السريع للأمر يعني اكمال حفر الخنادق المطلوب اعدادها، ونقاط المراقبة وغيرها مبكراً وحسب التوقيتات، وهذا ليس توفيراً في مجال الجهد البدني فقط، إذ أن اكتماله بالوقت المطلوب يمكن أن يجنب الوحدة العسكرية تأثير القصف المعادي أي يقلل الخسائر وهو توفير من نوع آخر.

٥. ضمان التنفيذ.

ان بعض المهام القتالية تكون صعبة أو خطيرة حتى يصل قسماً منها الى احتمالات الموت بنسب عالية. وهنا وعلى الرغم من أن احتمالات الموت والاصابة موجودة في كل المعارك، الا انه وفي بعضها وفي القتالات والمهام الخاصة منها، تكون نسب المجازفة بالحياة أعلى من غيرها، وفي حالتها يكون العسكري الذي تعلم الاستجابة للأوامر طوعياً، لا يجد مجالاً للخوف في داخله، من ذلك الذي يمكن أن يعيق عملية تنفيذ الأوامر.

فإرسال دورية استطلاع أو تنفيذ مهام خاصة خلف خطوط العدو، ولأيام عدة تعني مجازفة بالروح عالية النسبة، واذا لم يكن المقاتل منضبطاً، واذا لم يتعلم في حالتها كيفية التنفيذ الطوعي للأوامر ويعتاد عليها فسيكون الوقت من حوله ضاغطاً، ومنذ اللحظات الأولى لاستلام الأمر قد تتسرب الى مخيلته مشاعر الخوف من الموت أو الاصابة، ومن تعامل العدو معه في حال الأسر وغيرها من التبعات، وهنا لابد من الأخذ بالاعتبار أنه وكلما يزداد

الخوف كلما تنتج صور وأفكار وتخيلات يؤثر السلب منها على المعنويات ومن ثم الأداء التي يفترض عدم الانقياد اليها، أو السعي لإبعادها جهد الامكان، هذا وان المقاتل المدرب المنضبط السليم نفسياً يكون قادراً على عدم الاستسلام لمثل هكذا مشاعر تعيق التنفيذ السليم.
هذا وتؤشر حوادث القتال في المعارك وخبراته الميدانية، أنه وعند الاشتباك بالعدو يتسبب الخوف والقلق من النتائج التي قد تحصل اثناءه وما بعد تنفيذ المهمة الى تباطؤ تنفيذها أو حتى التوقف عن تنفيذها خاصة في الحالات الشديدة، لذا أمكن القول:
أن الشخص المنضبط الذي تعوَّدَ تقبل الأمر الصادر وتنفيذه طوعياً يفترض أن يقل في داخله التخوف ويخف القلق الى أدني الدرجات وكذلك للتفكير بالتبعات، أي يكون قادراً على ابعاد الشكوك والتوجس دون الانجرار اليها والغوص في مواضيعها وبما يؤثر سلباً على معنوياته.
ان مناقشة الفائدة المتأتية من التنفيذ الطوعي للأوامر، وباقي العوامل ذات الصلة بالضبط العسكري تقدم للقارئ والمتابع في شؤون الضبط جملة حقائق بينها:
آ. لا وجود لأداء عسكري قتالي جماعي على وجه الخصوص دون أوامر صادرة على وفق تسلسل مقنن من الأعلى الى الأدنى، الا في بعض الحالات الخاصة التي تنقطع فيها سبل الاتصال ويضطر فيها المقاتل الفرد أن يجتهد والجماعة أن تتصرف من عندها، ومع هذا فعلى مستوى الجماعة سيكون:
الشخص العسكري الأقدم في الجماعة منتجاً أو معنيا بإصدار الأوامر.
العسكريون الآخرون من الجماعة معنيون بتنفيذها.
ب. لا انجاز يتحقق، لأي فعل عسكري دون تنفيذ متقن للأوامر الصادرة.
ج. لا تنفيذ حسن، دون اقتناع وتقبل نفسي للأمر الصادر "الضبط ."

التوافق في البيئة العسكرية

ان العسكريين بشكل عام ينفذون المهام المكلفين بها ضبطاً من خلال عملية توافقهم مع مستلزمات حياتهم العسكرية. ويقصد بالتوافق قدرة الفرد /المنتسب على اكتساب مجموعة من المهارات والأساليب والضوابط والمفاهيم السوية والاستجابات الناجحة التي تمكنه من اشباع دوافعه في العمل الذي يمتهنه، وتحقيق قدر من الرضا والقبول عن التواجد في مجاله والاستمرار في تأديته.

ان التوافق عملية ديناميكية، فعالة، نشطة، يقوم بها الفرد أي المنتسب بشكل مستمر في محاولاته لتحقيق التوافق بينه، وبين نفسه أولا، ومن ثم بينه، وبين البيئة العسكرية التي يعيش فيها ثانياً، وذلك بتغيير سلوكه وبما يتلاءم مع المؤثرات المختلفة في محيط بيئته حتى يصل الى مستوى من الرضا والقبول أو التكيف معها، أي البيئة العسكرية، وعلى وفق هذا المفهوم فالتوافق سلوك عام لا يقتصر على البيئة العسكرية فقط، إذ أن هناك على سبيل المثال توافق مهني وآخر أسري واجتماعي وزواجي وانفعالي، تقع جميعها في نفس السياق الخاص بالرضا والقبول وتأدية المهام كما هو مطلوب.

هذا ومن صور التوافق في الحياة العسكرية بقصد الايضاح ما يتعلق مثلاً بتصرف الضابط في الشارع العام، وبما يناسب رتبته العسكرية، فلا يتدافع مع الغير، ولا يرفع صوته عالياً، ولا يمضغ العلكة علناً، وغيرها من أنواع السلوك التي قد تكون عادية في الحياة المدنية لشاب يسير في الشارع، وهي غير هذا لمن يحمل صفة عسكرية[34]. لأن الحياة العسكرية وكما ورد، تحوي تقاليد وأنظمة وضوابط وقيم ومعايير تختلف عن تلك السائدة في الحياة العامة "المدنية" والتي تفضي الى انصياع المنتسب لها والالتزام بتحديداتها وكذلك ضبط فرديته وعدم السماح لها بالانطلاق الكيفي أو الغريزي.

من هذا يمكن القول إن الحياة العسكرية، وما تتميز به من اختلاف وضغوط يكون للضبط الدور الفاعل في الانتقال اليها أي تحويل الفرد من الحياة المدنية الى الحياة العسكرية، حالة تكون الحاجة اليها أكثر وضوحاً في أثناء الحرب عندما تزداد شدة الضغوط في المعركة مما يتطلب عسكرياً متوافقاً مع ظروف المعركة وضغوطها التي تتطلب تنفيذاً صارماً للأوامر الصادرة التي تحوي ضمناً نسبة عالية من المجازفة بالحياة.

34. أحمد عزة راجح (١٩٨٧) أصول علم النفس، دار المعار، القاهرة.

الفصل السابع
الضبط وخصوصيات البيئة العسكرية

التداخل

ان البيئة العسكرية أو ما تسمى أحيانا بالحياة العسكرية وبالإضافة الى ما ذكر من مواقف واعتبارات في أعلاه تمتاز بخصوصيات دارجة للضبط علاقة تداخل في جميعها، سيتم مناقشتها تحت العناوين الآتية:

١. الأدوار التراتبية.
٢. التطبع على وقع الحياة العسكرية.
٣. روح الجماعة.
٤. المسؤولية الوطنية.
٥. الخصوصية المهنية.
٦. القدوة.

الأدوار التراتبية

ان العلاقات بين المستويات العسكرية والأفراد تقترب من أن تكون حدية على وفق معايير معينة أساسها التراتب والتسلسل "القدم" يتأسس عليها تدرج رتبي وتنظيمي، فهناك الفصيل، وأقل منه تراتباً الحضيرة والأعلى منه السرية، وهناك الضابط وضابط الصف والجندي، وفيما يتعلق بالضباط هناك الملازم صعوداً الى الفريق الأول، وكذلك الحال بالنسبة الى ضباط الصف حيث الجندي الأول ونائب العريف وهكذا. وفي الدورة الواحدة للضباط بعد تخرجهم من الكليات العسكرية، هناك تفاوت في درجات التحصيل تحدد قدمهم في نفس الدورة. قدم عسكري هو السبيل الوحيد لتحديد الدور في عملية إصدار وتنفيذ الأوامر لكافة منتسبي المؤسسة العسكرية، وبشكل دقيق وواضح بغض النظر عن أية عوامل أخرى شخصية أو اعتبارية.

ان القدم، أو كما يسمى أحياناً الأقدمية، تقليد عسكري، وكذلك صيغة نظام تحكم التفاعل في المؤسسة العسكرية لإنتاج الأداء العسكري جماعياً، وهو القاعدة التي تسايرها باقي التقاليد العسكرية معطية إياه أي القدم منزلة تعد الأولى في المعاملات والأوامر والتوجيهات لغرض صياغة وتكوين نظام مؤسسي صارم ينتج أداءً مميزاً في كل الظروف والمواقف، ويحمى المؤسسة من احتمالات حصول الفوضى أثناء عملية التنفيذ.

إنه علاقة تراتبية خاصة إذا ما تم النظر اليها من جوانب الانسان وجهازه النفسي الانفعالي وخبرات الميدان يمكن التأشير الى أنها علاقة حساسة مثيرة لبعض الاشكاليات التي لا يمكن تجاوزها أو التوافق معها الا من خلال الضبط عالي المستوى. فقد يكون آمر الوحدة على سبيل المثال فضاً أو سليط اللسان أو غير حسن الهندام أو ضعيفاً فيكوّن انطباعات ومشاعر سلبية غير توافقية معه لبعض أو لمعظم منتسبيه تؤثر على الاستجابة لأوامره الصادرة.

وقد يحصل ضابط من الدورة "س" في الكلية العسكرية عمل آمر فصيل في سرية، ومعه فيها آمري فصائل من الدورة التي تسبقه بستة أشهر، وفي معركة ما حصل على قدم لمدة سنة، وبعد نقل أو فقدان آمر السرية نسب هو آمراً لها، عندها ومن الزاوية النفسية الانسانية العادية يمكن أن ينظر اليه زملاؤه آمرو الفصائل الآخرين، نظرة فيها بعض الحسد أو التوجس وقد يكون مستوى تنفيذهم لأوامره الصعبة أو الخطيرة مصحوباً ببعض الانتقاد "أحياناً على أقل تقدير" وبما يؤثر على دقة التنفيذ وسرعته.

وقد تحتم مقتضيات القيادة والسيطرة في الحروب بعض الأحيان قيام القيادة العليا بمنح رتب لأغراض القيادة في مستويات اللواء والفرقة أو قيادة العمليات أو الفيلق[35]، عندها سيكون العقيد الفلاني الذي منح رتبة عميد أو أكثر آمر لواء أو قائد فرقة أو قائد عمليات وبمعيته آمري وحدات يفوقونه قدماً من قبل. وبما يؤسس لنشأة وتكوين أفكار بالضد من أوامره الصادرة.

إنها حقائق ذات انعكاسات نفسية، موجودة فقط في تلك الجيوش التي تصنف جيوشاً لدول نامية يتحكم بقياداتها العليا أفراد "حكام" لا يمتلكون معرفة عسكرية كافية، ولا يحترمون

35.. فلسفة طبقت في الجيش العراقي لأول مرة ابان الحرب العراقية الايرانية، وتكررت بعد إعادة تشكيل الجيش بعد عام ٢٠٠٣ إذ منحت رتب وترقيات ودرجات وظيفية كانت في الواقع العملي من بين الأمور التي تم فيها التجاوز على المعايير القيمية والضبطية للجيش وأسهمت مع غيرها من عوامل في تصدع مستويات الضبط.

التقاليد والقيم العسكرية بالقدر الكافي، بينها الجيش العراقي ما بعد العام ١٩٦٣، إذ منح بعد الانقلاب في العام المذكور المقدم الركن صالح مهدي عماش رتبة فريق لمرة واحدة وعين وزيراً للدفاع، وتكرر الأمر بعد انقلاب عام ١٩٦٨ بشكل أوسع حيث شرعت القيادة السياسية للجيش إبان الحرب العراقية الايرانية وما قبلها بمنح الرتب والقدم العسكري وبمستوى يصل حدود الانحراف عن السياقات الصحيحة إذ مُنح في العام ١٩٧٩ مثلاً مجموعة من ضباط الركن الحزبيين "البعثيين" برتب رائد ومقدم ركن رتب عميد ولواء ركن ونسبوا للعمل قادة فرق، وتكررت هذه الأفعال كثيراً خلال الحرب حتى بات من الواضح للمتتبع أن هناك قائد فيلق برتبة لواء وفي فيلقه آمر فوج من دورته في الكلية العسكرية والأركان برتبة مقدم ركن.

كما شرعت القيادة وخلال الحرب ذاتها بمنح رتبة ملازم للجنود بينهم أفراد حمايات مثل حسين كامل ومجموعة كبيرة من التابعين لحماية صدام حسين ولم تكتفِ بهذا القدر اذ باتت ترقي الواحد منهم الى رتبة أعلى كل سنة أو ستة أشهر، ليصل بعضهم الى درجة وزير ويتسلم وزارة عسكرية وأمنية مثل الدفاع والداخلية.

كذلك منحت سياسيين من الحزب رتب عسكرية عليا وهم في الأصل ضباط صف، ثم وقبل ٢٠٠٣ باتت القيادة السياسية المذكورة للبلاد تعادل الدرجات الحزبية لأفراد حزبها بالرتب العسكرية، فالعضو مثلاً ملازم وعضو الفرقة ملازم أول والشعبة نقيب وهكذا.

وفي معركة الفاو الأولى عام ١٩٨٦ منح عشرات الجنود بينهم مراسلين للقادة رتبة ملازم حتى حمل هذه الرتبة أشخاص أمّيون أو بتحصيل لا يزيد عن الدراسة الابتدائية، وكوّنوا مشكلة للجيش خاصة فيما يتعلق بامتحانات الترقية وسبل القيادة والسيطرة.

وفي نفس السياق وإبّان تلك الحقبة الزمنية تجرأت القيادة العليا بمنح شارة الركن وهي شهادة تعادل الماجستير مهنياً لأشخاص هم مدنيون في الأصل، وحملوا رتباً عسكرية مثل صدام حسين وحسين كامل وعلي حسن المجيد.

ان هذا التراتب المتعدد للفواصل في القدم العسكري الذي يفترض أن يسد الضبط الثغرات الحاصلة في مجاله، لكنه ومن الجانب النفسي المقابل يعد من أكثر عوامل التأثير سلباً على الضبط، خاصة وان هذا النوع من القدم والمنح العشوائي للرتب لا يتأسس على الكفاءة والشجاعة والانجاز في المعركة، بل وفي غالبه يقوم على الحزبية والقرابة، الأمر الذي أثار الكثير من الانتقادات والتفكير بالضد في حينه، ولأن الانتقاد والتفكير كان مكتوماً إذ يحرم البوح به فتحولت في وقتها الانتقادات والأفكار المضادة الى مشاعر سلب من القيادة العليا ومن المؤسسة العسكرية ذاتها، أخذت كثيراً من جرف الضبط الذي تدنت مستوياته بشكل ملموس بسبب هذا العامل وعوامل أخرى.

التطبع على وقع الحياة العسكرية

تعبر المؤسسة العسكرية عن حالة النظام والانتظام، وتحمل طباعاً خاصة واعرافاً محددة وتقاليد معروفة تعمل جاهدة لنقلها الى كافة منتسبيها وطبعهم بطابعها، أو تعليمهم اياها كسلوك بوسائل عدة بينها الضبط العسكري إذ أن التدريب على إطاعة الآمر " الما فوق" وتنفيذ الاوامر الصادرة تسهل وتساعد على قبول متغيرات وضوابط الحياة العسكرية أي التطبع لها، والانتظام وفق اطار محدد من السلوك المقبول عسكرياً والتقيد به في شتى الظروف والمواقف عامل ضبط يسهم في التطبع، وكذلك احترام السلاح وعدم التكلم كيفياً في وجود الأقدم، والانصياع الى رأي الجماعة، كما ان الانتظام في المسير عندما يتحرك مشياً أكثر من عسكري "توحيد وقع حركة الأرجل" في ساحة العرضات أو خارجها تقليد أو سياق عسكري قوامه الضبط يعطي أو يسهم في انتظام الفعل العسكري وقبول حصوله أي التطبع له، كذلك الحال لبدء الكلام من قبل العسكري الأقدم، وعدم رفع أصوات الآخرين في المحادثة والرد وضوابط البدء في تناول الطعام في المطعم العسكري وغيرها تفاصيل ضبطية تساعد العسكري على العيش في بيئته العسكرية والتطبع عليها وفق ضوابط يقبلها تدريجياً، وبما يسهم في تكوين الفعل العسكري الجماعي أو بالمعنى النفسي بما يسهم في تنظيم السلوك، أي تطبيعه للحياة العسكرية.

ان الاعراف والتقاليد العسكرية وسياقاتها وضوابطها لا تتوقف عند الأمثلة المذكورة آنفاً، بل وَتُعلم المؤسسة العسكرية أفرادها معايير الشرف والشجاعة والنزاهة والاحترام والولاء الى الوطن والمؤسسة العسكرية ذاتها، ونكران الذات والاعتزاز بالمهنية واحترام القانون، وهم عندما يصلون الى مستوى من التشبع الضبطي القيمي بوقعها في ذواتهم العسكرية الخاصة، وبما يمكننا من القول أنهم تطبعوا على الحياة العسكرية، وأصبحوا قادرين على العيش في بيئتها، وتحمل ضغوطها بأقل ما يمكن من الخسارة النفسية[36].

[36] . ان كلمة طبع في معجم المعاني الجامع تعني التعويد على فعل الشيء، التعلم على الانقياد والمطاوعة، وعموماً فإن مصطلح التطبيع قد أخذ من السياسة إذ ورد في مجالها المصطلح للتعبير عن المشاركة في نشاط مخصص لجمع من الفرقاء.

علي، جمال سلامة (٢٠٠٦) النظام السياسي والبناء الاجتماعي، النموذج الواقعي لتحليل النظم السياسية، دار النهضة العربية، بيروت.

روح الجماعة

ان الوحدات العسكرية ومؤسسات القوات المسلحة جميعها تقيم لنفسها سلوكاً جمعياً، تذوب أو تنتهي في محيطه الفردية الى صالح الجماعة، وبما يمكن تسميته "روح الجماعة:
فجندي المشاة على سبيل المثال لا يهجم في ظروف القتال التقليدية على موضع للعدو وحيداً، فهو ضمن حضيرته، والحضيرة ضمن فصيل، والفصيل يتقدم الى هدفه بالنار والحركة وبقفزات تعبوية، يتعاون خلالها ويُدعَم من فصائل أخرى وبإسناد مفارز الهاونات واحياناً الرشاشات بعيارات مختلفة، وأسلحة ضد الدروع "حسب الموقف التعبوي "وهكذا ينجم عن تنفيذه مهمة التقدم سلوكاً قتالياً جماعياً يعد الأساس في العمل العسكري القتالي.
ان روح الجماعة التي يعبر حصولها بمستوياتها المقبولة عسكرياً عن حالة الانضباط بين المنتسبين المنفذين، هي في الوقت ذاته سلوكاً يتم التدريب عليه منذ السلم من خلال برامج تدريب تشترك في تنفيذها الجماعة من المفرزة والحضيرة فأعلى حتى مستوى الفرقة والجيش.. سلوك لا يقتصر على الحرب، اذ يتم التمهيد لحصوله منذ السلم فالمسير، والتمارين والعمل، وغيرها أمثلة عن هذا التجسيد، وعن التدريب المتواصل لحصوله سلوكاً جماعياً، طبيعياً لا يترك التنفيذ في إطاره أثراً جانبياً في النفس، تحتاجه المؤسسة العسكرية لتنفيذ مهامها الوطنية بكفاءة واقتدار.
وهنا يقتضي التنويه الى أن العمل الجماعي سلوك يتم تداوله تحت اصطلاح روح الجماعة وأحياناً روح الفريق، وهو ناتج للأداء يقدم مثالاً للضبط العسكري الجيد، فعندما يصدر آمر الفصيل أمراً ما، ويطلب تنفيذه، يشعر عندما تكون روح الجماعة بمستوى عالٍ، كل منتسب في الفصيل بانه وباقي المنتسبين في قالب واحد، أو وكأنهم في سياق التنفيذ شخص واحد، يؤدون الحركات والافعال سوية، وكأنها حركة واحدة... شعور يمنع الواحد منهم من أن يتجاوز على ضوابط جماعته في الالتزام والتنفيذ، على وفق حقيقة نفسية من ان الشخص السليم نفسياً:
لا يرتكب فعل ضد نفسه.
يحس انه ضمن فريق واحد.
يشعر أنه جزء مهم من وحدة تنفيذ قائمة.
يدرك أن له في الوحدة مسؤولية يتحملها مثل غيره من الزملاء.
هذا وان التدريب في هذا الشأن الضبطي يسهم في عدة أمور بينها:
١. يقوى في داخل المنتسب نوعاً من احترام الذات والرقابة الذاتية، وكذلك الثقة بها وبالآخرين الموجودين معه في الموقف العسكري في أن يؤدوا أدوارهم وينفذوا الأوامر الصادرة لهم بالمستوى المطلوب منهم لتنفيذه.
٢. الابتعاد عن ارتكاب الفعل الذي لا يرضي الآمر وباقي الزملاء معه.
٣. يُكبرُ في داخله قيمة الرضا عن نفسه والآخرين معه في التشكيل الذي يعمل في مجاله.
٤. يزيد في نفسه الميل الى التعاون مع الغير لتنفيذ الفعل المطلوب.
٥. يكوّن قدراً من الانسجام بين المنتسبين، والتفاهم الطوعي فيما بينهم لتنفيذ الأمر الصادر بهدف انتاج الفعل العسكري الجماعي المطلوب، دون اتكالية أو تمييز أو ضغائن أو تفريق بين أفراد المجموعة.

٦. الالتزام قيمياً بتنفيذ ما مطلوب دون الاعتراض على الأمر أو صيغ توزيع المهام لتنفيذه، ودون النظر الى حجمه والتبعات الشخصية لما ينم عن تنفيذه والمقارنة بما مطلوب تنفيذه من الزملاء في الجماعة، علماً أن قلة الالتزام ستؤدي الى اقلال القدرة على التركيز أو حتى فقدانه وتكون قدراً من الضغينة التي تقلل من التعاون بين الفريق أثناء تنفيذ الأمر.
ان روح الجماعة نوع من الولاء يفضي الى ايجاد قدرة لها في التأثير على كل فرد فيها لصالح الاداء الجماعي الناجح.

المسؤولية الوطنية

إن العسكري وأي كان منصبه ورتبته يعد في الحسابات الوطنية القيمية رمزاً للقوات المسلحة وجيشها، وهي أو الجيش الرمز الوطني للدولة أو الأمة باعتبارهما المؤسسات التي يدافع منتسبوها بأرواحهم عن الوطن، وبضوء هذا الاعتبار يتحمل المنتسب اليهما مسؤولية اعتبارية وطنياً، تلزمه التصرف بما يعبر عن وطنية هذه المؤسسة في الدولة، فيكون ملزماً في أن:

يظهر في قيافته بمظهر مناسب لأن في مظهره صورة الوطن.

يتصرف ويسلك سلوكاً مناسباً لأن الخطوة التي يخطوها خارج سياج الثكنة محسوبة على الجيش كمؤسسة وطنية، وأي تقصير أو تجاوز للحدود الاجتماعية المقبولة تلام المؤسسة ذاتها قبل ملامته هو.

عليه نرى وفي فترات زمنية وظروف خاصة وعندما يمر الجيش بفترة حرب طويلة وأزمات بناء واعادة تنظيم كذلك ممتدة طويلاً أو البقاء تحت ضغوط التقشف في الميزانية المالية لفترة طويلة على سبيل المثال، يمكن أن تتأثر القيافة لتكون غير ملائمة والمظهر العام يكون متردياً، عندها ستترتب على هذا انتقادات تمتد تدريجياً لتطال سمعة المؤسسة "الجيش" وبالتالي الوطن الذي يضعف في نفوس المواطنين.

إن صورة العسكري في المؤسسة واجمالي صورة الجيش عند المواطن مهمة للدولة ومصالحها العليا، اذ انه أي الجيش الذي تسعى من خلاله الدولة أن تؤسس تصور للردع في نفوس الآخرين من الدول والشعوب الأخرى يحول دون توجههم للتجاوز على وجودها، فانه أي الردع كمفهوم نفسي يتكون من القدرات المادية الفعلية للمؤسسة مضافاً اليها صورتها النفسية عند مواطنيها والآخرين، هذه الصورة التي تتجمع في العقول من المظهر والسلوك والضبط والمعنويات ودرجة الثقة التي يحظى بها الجيش من قبل المواطنين في دولته، حتى قيل أن الشعور بالأمن النفسي لعموم المواطنين مرتبط بمقدار ثقتهم بجيشهم ومؤسساتهم الأمنية.

إن صورة الجيش اللازمة لتكوين صورته الوطنية في عقل المواطن، مسألة ليست ثابتة وهي بحاجة الى إدامة البقاء لامعة طوال الزمن، ويمكن تقريب مفهومها أكثر من خلال الأمثلة الدارجة، فالتحلي بالمهنية لمنتسبي وحدة من الوحدات العسكرية في تعاملهم مع مدنيين في ساحة المعركة تعاملاً يسهم في انقاذهم من القصف أو النيران المتبادلة، يعلي من شأن الوطن ويعزز لمعان الصورة، وتعامل ضابط بلياقة واحترام مع مارين في نقطة سيطرة داخل مدينة، مهم لإبقاء وطنية للجيش صورة ناصعة في عقول المواطنين ودافعاً لهم باتجاه زيادة الثقة بمؤسسة عسكرية وطنية.

وهنا العكس وارد أيضاً، إذ أن عسكري واحد أساء الادب مع مواطن في الشارع، أو منتسب في السيطرة العسكرية أساء الى سيدة مارة في سيارتها الخاصة أو آخر شتم مواطنين بعد انفجار عبوة يتجمعون قريباً من موقع انفجارها، كله سلوك يشوه صورة الجيش بقدر من السوء لا تزيله عديد من الأيام، ولا مجموع الانجازات التي يحققها والتضحيات التي يقدمها في ساحة الحرب، لأن المشهد الجزئي للسلوك القائم في الموقف يتحول في عقل المواطن المدني وحسب قوانين الاشتراط النفسي الى صورة كلية مشوهة ليس من السهل تغييرها أو

التخلص منها في قادم الأيام، وعلى العسكريين عموما الأخذ في الاعتبار أن المجتمع سرعان ما يغفر للمدنيين أخطاءهم وتقصيرهم وهفواتهم سواء من خلال إدراكه أي المجتمع عدم تأثير وقوعها هنا على الصورة العامة للوطن، أو لكثر المتغيرات التي تحصل في ساحة هذا المجتمع، والتي تمسح ما قبلها من صور، لكنه وفي الوقت نفسه لا يغفر للعسكريين أبسط أخطائهم، لأنها تنعكس سلباً على مهنيتهم مكونة انطباع ضار يهز الثقة في مصداقية قدرة المؤسسة على الدفاع عن الوطن، على هذا تكون الصور المأخوذة للعسكري والانطباعات التي تتكون عليه في عقول الناس مسؤولية لا تتوقف آثارها السلبية عليه فقط، بل تمتد لتنال صورة المؤسسة العسكرية برمتها.

فالعسكري الذي تكلمنا عن سلوكه في نقطة السيطرة مثلاً، لم يأخذ المواطنون اسمه وكنيته ولم يبقون هذا الاسم وان عرفوه في ذاكرتهم، لكن صورة السلوك الخطأ ستبقى فترة طويلة، وانفعال الغضب أو الضجر الذي نشأ عن ذاك السلوك سيبقى في العقول فترة أطول، وسيظهر على سطح الذاكرة مع كل سلوك مشابه لعسكري آخر مستقبلاً، عليه أصبح السلوك غير الصحيح لجندي هنا عاملاً لتقليل قيمة الجيش وتشويه صورته الوطنية في عقول المواطنين والحاق الأذى بهيبة الدولة والوطن، وكوَّنَ بمحصلة الأمر مسؤولية وطنية اعتبارية اتجاه الوطن يتحملها جميع المنتسبين، مسؤولية من نوع خاص لا توجد عند فئات المجتمع الأخرى.

على هذا يكون من المناسب القول أن سلوك العسكريين الظاهر، يؤثر سلباً أو ايجاباً على طبيعة الصورة الوطنية للجيش ويفرض على المنتسبين قيوداً في مجال تحمل مسؤولية التعامل فيما بينهم وخارج مجتمعهم، تعاملاً على وفق قيم ومعايير تعلي شأنه.

إن مجموعة مخارج، أو وقائع السلوك العسكري وما يحتويه من تقاليد عسكرية وشرف مهنة، لا تتوقف علاقات تأثيرها على المشاعر الوطنية والثقة بالمؤسسة على أنواع السلوك المادي أي المظهر والهندام والسير في الشارع وعدم الابتذال في السلوك العام، بل وتشمل كذلك الجوانب النفسية، فظهور العسكري بمعنويات عالية في الشارع مهم جداً في أوقات التوتر والأزمات والحروب إذ تعطي معنوياته العالية دافعاً معنوياً للمواطنين يعينهم على تحمل أعباء الحرب وضغوطها والعكس وارد أيضا، فالظهور بمظهر مُحبَطْ ومعنويات مضطربة مشهد يترك آثاراً سلبية في نفوسهم "المواطنون" اتجاه جيشهم، وبالتالي تجاه الوطن وهيبة الدولة. لأن المؤسسة العسكرية ومجتمعها تمثل صورة مصغرة للدولة، تعكس قوتها قوة الدولة ويمثل ضعفها ضعف الدولة، ومسؤولية قوتها مسؤولية اعتبارية عامة تقع على جميع منتسبيها[37].

[37]..الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر، الأحد ٢٤ شوال ١٤٢٨ العدد ١٢٨٠.

الخصوصية المهنية

إن الجيش وعموم المؤسسات العسكرية والأمنية تتميز بقدر من الاستقلالية المهنية أو العزلة النسبية عن باقي قطاعات المجتمع، فالحياة في داخلها تتطلب التزاماً غير موجود في قطاع الصناعة التي تتحكم بها معطيات الدقة والوقت، واحترام الأعلى خاصية لا توجد في المؤسسات التجارية التي تسود في عالمها الثقة وتقدير المال، والتكافل في تقديم العون في ظروف القتال الصعبة لا يكون موجوداً في قطاع الزراعة التي سادت في عالمها الفزعة من قبل، وغيرها من القطاعات الأخرى التي تشكل المجتمع الأكبر، وهذه الخواص أي الالتزام بجملة تقاليد بينها الاحترام والتكافل أو التعاون بين المنتسبين وفيما بينهم والأعلى منهم الذي يمكن تسميته بالضبط القيمي ميز البيئة العسكرية، وأعطاها قدر من الاستقلالية وفّرت الى الجيوش حصانة ذاتية نسبية اتجاه احتمالات الفوضى والتسيب في العمل التي تنشأ بين الحين والآخر في باقي القطاعات، فالمنتسبين في جيوش العالم ومهما بلغ بهم الحال المعنوي ترد ياً أو تأخرت عنهم الرواتب أو قسى عليهم القادة أو خسروا معركة من المعارك على سبيل المثال، فانهم لا يتوجهون الى الاضراب عن العمل في الثكنة أو ساحة المعركة، كما يحصل في معمل يتجه عماله الى الاضراب لانخفاض اجورهم أو سائقي الحافلات لكثر ساعات عملهم، لأن نتائج الاضراب هنا وفي هذه القطاعات والأخرى المثيلة لها لا تشكل تهديداً حاسماً لأمن الدولة الوطني، وربما مصير وجودها بالمقارنة مع حدوثها في الجيش، على هذا سعت الجيوش أن تكسب مؤسساتها العسكرية هذه الخصوصية القيمية التي يعد الضبط قاسمها المشترك الأعظم، وتحصينها تجاه كل أوجه الاضطراب من خلال تدريبها على الضبط العالي وتعزيز الالتزام القيمي وتقوية النظام "صرامة النظام" وايجاد تقاليد خاصة بها تميزها أيضاً عن باقي القطاعات[38].

إن صرامة النظام وتطبيقاته التي ترجع الى الضبط يمكن تشبيهها بجهاز المناعة الذي يقي الانسان عدوى المرض، إذ وعندما يضعف هذا النظام الصارم باختلال الضبط واضطراب المعنويات، يحصل خللاً قد يفضي الى حدوث ارتباك أو حتى اضطراب في الاداء القتالي يمكن أن يتوسع الى مستوى يُحدث انهياراً يصيب وحدة عسكرية أو قيادة أو حتى جيشاً بأكمله. ولنا في تاريخ الجيش العراقي أمثلة عديدة عن هذا الموضوع أذ وعندما تعرض هذا الجيش بخبرته القتالية الطويلة الى خسارة قاسية أثناء مجابهته تحالفاً يزيد عن ثلاثين دولة "جيشاً" في حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، وبعد تلقيه قصفاً جوياً ومدفعياً تمهيدياً قاسٍ لما يقارب الأربعين يوماً صدرت له أوامر الانسحاب من الكويت يوم ٢٥ شباط من العام المذكور، فانسحب تحت ضغط جيوش التحالف وقوتها الجوية السائدة، ولأن نظامه القائم على الضبط القيمي قد تصدع قبل الشروع بالانسحاب حيث الهروب الذي استشرى بين المنتسبين بينهم الضباط، وضعف المعنويات، وعدم الامتثال للأوامر الصادرة واتساع هامش النقد العلني للقادة والآمرين، تحول الانسحاب الى فوضى حتى قال قادة لآمرين بمعيتهم

---

[38]. يقصد بالتقاليد هنا أنواع السلوك التي تنتقل بين المنتسبين من صفات وعادات وممارسات وأساليب سلوك عن طريق السير على المنوال ذاته لضبط الأداء جماعياً. والتقاليد مسألة موجودة وحاجة قائمة في جميع الجيوش في العالم الحديث، وكذلك في القديم ترجع الى الزمن الذي عرف به الانسان الحرب، واشترك في ساحاتها على شكل جماعات.

انسحبوا كيفما ترون، وقال آمرين لمنتسبيهم كل ينسحب على هواه، وقسم منهم حددوا مثابات للقاء منتسبيهم وآخرين لم يحددوا حتى تبعثر الجيش بأكمله باستثناء الحرس الجمهوري والحرس الخاص، وقليل من القيادات خارج قاطع العمليات الجنوبي، وتسجل ولأول مرة في تاريخ هذا الجيش الذي بلغ عمره آنذاك سبعين عاماً أنه قد تَهيكلَ بأيام، وكاد أن ينتهي لولا صرامة الحكومة في وقتها وقدرتها على السيطرة على قوات النخبة "الحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص" وشنها هجمات مضادة على المنتفضين لاحتوائهم، ومن ثم القضاء عليهم بفترة زمنية قياسية دفعت منتسبي الجيش المبعثر الى العودة الى مثابات تحددت لهم واعيد تنظيم الجيش من جديد، ومثل كل مرة تم توجيه اتهامات لضباط قادة من قبل القيادة العليا وتم اعدام بعضهم سعياً منها الى اعادة الصرامة الى النظام الذي وعندما ضعفت هذه الصرامة تفكك الجيش بأكمله.

وفي العام ٢٠٠٣، كانت التجربة مماثلة في بعض جوانبها وأقسى في جوانب أخرى إذ وعندما قبل رئيس الدولة القائد العام آنذاك "صدام حسين" شخصياً تحدي تحالف دولي أوسع من التحالف السابق، وأصر على مواجهته عسكرياً وجد الجيش نفسه هذه المرة بمواجهة عدة جيوش عالمية قوية، بينها الأميركي والبريطاني وجيوش أخرى تتفوق عليه بكل شيء براً وبحراً وجواً، فحدثت صدمة لعموم الجيش الذي وجد نفسه يقاتل داخل العراق وفي مدنه، وسط غضب شعبي واحتجاج عشائري وقطع اتصال وعزل للقوات وانسحابات كيفيه حتى وصلت طلائع الحلفاء محيط بغداد بقليل من الأيام بعد شروعها في 2003/3/20 ولم تخُض حتى وحدات النخبة من الحرس الجمهوري والخاص الا معارك تعويق بسيطة في أم قصر والناصرية، وآخرها معركة المطار التي حدثت فيها خسائر كبيرة دخل على أثرها الحلفاء الى بغداد، وأعلنوا احتلالها عاصمة للدولة وإسقاط نظام الحكم القائم في ٩ نيسان من نفس العام، وفي يومه اختفى الجيش العراقي من على الأرض تماماً، ولم يبق لوحداته ومقراته أثرا ولا حتى لمخازن أسلحته وعتاده واحتياطيه من الآليات والتموين، إذ ومن لم تدخلها جيوش الحلفاء دخلها الأهالي واستباحوا حتى شبابيك ثكناتها.

كانت تجربة صعبه أدت مع عوامل السياسة الى حل هذا الجيش حسب التشريع الرقم (٢) الصادر عن سلطة الائتلاف بتاريخ ٢٣ - ٥ – ٢٠٠٣.

هنا ولغرض التحليل المنطقي لنتائج هاتين التجربتين، يمكن الاستنتاج أن التفكك الذي أصاب الجيش في العام ١٩٩١ واختفاء وجوده من الساحة الوطنية في العام ٢٠٠٣ وعلى الرغم من تفوق الخصم عليه في ساحة المعركة بنسب عالية يمكن حسابها في المرتين تقديرياً بما لا يقل عن (1-50) فان سبب البعثرة والاختفاء يعود الى تصدع صرامة النظام:

فخلع القيافة العسكرية في طريق الانسحاب وارتداء الزي المدني سبيلاً للذهاب الى البيت بدلاً من المعسكر، يمثل ضعفاً ماثلاً في مستوى الضبط العسكري.

وانسحاب العسكري على هواه لمجرد سماع كلمة انسحاب يمثل كذلك ضعفاً بيناً في مستوى الضبط العسكري.

وترك السيارة العسكرية أو ناقلة الاشخاص المدرعة في طريق الانسحاب من ساحة المعركة، واخذ وسيلة أخرى مدنية لتأمين الوصول الى البيت بدل المعسكر يؤشر هو الآخر ضعفاً ملموساً في الضبط العسكري.

وغيرها معالم ضعف في الضبط أدت الى انهيار عموم النظام الصارم الذي كان يحكم مجمل السلوك والقيم والمعايير العسكرية التي تنتج الأداء العسكري الجماعي في الزمان والمكان المعينين.
إن هذا الانهيار الضبطي للنظام الذي حصل نتيجة صدمة قوية في زمن قليل في الحالتين المذكورتين، يمكن أن يحصل على مستوى فرعي أي أقل من مستوي الجيش مثل قيادة منطقة أو قيادة فرقة أو لواء وحتى مستوى الفوج والكتيبة وقد حصل فعلاً ولأكثر من مرة، إذ وفي معركة الموصل الأولى ١٠ حزيران ٢٠١٤ انهارت جميع الوحدات العسكرية العاملة ضمن قيادة عمليات نينوى "باستثناء وحدات من جهاز مكافحة الارهاب" وانسحبت من مقراتها تحت تأثير صدمة التصور غير الصحيح للعدو الارهابي (داعش) وخلالها ترك المقاتلون مواقعهم وذهب كل منهم باتجاه إعتقده آمناً في حينه أي على غير هدى، وعاود البعض سلوك تبديل قيافته العسكرية بهدف التنقل والوصول الى بيته وسط وجنوب البلاد.
ان السبب وان عزي الى ضعف القيادة والسيطرة وعدم أهلية القائد وفساده والتعامل غير الصحيح مع الأهالي وضعف الضبط وقلة المعنويات فإنها جميعاً عوامل أسهمت في تصدع النظام الصارم الذي لم يصمد بمواجهة قوة الصدمة التي كونها هجوم العدو الارهابي على الرغم من التفوق الكبير الذي كانت قيادة العمليات تحققه على العدو، إذ قدّر أن مجموع قواتها في الموصل قد بلغت ما يقارب الستين ألف مقاتل مع عدة كتائب مدفعية ووحدات مدرعة وآلية وطيران جيش في حين قدرت المصادر أن العدو الهاجم لا يزيد عن (2000) ارهابي وقدرته مصادر أخرى بما لا يزيد عن عدة مئات مع أفراد لخلايا نائمة قد لا يزيدون على هذا العدد بأي حال من الأحوال.

القدوة

ان الطفل الذكر ومنذ إدراكه طبيعة وواقع عيشه في هذه الدنيا ينظر الى والده كقدوة، يحاول تقليده في كافة أنواع السلوك الذي يمكن تقليدها، والطفلة الأنثى من جانبها تنظر كذلك الى والدتها قدوة لها، تسعى الى تقليدها رغم الميل في حبها وعشقا لوالدها، وعندما يكبر الانسان وتتسع مداركه فإنه وفي عيشه وسط هذه الدنيا وعلى كرتها الأرضية وفي أي مكان منها ينظر الى الغير، يحاول تقليده وقد يتخذ من البعض مثالاً له أو العكس حيث النفور والابتعاد عنه، في تفاعل نفسي اجتماعي يحاول في إطاره أن يُكَوّن في داخله صورة ايجابية لمن يريد أن يقلده أو يتبع خطاه، لما تبق له من العمر، إذ وفي طبيعة النمو الانساني وبالإضافة الى وجود الأب في غالب الأحيان قدوة رئيسية أو مركزية في حياة الأطفال، فهناك في الحياة قدوات فرعية أو لاحقة لما بعد الطفولة على وجه الخصوص فالأخ الكبير قد يكون قدوة والمعلم أيضا يمكن أن يكون قدوة، والآمر المباشر في البيئة العسكرية يمكن أن يكون كذلك قدوة، وفي نفس السياق يسعى الانسان أن يكون ناجحاً موفقاً، قدوة للغير، مثالاً في أن يقتدى به، لذا باتت القدوة مفهوماً أو سلوكاً يكبر ويتغير ويتعمم من الفرد القدوة الى الدور القدوة مثل الأب والمعلم والطبيب والآمر، والجماعة القدوة كالرفقة والصداقة ومن ثم المؤسسة مثل المؤسسة القضائية والعسكرية والتربوية وغيرها.

ان ما يهمنا هنا وفي هذا المؤلف وفي المجال العسكري هو "الآمر القدوة" والمؤسسة العسكرية القدوة، التي أرتبط عملها في كل الأزمنة بالقتال دفاعاً عن الوطن بالهجوم تحسباً أو بالدفاع عن أرض الوطن وقايةً، لذا كان عمل هذه المؤسسة العسكرية مرتبط بالوطنية والشرف والأمانة، فأصبحت على وفقها هي الأعلى مرتبةً في معايير القدوة مقارنةً مع باقي المؤسسات، وبسببها والحاجة الوطنية اليها حاولت الدول أن تبقى على صورتها قدوة. لذا ومن النادر على سبيل المثال أن تقحم الدول مؤسساتها العسكرية في أعمال الأمن الداخلي، ومتى ما أُقحمت تحت بند الضرورة، فان اقحامها لابد وأن يكون محدوداً أي محدداً بالزمان والمهام، واذا ما استمر فترة أطول فان صورة المؤسسة كقدوة ستختل أو تتشوه، فالجندي الموجود في السيطرة العسكرية مثلاً قد يضطر الى تفتيش سيارة عابرة شك بها أو بركابها، وقد يتأثر بالغريزة فينظر الى شابة تأخذ مكاناً لها في هذه السيارة، نظرة تفسر غير طبيعية، وقد يتحارش بها لمساً عن قصد، فيقدم صورة سلبية تتضخم في عقل البنت والركاب القريبين منها، يتكلمون بها في أماكنهم لتتضخم أكثر في عقول المتعاطفين والمحتجين وغير الراضين، وتتعمم أو تنتقل صورتها المشوهة من هذا الجندي في السيطرة الى الوحدة ثم المؤسسة العسكرية برمتها، لأن وفي مجال الاحتكاك مع السكان في قتال المدن سوف لن تكون هذه الصورة هي الوحيدة التي يمكن الرد عليها والتعامل باتجاه حصر تأثيراتها السلبية بأقل ما يمكن.

ثم ان الجندي إنسان وعلى الرغم من تدريبه الراقي فانه في الحرب وبسبب الارهاق وتكرار الواجبات وضغوط الامن يمكن أن يتعب ويغضب ويخطأ، وكل هذا السلوك سيكون مكشوفاً أمام الناس المعنية أو المشاركة في المحافظة على وضعيته ومؤسسته قدوة، وبالتالي وعند تكرار الخطأ وتضخيمه في عقول المتلقين ستقل مشاركتهم في انتاج صورة القدوة له

كعسكري ومن ثم لمؤسسته أو المحافظة على وجودها صورة عقلية رمزية، وقد يحصل الأسوأ حيث المشاركة السلبية في تشويه الصورة. وهذا أمر حاصل غالباً في القتال الداخلي الذي يكون طرفه بعض المواطنين من أهل البلاد وطرفه الثاني منتسبي مؤسستهم العسكرية، لكن المسألة يمكن أن تكون مختلفة نسبياً في الحرب التي طرفها عدو خارجي، إذ أن الأخطاء من هذا النوع "ارهاصات الاحتكاك مع المواطنين" وان كان احتمال وجودها أمر وارد عند الاحتكاك مع السكان المحليين لكن ظهورها الانفعالي على مستوى العلن محدود، وإن ظهرت فإنها تتعلق بالعدو الذي لا يتفاعل معه ابن البلد وبما يخدش صورة القدوة، وان يمكن أن يكون التفاعل في عصرنا الحالي اعلامياً، فوسائل التواصل الاجتماعي التي تهيمن على السلوك الجمعي العالمي يمكن أن تنقل العديد من الأخطاء والتجاوزات التي يتأثر بها البعض من أبناء البلد مما ينعكس سلباً على مواقفهم من مؤسساتهم العسكرية والأمنية، وهناك اليوم منظمات دولية تتابع وتكتب وتنتقد وتعمم وبات لها تأثير أيضاً، على هذا وضعت الجيوش قواعد اشتباك صارمة للسلوك في الموقف القتالي والتعامل مع العدو والسكان المحليين بما يضمن سلوكاً صحيحاً جهد الامكان، لا يخل بالعلاقة النفسية المفترضة بين المواطن ومؤسسته ولا بالنظرة اليها قدوة[39].

وهنا تجدر الاشارة الى أن صورة القدوة التي يمتلكها الجيش العراقي منذ تأسيسه في السادس من كانون الثاني للعام ١٩٢١، لم يصيبها التصدع مثلما أصابها في الفترة التي بات فيها مشاركاً رئيسياً في أعمال الأمن الداخلي بداية إعادة تشكيله ما بعد العام ٢٠٠٣ اذ تعرض بسبب الاحتكاك بالمدنيين وسعة التعامل مع مشكلاتهم في المحلة والشارع وداخل البيوت والساحات الى نقد كبير وان كان بعضه مقصوداً ومفبركاً لأغراض الحرب النفسية، لكنه كان نقداً من السعة والدقة في الاستهداف قدراً أثّر سلباً على صورة القدوة التي كان قد امتلكها طوال فترة وجوده جيشاً صورته حامياً للوطن، محسوباً من خيرة جيوش المنطقة، باستثناء فترة استخدامه لقمع الانتفاضة في العام ١٩٩١ التي احتك فيها بقساوة مع المدنيين وسط وجنوب العراق، واضطر الى تنفيذ أوامر قيادته العامة حرفياً في القتل على الاشتباه، وتدمير بيوت وقصف مراقد دينية وتجريف مزارع وبساتين، أسهمت في تكوين صور سلبية أخلت برمزية القدوة، زادها الحصار تشويهاً، إذ:

- باتت قيافة الجندي متردية بشكل معيب في بعض الأحيان.
- يقف في مرآب السيارات يستجدي ركوباً مجانياً الى وحدته في مدينة أخرى أو وجبة طعام وهو في طريق الذهاب والعودة.
- تغير سلوك البعض من الضباط حيث التوجه لاستغلال الجندي الميسور ومشاركته في أعمال حرة خارج الثكنة.

---

[39] . ان حروب اليوم باتت مختلفة نسبيا في جوانب اظهار الصورة الحقيقية في ميدان المعركة، ففي السابق كانت الوحدات والجيوش تخفي أخطائها عمداً خشية تأثيرها على نفوس المدنيين من بلدها، وكذلك على العدو حيث يمكن استغلالها في الحرب النفسية، أما اليوم وبعد امتلاك الهواتف الذكية من غالبية المنتسبين والتمتع نفسياً في تصوير أنفسهم وتوثيق أفعالهم بينها الأعمال القتالية والتعامل مع العدوفي مناطق قتال مأهولة بالسكان، وفي مجالها نُشرت آلاف الفديوات مثلًا في معارك الجيش العراقي في الرمادي والفلوجة وصلاح الدين والموصل، يصور أصحابها قتل أو تعذيب أو الاستهانة بالعدو أو حتى بمشتبهين بطريقة عدتها المنظمات الدولية وحشية وتجاوز على حقوق الانسان، وأسهمت في اثارة مشاعر الضد من المؤسسة العسكرية والأمنية لمواطني تلك المناطق.

- منح الاجازات لقاء ثمن وأخذ الرشوات من الجنود وضباط الصف بغية التستر على عدم حضورهم الى الدوام.
وغيرها أعمال حفرت عميقاً في رمزية القدوة ووسعت من تشويه الصورة.
زادها تشوهاً سلوك الغياب والهروب من الوحدات خلال التمهيد لحرب الخليج الثانية "مع الحلفاء" التي تسجل فيها ولأول مرة في تاريخ الجيش العراقي هروباً للضباط واسع الحدوث، ومن ثم تسرباً من ساحة القتال وتبعثراً للوحدات والمنتسبين خلال عملية الانسحاب المشهورة من الكويت ليلة ٢٥/٢٦ شباط ١٩٩١، وتكرار نفس السلوك وبسعة أكثر في حرب الخليج الثالثة "اسقاط صدام حسين" التي تعد الضربة الأقسى لرمزية القدوة التي استطاع الجيش ورغم كثر حروبه وتعدد استخداماته لأغراض الأمن الداخلي المحافظة عليها بقدر مقبول نسبياً.
إن القدوة التي نقصدها هنا هي منزلة المؤسسة العسكرية التي تدفع المجتمع لمؤازرتها ودعمها في ظروف الحرب، وتدفع منتسبيها من جهة أخرى الى الامتثال الى أوامرها "ضبطاً" وتأدية مهامها كما هو مخطط له ومطلوب. ومع هذا فهناك قدوات فرعية ضمن هذه المنزلة الكلية وعلى المؤسسة إكبارها في نفوس المنتسبين وهي الآمر القدوة:
فآمر الحضيرة مثلاً يمكن أن يكون قدوة لأفراد حضيرته، ولابد أن يكون هكذا.
وكذلك الحال بالنسبة الى آمر الفصيل والسرية والفوج والكتيبة.
قائد الفرقة قدوة لكل منتسبي فرقته.
رئيس أركان الجيش قدوة لعموم المنتسبين، ولابد أن يكون هكذا سلوكاً وأداءً وانضباطاً، على هذا يمكن القول:
١. ان رمزية القدوة المؤسسية مسؤولية تراتبية من أعلى مرتبة في المؤسسة العسكرية الى آخر جندي في ترتيبها، الذي يفترض أن يكون سلوكه هو أيضا قدوة لغيره من المقاتلين في الوحدات الأخرى، وبين الناس المدنيين:
- فقيام ضابط بالتجاوز شتماً لجنوده على سبيل المثال اسهام في تشويه صورة القدوة.
- لجوء جندي الى قتل مدني بدافع طائفي تشويه أيضاً للصورة.
- عدم محاسبة قائد فرقة لمنتسب في أحد وحدات قيادته كان قد خالف الأوامر بسبب انتسابه الى نفس العشيرة أو العائلة تشويه كذلك للصورة.
وغيرها من أنواع السلوك التي يمكن أن تحصل في سياقات العمل العسكري، وتنفيذ المهام القتالية والأمنية.
٢. صورة القدوة للمؤسسة العسكرية تتكون أو تتشكل، وبالإضافة الى ما مذكور أي طبيعة العمل الوطني ومقادير الخطر في مجاله وكما ورد، فإنها تتكون أيضاً أو يساهم في تكوينها أيضاً ذلك السلوك الجزئي، الفردي والجماعي للمنتسبين أنفسهم مثل:
- الأداء الجماعي، ذلك السلوك الذي يجلب النظر، ويثير التقدير والاعجاب مثل الاستعراضات العسكرية.
- القيافة والامتثال الى الأوامر والعلاقة مع الما فوق والتعاون فيما بين المنتسبين لإنجاز مهمة ما.
وغيرها اعمال تعطي انطباعات ايجابية أو سلبية تسهم في تشكيل الصورة الكلية أو الرمزية للقدوة.

٣. ان الجيوش وكلما أنتجت جنوداً قدوة في سلوكهم العام وأدائهم القتالي، كلما أسهمت في تعزيز واكبار رمزية القدوة للمؤسسة العسكرية اذ وفي المحصلة سيكون الجندي قدوة أو نموذجاً لذاته وللآخرين معه في نفس الجماعة "الحضيرة- الفصيل صعوداً" ... سلوكٌ يزيد فخر المنتسبين بالمؤسسة وبالانتماء اليها، ويدفعهم بالتالي الى الامتثال الى أوامرها أي ضبط عالٍ.
ان فخر المنتسبين بجيشهم ومؤسستهم العسكرية بطبيعته يمكن أن يمتد منهم الى المواطنين تتشكل بالمحصلة رمزية تدفعهم الى الوقوف مع المؤسسة ودعمها والتطوع في صفوفها في أوقات الحرب والسلم.
هذا ولكي يكون المنتسبون جميعاً قدوة فرعية، تبني قدوة مؤسسية لابد وأن يتصفوا بجملة صفات بينها:
آ. اتزان في الشخصية، واحترام في النفس للذات المهنية العسكرية، أي يعلي من شأنها، ولا يقبل الاقلال من قدرها.
ب. يتمتع بصحة نفسية وبدنية جيدة، وقدرة عقلية على إدراك واستيعاب الحياة العسكرية ومعارفها العلمية والمهنية وقبول خطورة مهامها.
ج. تحمل المسؤولية القيادية التراتبية والتكافل مع الآخرين في تحمل المسؤولية الاعتبارية العامة.
د. امتلاك قدر من الميل الى التحدي والمبادرة وابتعاد عن اللامبالاة والاتكالية.
هـ. قدرة بدنية ونفسية عالية على تحمل الضغوط والمخاطر، وصبر جيد، وشجاعة عالية المستوى.
و. ميل الى التضحية وتقديم العون واسناد الغير وأقل ما يمكن من الأنانية الفردية.
ز. الأنا الجمعية في داخله أكبر من الأنا الذاتية الفردية.
ح. تفاعل اجتماعي مع الآخرين وتقبلهم.
إن الخصائص المذكورة معظمها يأتي مع المقاتل قبل التحاقه بالمؤسسة العسكرية، ويمكن الكشف عن وجودها بسهولة من خلال الاختبارات والمقاييس والمقابلات النفسية التخصصية، لكن حجم أو سعة البعض منها لم يكن كافياً للتطبع على الحياة العسكرية وتحمل ضغوطها والمحافظة على رمزيتها قدوةً، على هذا يمكن أن تدخل مفردات هذه الخصائص جميعها في مناهج التدريب التقليدية، وباقي المناهج الأخرى التي تخصص لأغراض الضبط والمعنويات، لأنها برامج تساعد على:
- تعزيز بعض الخصائص وايجاد أخرى، وبما يتلاءم مع حاجة المؤسسة الى الضبط وابقاء رمزية القدوة.
- يتعرف المتدرب على خصائصه بوضوح وعلى طبيعة المؤسسة العسكرية وحاجتها الفعلية لإبقاء صورتها الرمزية ناصعة.

الفصل الثامن
الضبط وضغوط البيئة العسكرية

الضغوط الفاعلة

اذا ما كانت للبيئة العسكرية خصوصياتها التي ورد ذكر المهم منها ذو الصلة بموضوع الضبط، فإن لها ضغوطها المختلفة نسبياً عن باقي البيئات التي تؤثر وتتأثر بالموضوع ذاته أي الضبط، والضغوط مفهوم نفسي يقصد به استجابة جسم الانسان للدفاع بالضد من مثير طارئ أو حالة طارئة، يفسره تهديداً، يدفعه في الغالب الى التجنب[40].

ففي الحياة العامة على سبيل المثال يُفسر الانسان قدوم دراجة نارية وسيارة مسرعة وغيرهما متوجهة صوبه تهديداً، يشكل ضغطاً، يستجيب اليه في الحالات الطبيعية بالتنحي جانباً، أما اذا كان الانسان هنا في هذا الموقف ضعيفاً، خائفاً، مرتبكاً في الأصل فقد تكون استجابته مرتبكة، باهتة وفاترة، كأن يبقى في مكانه حتى قدوم السيارة لتدهسه من دون أن يحرك ساكناً وقد يخرج من المكان مذعوراً.

وفي المعركة يجري الأمر على المنوال أو السياق ذاته، فعندما تتقدم جماعة ارهابية من نقطة سيطرة، سيفسر عقل الحارس أو المجموعة الموجودة في النقطة هذا التقدم خطراً، يستجيبون اليه دفاعاً بعدة اتجاهات تبعاً لخصائصهم وتدريبهم وانضباطهم ومشاعرهم الوطنية:

فقد يقبل بعضهم البقاء في النقطة، يدافعون عنها على الرغم من أن تفسيرهم للخطر حداً يصل الى مستوى الاعتقاد بالموت باحتمالات عالية، لأن الارهابي القادم انتحاري وان السيارة القادمة مفخخة "وهذا هو السلوك العسكري المناسب والصحيح، الذي تم التدريب عليه" وقد شهدت ظروف مقاتلة الارهاب طوال السنوات التي أعقبت ظهور تنظيم القاعدة وداعش الارهابيتين في العراق وسورية أن جنوداً أو شرطة في نقاط تفتيش وسيطرة قد اشتبكوا مع ارهابيين يحملون أحزمة ناسفة، وآخرين في سيارات مفخخة على الرغم من علمهم أنها أحزمة وسيارات، يعني الاشتباك بها تفجيرها وموتهم حتماً، وقد أقبلوا على الاشتباك ومات منهم الكثير ونجح البعض منهم في قتل العدو قبل التفجير، وكتب له النجاة.

وقد يقبل أو يفضل البعض الموت مجازفة لحفظ أرواح الآخرين، إذ شهدت أيام الحرب بالضد من الارهاب أيضا قيام عسكريين من الجيش والشرطة باحتضان إرهابيين يرتدون أحزمة ناسفة، فدفعوا حياتهم أثر التفجير الذي سارع الى إحداثه الارهابي مرغماً في غير المكان الذي كان يستهدفه في الأصل.

وقد يتغاضى العسكري وقد يتهاون وربما يخون البعض القليل واجبه، إذ وفي السياق المذكور شهدت بعض نقاط التفتيش منتسبين يمررون عجلة مفخخة أو دراجة نارية مفخخة أو شخص بحزام ناسف حال معرفتهم به رغبة منهم بتفادي التفجير، وان حصل على غيرهم في سيطرة أخرى أو مكان آخر.

وقد يترك بعضهم النقطة، ويهربون بعدة اتجاهات.

وقد يكون من بينهم آخرين يجرون سريعاً الى أسلحتهم، ليستخدموها سبيلاً الى التعامل مع الموقف، وهكذا.

انه سلوك يتفاوت في أدائه المنتسبون تبعاً الى شدة الضغط الموجود في الموقف ومقدار الطاقة النفسية المتاحة وعوامل الضبط والمشاعر الوطنية.

---

13. سلسلة تشخيص الاضطرابات النفسية، اضطرابات الضغوط التالية للصدمة (ب، ت) مكتب الانماء الاجتماعي، الديوان الأميري، الكويت.

ان المشكلة الأساسية الضارة في الضغوط هي الاستمرار في وجودها، اذ أن الجسم الانساني وإذا ما استمر في حالة الدفاع لفترة زمنية طويلة، كما هو جار في بعض المعارك أثناء الحروب، سُينهك الجسم، وكأنه يستنزف قدراته الدفاعية وطاقته النفسية، فيصاب:
بأعراض جسمية مثل ارتفاع ضغط الدم والسكري...الخ.
أو نفسية مثل اضطرابات ما بعد الضغوط الصدمية والقلق والاكتئاب والاضطرابات النفس جسمية...الخ."
ان في الحروب، واثناء المعارك كما في الحياة المدنية، باتت الضغوط النفسية تحتل مكانة بارزة في أدبيات وبحوث علم النفس والطب النفسي، وباتت في أعلى القائمة الموضوعة لمسببات الاضطرابات العضوية والنفسية في العصر الحالي[41].
أما الأسباب التي تكون وراء الضغوط، وسبل الاستجابة لها بطرق مختلفة "اضطراباً أو تجنباً أو مواجهة...الخ" فإنها تختلف من شخص لآخر ومن جماعة لأخرى، إذ أن المشكلة ليست في خطورة المواقف القتالية الفعلية بقدر ما هي موجودة في:
١. التفسير الآتي من هذا المقاتل وذاك لمقدار الخطورة الافتراضي.
٢. الاستعداد النفسي لهذا المقاتل وذاك الآخر بتقبل حصول هذا الخطر، أو رفضه بقوة.
٣. مقدار الطاقة النفسية المتاحة للتعامل معه.
وبضوء هذا نجد، وفي مواقف التعامل مع ارهابي انتحاري وصل المكان أو الموضع العسكري:
أن الجندي(س) حضن الارهابي، وقَبِلَ الموت معه حماية للآخرين.
الجندي (ص) هرب وتركه في المكان حتى حصول الانفجار، ومات من شدة العصف مع العشرات وربما المئات من الموجودين في القرب منه.
الجندي الثالث، بادر من نفسه بتصويب بندقيته سريعاً، ليردي الارهابي قتيلاً قبل التفجير.
ان الاختلاف في الاستجابة للمواقف الضاغطة، مسألة انسانية يختلف فيها الواحد عن الآخر، لكن القتال في المعارك لا يعتمد الفردية، ولا ردود الفعل الاستجابية التقديرية، انه أداء جماعي أي سلوك يشترك فيه جميع أفراد الجماعة "الوحدة /الوحدة الفرعية "على وفق ضوابط يتم التدريب عليها منذ السلم، ويجري تكرار التدريب والممارسة حتى يصل أفراد المجموعة الى مستوى من الأداء المتقارب جماعياً، وباستجابات متقاربة يفترض أن تتم دون الحاجة الى التفكير كثيراً في مجالها أو استنزاف الطاقة النفسية لتنفيذها، وفي التدريب كلما بلغ أداء المنتسبين الى هذا المستوى الأقرب الى الاستجابة الطوعية، كما مبين في أعلاه يكون الأداء الجماعي صحيحاً ومفيداً، ويكون عموم المنتسبين بعيدين عن الاصابة بالاضطرابات النفسية التي يسببها الموقف الضاغط وباحتمالات أكثر[42].
ان الضغوط في البيئة العسكرية متعددة، الأكثر شيوعاً وفاعلية في التأثير على المنتسبين في مجالها تأتي من عوامل عدة سيتم مناقشتها تحت العناوين الآتية:
١. الخشية من الموت.
٢. الشعور بالذنب.

---

41 . لويس كامل مليكة (١٩٨٠) علم النفس الكلينيكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
42 . مديرية البحوث والخدمات النفسية (1988)العمل النفسي الميداني، وزارة الدفاع، بغداد.

٣. العزلة.
٤. التحسس الوجداني.

الخشية من الموت

ان الحرب في حد ذاتها صدام مسلح، تستخدم في معاركها كل وسائل التدمير والأسلحة والمعدات المتاحة بقصد فرض الارادة بالقوة، وعموماً فان التنفيذ اللازم لأوامر القتال خلال بعض المعارك الشديدة على وجه الخصوص فيه قدر كبير من المجازفة بالحياة، الذي يفضي الايغال في التفكير بها الى احتمالات تكوين نوع من القلق الناجم عن الخشية من الموت أو الاصابة، يمكن أن تفضي مستوياته الشديدة الى واحدة وأكثر من الاستجابات الآتية:

١. التأثير سلباً على المعنويات والحالة النفسية لدى البعض من المقاتلين.

٢. التلكؤ بتنفيذ أوامر القتال حيث السعي الى الانسحاب من المواجهة بحجج ارادية واضحة وأحياناً بشكل لا ارادي حيث الاصابة بأحد الاصابات النفسية. وهنا تجدر الاشارة الى أن العسكري في الحرب يواجه مواقف قتال بعضها خطير فعلاً، وبعضها الآخر طبيعي، يعتقده، أي المقاتل ولأسباب نفسية خطير جداً.

ان الخطر تهديد للحياة يستجاب له في الميدان باستجابات مختلفة تبعاً لحالة المعنيين النفسية، ومستويات تدريبهم وما يمتلكونه من خزين للطاقة النفسية، وعلى هذا الأساس نرى أن:

١. قسم من المقاتلين يستمرون في تنفيذ أوامر القتال، وبدافعية عالية على الرغم من استشهاد واصابة زملائهم القريبين.

٢. قسم آخر قد يبدو عليهم التردد والخوف ولمجرد تدخل الآمر المباشر أو الزميل القريب منهم في الحضيرة والفصيل يستعيدون وعيهم ويستمرون في القتال بشكل طبيعي.

٣. يتوقف البعض الآخر عن القتال ليفتشوا عن مكان للاختباء.

٤. قد يهرب اخرون وأحياناً يتسربون من مواقعهم القتالية خلال واحدة من صفحات القتال.

٥. وقسم آخر وهم القلة ومن جميع الجيوش، ونتيجة الخوف الشديد من الموت أو الاصابة وكذا الخوف من تبعات التوقف عن القتال والهروب من مواجهة العدو يقوم الجهاز النفسي لهم بحل الصراع الناتج عن هذه الانفعالات حلاً توافقياً، إذ يفقد العسكري المقاتل السيطرة على حاله، فيقال عنه "قد جن"، وقد يفقد آخر النظر أو النطق أو القدرة على الحركة، فيتعاطف مع حاله الآخرون دون أن يعتبوا عليه أو يلومونه ويحسبون أن اصابته هذه ناتجة عن القتال في حين هي في الواقع اصابة وان بدت عضوية لكنها نفسية ناتجة عن الخشية والخوف في غالب الأحيان.

الشعور بالذنب

إن الحرب وضمان الانجاز الأحسن في معاركها لا يقتصر فقط على حماية الذات من الموت قتلاً على يد العدو، بل وكذلك السعي الى قتل العدو سبيلاً الى كسب تحقيقه أي الحياة في غالب الأحيان، حتى يقال الى الجندي في مراحل التدريب أنك في موقف الصدام المباشر إن لم تبادر في قتل عدوك سيقتلك، وعملية القتل في المواجهة القريبة على وجه الخصوص، وهي وعلى الرغم من ندرة حصولها في الحرب الحديثة حيث القتل عن بعد في الغالب، فإنها تعد عملية ضاغطة نفسياً، إذ ليس كل العسكريين يكونون قادرين على تنفيذها واستيعاب حصولها دون أثر نفسي قد يمتد الى تأنيب الضمير، وبالتالي يمكن أن يشكل حصولها ضغطاً على بعض المنفذين، يُفسر في الموقف الآني خللاً ينتقل الى المؤسسة التي يفترض بها أن تعمل لتقليل هذا الضغط الحاصل على المقاتل نفسياً، عن طريق الضبط حيث التوجه الى تدريبه واكسابه عادة قتل العدو دون الحاجة الى التفكير بالنتائج والتفاصيل، علماً أن تأنيب الضمير، شعور سلبي يحصل عند الناس العاديين وفي مواقف الحياة كافة، ويحصل عند المقاتلين في سوح القتال وخاصة عند حصول انكسار معنوي، في مجاله يبدأ المعني بلوم الذات على عمل ارتكبه، ويتمنى لو أنه لم يرتكبه، وقد يفضي هذا اللوم في حالاته الشديدة الى استجابات غير توافقية أي غير صحيحة تكون في العادة:

أما بدنية مثل قيام المقاتل بإيذاء نفسه بسلاحه أو بأية وسيلة متوفرة في الموقف.

أو نفسية معنوية وذلك بإرهاق العقل بجملة أفكار تتكرر وكأنها تتسلط على العقل قسرياً.

إن لوم الذات وما يسمى في الدارج تأنيب الضمير القوي حالة نفسية تترك اثاراً سلبية على الأداء القتالي والمعنويات تتمحور حول الآتي:

١. انحسار جل التفكير بالموضوع الذي نتج عنه اللوم كأن يكون في موضوعنا هو القتل، وإذا ما حصل هذا فسيكون على حساب جوانب التفكير الاخرى ذات الصلة بالقتال الذي يحتاج الى التفكير أيضاً.

٢. التعامل مع الموقف القتالي بسلوك مختلف لا ينسجم والحاجة الفعلية للقتال، فالقتال في الموقف الذي أصيب فيه العسكري بتأنيب الضمير قد يكون محتاج في الأصل تنفيذاً سريعاً لواحد وربما أكثر من الأوامر ذات الصلة بينها على سبيل المثال:

- الرد على نيران العدو.
- الشروع بالتحرك والانتقال من مكان الى آخر.
- تقديم الاسناد الى باقي المقاتلين في الحضيرة.

وفي حالته نجد أن المصاب بتأنيب الضمير القوي أو المرضي أشبه بالمشلول، جل همه أن يجد اجابات لما يدور في عقله وهو في الواقع لم يجدها أبداً.

٣. الانحراف عن الغاية الاساسية للقتال وهي التفوق على العدو بإزاحته أو قتله أو يمكن التعبير عنه بتشوه الرؤية الحقيقية للموقف القتالي.

٤. التعود على لوم الذات "جلدها " في المواقف اللاحقة أو الادمان عليها وبمستوى اذا ما زاد عدد التكرارات في مجاله، سيؤدي الى التقليل من قدرة المعني على تنفيذ الأوامر بالشكل الصحيح.

٥. اضطراب الثقة بالنفس، مما قد يكوّن نوعاً من العداوة بين المقاتل وذاته، يزيد من حدة المشكلة ويضاعفها.

العزلة

ان أجواء المعركة التقليدية وتطورات القتال في ساحتها، قد تتسبب في أن ينعزل فصيل عن سريته، وتنعزل سرية عن فوجها، وقد تؤدي الى أن ينقطع الاتصال والتواصل مع وحدة بأكملها، ويمكن أن يستمر القتال في معركة ما لأيام وربما لأسابيع أو حتى أشهر يكون فيها العسكري في شبه عزلة عن أهله وأصدقائه، وكذلك عن اشباع بعض الحاجات النفسية والعضوية الضرورية لفترة طويلة.

هذا وان حروب اليوم مختلفة نسبياً عن حروب الأمس لما يتعلق بالعزلة بسبب تيسر وسائل التواصل الاجتماعي والتقنيات المتطورة التي وفرت ظروف اتصال بالصوت والصورة تكاد تكون مجانية، فقلصت من أثر العزل نفسياً بالمقارنة مع حروب الأمس التي كان العسكري ينقطع فيها عن أهله وأصدقائه طوال فترة البقاء في مواضعه القتالية، وفي الحروب القديمة مثلاً كما في الحرب العالمية الأولى وأقل منها بقليل الحرب العالمية الثانية عندما كان العسكري يلتحق بوحدته في ساحة المعركة، ولا يعود منها الا بانتهاء الحرب سالماً أو يدفن في سوحها بمقابر خاصة، كما ان بعض الجيوش يمكن أن تقاتل خارج أراض دولها، بعيداً لمسافات تمتد آلاف الكيلومترات، وعلى هذا تعمل بنظام البقاء دون التمتع بالإجازة لعدة أشهر، وأحيانا تعمل بنظام البقاء لمرة واحدة ولفترة زمنية محددة قد تصل الى سنة كاملة، يبقى فيها العسكري متواجداً، ليعود منها بعد انقضاء الوقت وبشكل نهائي.

ان حروب اليوم قد اختلفت وقد استفاد في حالها من وسائل الاتصال الحديثة والانترنت على وجه الخصوص، لتقريب المسافات مع الأهل والمعارف التي تقلل بطبيعتها من شكل العزلة وقد تحورها من القطع التام جسداً ونفساً الى ابتعاد نفسي مجزأ ومحدود، فالجندي الأمريكي أو الروسي الموجود في الشرق قادر بواسطة هاتفه النقال وجهاز الحاسوب الاتصال الآن بالصورة والصوت مع من يريد، يتكلم معه وبالقدر الذي يريد عندما تسمح ظروف القتال، وهو باتصاله هذا يسمع أخبار عائلته واصدقائه ويتواصل معهم ويلهو واياهم، عند هذا الحد يمكن القول أن شكل العزل، وكذلك الاحساس بوقعه نفسياً قد تغير، ومع هذا فإن البقاء في أجواء المعركة بشكل مستمر لعدة شهور وأكثر يمكن أن يشكل للبعض نوعاً من العزل عن عالم يحتاجون الى عدم مغادرته لفترة طويلة من الزمن، كما ان احساس الجندي في حروب ما قبل العالمية الثانية بوقع العزل من غياب عن البيئة الاجتماعية عدة سنوات ربما يكون ناتجه مقارب من حيث الاحساس والشعور بألم الابتعاد لعدة أشهر في الوقت الراهن[43].

ان العزلة المقصودة هنا هي الشعور المؤلم الناتج عن الغياب وأحياناً الانقطاع عن المجتمع الأصلي، وهي عزلة في البيئة العسكرية لا إرادية فرضتها ظروف القتال والتمارين والتدريب الاجمالي أحياناً، يتطلب التعامل مع حصولها لتقليل آثارها جهد الامكان قدراً من الضبط العسكري للتحكم في السيطرة على انفعالاتها المحتملة.

---

[43] . ان وجود الهواتف النقالة عند الجنود خلال المعارك غير مسموح به في كثير من الجيوش، وثبت وجوده عند منتسبي الجيش العراقي ابان حرب مكافحة الارهاب أنه ذا تأثير سلبي أحياناً إذ يصور البعض من المنتسبين مواقف القتال ويبثونها، على الرغم من كون مادة بعضها خرقاً أمنياً أو معنوياً وبعضها الآخر يستغل سلباً من قبل الحرب النفسية المعادية، كما يكون المتصل تحت التأثير العاطفي للعائلة طوال وقت الاتصال وما بعدها وقد يتعرض الى الارتباك من كثر الاتصال به من عائلته طوال فترة القتال وأثناء تنفيذ المهام.

وهنا تجدر الاشارة الى أنه قد ورد في أدبيات علم النفس اصطلاح عما يمكن تسميته بالعزلة النفسية وهي في الواقع نوعاً من الاضطراب النفسي يصيب البعض من المقاتلين حيث الشعور بالعزلة وشبه الانفصال عن المجموعة، وان تواجدوا داخلها، وهي لا تمثل ثقلٍ في التأثير على توصيف العزلة الذي نقصده ضغطاً من الضغوط الموجودة في البيئة العسكرية، نضعها هنا بين متناول القارئ للاستفادة من معطياتها للتعامل مع احتمالات حصولها.
هذا ويقصد بهذا النوع من العزلة هي الغياب التام أو شبه التام للتواصل مع المجتمع "الجماعة التي يتواجد فيها العسكري المعني"، وهنا غالباً ما تكون هذه العزلة لا إرادية وهي غير العزلة التي يتعمد الشخص وهو واع بحدوثها والنتائج المترتبة عن الحدوث، وهي كما ورد اضطراب في السلوك يمكن أن يظهر على جميع الرتب العسكرية ولكافة الفئات العمرية ويمكن أن ينشأ في حالات الخوف الشديد، والتقدير المنخفض للذات، كذلك عند الاصابة بالاكتئاب الحاد.
ان المشكلة في حال الشعور بالعزلة النفسية هي احتمالات استمرارها عند الفرد لفترة طويلة بحيث تقلل من تفاعله مع الجماعة، وبالتالي التأثير على روح الجماعة وعلى مستوى انتاج الفعل الجماعي، إذ وفي المعتاد يصعب على المصابين بهذا الاضطراب اللجوء الى زميل لهم أو الى آمرهم لحل مشكلة يواجهونها أو أمر يودون الاستفسار عنه لأنهم في العادة لا يثقون بأحد ويتجهون للابتعاد عن أي أحد وربما يشكُونَ به وبموقفه منهم، ومن علامات هذه العزلة النفسية:
- السعي الى البقاء في المكان الذي يتواجد فيه المعني كأن يكون قاعة المنام والتحجج في صعوبة الخروج.
- في الحرب محاولة التقوقع حول الذات وعدم الاختلاط بالآخرين، وعدم الاتصال بأحد من المعارف أو حتى الأصدقاء والأقارب، وان حتم الموقف الاتصال فانه سيكون عابراً وقصيراً أي موجزاً الى حد كبير.
ان هذا النوع من الاضطراب يمكن كشفه مبكراً، لذا تعمد الجيوش الحديثة الى فحص المتقدمين الى التطوع في صفوفها جنوداً وضباطاً وضباط صف، فحصاً نفسياً يكشف من بين أمور أخرى هذا الاضطراب الذي يمكن أن ينمو ويتسع في السلوك حتى وان بذل المعني جهوداً حثيثة للاندماج والتواصل مع مجموعته، ويمكن أن ينتج هذا السلوك أي العزلة النفسية نتيجة الاحباط الشديد في القتال، أي من خسارة معركة، خسارة قوية تشعر البعض بالإحباط فيصاب قسم من الذين لديهم مشاعر عزلة بسيطة أو استعداد نفسي للعزلة بهذا النوع من الاضطراب، وفي حالته يجدون أنفسهم بعيدين عن غيرهم وان تواجدوا معهم في نفس المكان.
ان هذا النوع من الاضطراب لا ينفع معه التدريب على الضبط، لأن الفرد المضطرب يكون غير قادر على التقدير والتفسير، كما يشكل وجوده في الأصل حائلاً دون اكتساب الضبط بالشكل الصحيح، وهو وان تعلم الامتثال الى الاوامر الصادرة سيكون غير قادر على إدراك التبعات المترتبة على عدم الامتثال لها، وقد يجد صعوبة في الامتثال وسط الجماعة التي تسعى الى تنفيذ الأمر جماعياً[44].

[44] . Social Isolation Among Seniors: An Emerging Issue. British Columbia Ministry of Health. 2004.

التحسس الوجداني

التحسس، نوع من الانفعال العاطفي للذات الانسانية "النفس" لمشاعر متناقضة داخل الشخص في موقف محدد مثل الحب والكراهية والكرم والبخل والتقبل والنبذ والصدق والكذب، وهو أن يقتنع الفرد بالشيء وعكسه في آن معاً، سواء كان فعلاً أو قولاً، سلوك تظهر على معالمه الإيجابية والسلبية.

إنه تناقض لو عدنا به الى المنتسب في المؤسسة العسكرية نراه في المجمل ظاهرة نفسيه لها بُعد ضبطي اجتماعي يعتمد بدرجة كبيرة على مدى اندماجه مع داخله النفسي أو ذاته المنطلقة مع سلوكياته وتتضح جلية في نتاج مواقفه من خلال القناعات النفسية التي في داخله.

ان بعض الواجبات القتالية وفي كثير من المعارك يمكن أن ينجم عنها مواقف فيها قدر من التناقض "التحسس الوجداني" التي تتطلب من العسكري المقاتل التعامل معها بالتزام وجدٍ عاليين، وكذلك باستجابة طوعية دون حساب التبعات التي تلي ودون الدخول في موقف صراع ناجم عن عدم القدرة على الحسم بالاتجاه المطلوب عسكرياً، إذا ما تم الأخذ في الاعتبار أن هناك في القتال العديد من المواقف التي يمكن أن تكوّن تناقضات وجدانية كما في الأمثلة الآتية:

١. يطلب من مقاتل منفعل أن يخلي أسيراً من جنود العدو الى وحدة الميدان الطبية وهو في حال نزف دم شديد في ظرف قتالي قد تسبب فيه ذاك الأسير بقتل الزميل الأقرب له في الحضيرة قبل دقائق معدودات.

٢. يفرض موقف القتال الداخلي تعاملاً عنيفاً مع متمردين على الدولة هم من المدينة ذاتها التي يرجع اليها المنتسب في الأصل، ويمكن أن تجري المعركة على أرض ضمن محيط المنطقة التي يعيشها[45].

٣. يتطلب الموقف ضرب هدف يتحصن فيه جنود من العدو ومعهم مدنيين لا علاقة لهم بالقتال.

.... الخ من الأمثلة التي تعبر عن مواقف تحصل في البيئة العسكرية، يراد من العسكري أثناء القتال أو حتى في التدريب أحياناً أن ينفذ أوامرها تنفيذاً "سلوك "يتناقض مع قناعاته ومشاعره في الأصل وقيمه ومبادئه الحياتية، وحتى الدينية التي يؤمن بها، ولنا في الحرب التي دارت مع داعش بعد احتلالها مدن رئيسية مثل الموصل وصلاح الدين وأجزاء من كركوك وديالى عام ٢٠١٤ أمثلة عن هذا الجانب القيمي الديني، اذ وفي معركة جرت في منطقة جرف الصخر، ترك جنديان وحدتهما، وعند مقابلتهما في بغداد، أفادا أنهم مرا في ظروف صعبة، وان غالبية منتسبي سريتهم قد تسربوا من أرض المعركة، وعندما استشهد آمر الفصيل تولى عريف الفصيل قيادته، وبعد اشتداد القتال وازدياد الخسائر، وتسرب المزيد، سألاه وهم في حيرة بين البقاء والتسرب:

ما العمل؟.

---

[45] . ان الأمثلة والمواقف المذكورة قد حصلت فعلاً إبان الحرب على الارهاب التي دارت على الأرض العراقية بعد العام 2005 واستمرت الى ما بعد عام ٢٠١٧ وتكرر حصولها في سوح قتال شملت أكثر من مدينة في وسط العراق وشماله وجنوبه، كان فيها بعض مقاتلي العدو من أبناء المدينة والعشيرة ذاتها.

رد عليهم سأترك الخيار لكم في أن تبقوا وتستمروا في القتال أو تغادروا مواضعكم، حتى لا أتحمل ذنب مقتلكم يوم القيامة.
انه مفهوم قيمي فيه تناقض، إذ لوكان العريف على مستوى عال من الضبط والادراك الصحيح للمعايير والقيم العسكرية لما اتجه للإجابة هكذا اجابة، ولوكان الجنديان منضبطان ومدركان للقيم والضوابط، لما تجرأ أي منهم واستفسر من العريف عن خطواتهما في ترك ساحة المعركة لأي سبب كان.
ان هذه الأمثلة وغيرها تحتم وجود نظام للتنفيذ "الضبط" يعتمد على الدقة والحزم وسعة الفهم للضوابط والقيم والمعايير العسكرية، وبأقل ما يمكن من التأثيرات الجانبية على الذات المنفذة، وهذا النظام أي الضبط لا يقتصر ظهوره وتعميمه على الاداء المهني والفني وممارسة الوظائف الاعتيادية لمنتسبي المؤسسة العسكرية، بل يتعداه الى السلوك الشخصي للعسكريين في حياتهم داخل الوحدات والمعسكرات وأثناء وجودهم خارجها في ظروف الحياة العامة أيضا، فعندما ينشب شجاراً بين شخصين مثلاً، سينظر الى العسكري الواقف قريباً منهم أنه الأولى للتدخل وفك الاشتباك، واذا ما شب حريق في بيت وكان في الموقف عسكري ستتجه الأنظار اليه أكثر من غيره للإنقاذ، وهكذا.
انه تحسس وجداني من هذا النوع ستكون آثاره أكثر على صاحبه أي العسكري في الموقف المحدد مشكلته فيما إذا زاد عن الحدود الطبيعية، أي اذا ما كان مفرطاً سيكون لتنفيذ الأمر تبعات نفسية عليه شخصياً، قد تتطور الى مستوى الاضطراب النفسي، والتقليل من احتمالات حصوله يعتمد على نوع التدريب على الضبط وتكرار الأوامر التي يتسم تنفيذها بقدر من التناقض أو التحسس، لتعويد الذات على التنفيذ وفض الصراع دون الاستسلام لحصوله[46].

[46] . أوتو فينخل، ترجمة صلاح مخيمر وعبدة رزق(١٩٦٩) نظرية التحليل النفسي في العصاب، ثلاثة أجزاء، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.

الفصل التاسع
الضبط في حالات الاجهاد القتالي

الخصائص النفسية والضبط

تعتمد نتائج القتال بكافة أشكاله في الحروب الاعتيادية أو في القتالات الخاصة مثل "حرب العصابات وأعمال مكافحة الارهاب "وكذلك في أوقات التدريب وإعادة التنظيم على عدة عوامل تم التنويه عنها في عناوين هذا الكتاب بينها الضبط، تتفاعل فيما بينها لتنتج الأداء المهني على مستوى الوحدة العسكرية في أثناء السلم، وكذلك في الحرب خلال المعارك، وفي كافة صفحات القتال، وهو نوعٌ من الاداء الخاص الذي يبذل فيه المعني أي العسكري جهداً متميزاً وسيطرة على الذات وعلى النار "الضبط" حتى عد هذا الاداء أي السلوك القتالي من أكثر أنواع الأداء الانساني حساسية وحاجة الى الضبط، وهو أداء في موقف محدد يأتي عادة من تفاعل العسكري المقاتل نفسه، أي تركيبته النفسية وبعض خصائصه ذات العلاقة بالضبط مثل:

١. الثبات في الموقف القتالي.
٢. الجرأة في تنفيذ المهام، وفي اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب.
٣. تحدي الذات في المواقف الصعبة، وتحدي الخصم في الموقف القتالي التصارعي.
٤. تحمل ضغوط القتال البيئية والنفسية، والتصرف في حالتها بمستوىً عالٍ من السيطرة والضبط.
٥. المطاولة والقدرة على الاستمرار في تنفيذ المهام.
٦. سرعة رد الفعل في الموقف المحدد.

وغيرها من خصائص تضع العسكري في خانة التميز انضباطاً، أو التطبع الى الحياة العسكرية وظروفها غير الاعتيادية موائمةً.

ان النظرة البسيطة الى العوامل المذكورة في أعلاه تبين أن أغلبها خصائص لها علاقة بالضبط العسكري.

فالثبات ضبط وسيطرة على الذات تبقي المقاتل في الموقف القتالي فاعلاً مهما تكن قسوته. وتحمل الضغوط، خاصية تنمى وتطور بوسائل التدريب، وجزء من تنميتها يتم عن طريق تعزيز الضبط.

كذلك تحدي الذات والمطاولة والصبر لها صلة نفسية بالضبط[47].

إن النظر الى الاداء العسكري بضوء العوامل المذكورة يؤكد صعوبة الاعتراف بوجود مقاتل منضبط تماماً، شجاع تماماً، أو مندفع بالمطلق وفي كافة المواقف القتالية والظروف السائدة. وعلى نفس الأساس لا يمكن القبول بوجود آخر غير منضبط تماماً أو متردد على طول الخط، وفي كافة الاوقات، الا إذا كان سلوكه غير سوي أي مضطرب، فيصبح والحالة هذه خارج سياقات التوصيف التقليدية.

الا أنه ومن المؤكد وجود صفة غالبة، أي ان هناك من يتصفوا من المقاتلين بالضبط العالي في الغالب العام، فيقال ان الملازم الفلاني ضابط منضبط، وان العريف الفلاني ضابط صف منضبط.

---

[47] . جرجس، ملاك (1983) سايكولوجية الإدارة والإنتاج، الدار العربية للكتاب، تونس.

وفي المقابل هناك من يتصف بالتردد في الغالب العام أيضا، وعنه يقال ان فلان متردد وآخر غير منضبط، وان كانت هذه صفات سلبية مخجلة مهنياً ويندر ترديدها الا في الجلسات الخاصة.

ان الثبات على أي من الخواص بينها الضبط وغيرها على طول الخط "عند شخص ما مسألة غير واردة علمياً بسبب التغير الذي يحصل عادة في عامل البيئة المساهم بنسبة غير قليلة في أنتاج الاداء القتالي في الموقف القتالي.

بمعنى أبسط ان المقاتل المعروف بشدة اندفاعه وقوة انضباطه كصفة غالبة، قد يصاب بالإحباط في موقف قتالي جديد بسبب تعامل آمره المباشر غير الصحيح "تغير بيئي"، فيصبح عندها وبشكل مؤقت وعلى غير عادته متردداً أو غير قادر على التنفيذ الصحيح انضباطاً، وكما هي الأوامر الصادرة[48].

الاحباط الناتج عن الظرف البيئي الخاص بتعامل الآمر على وجه الخصوص يسبب بطبيعته قدراً من الاكتئاب الموقفي ثم الوهن السريع حد الاجهاد الذي يفضي الى أداء قتالي، تفوق سلبيته مجرد التردد أو التباطؤ في تنفيذ الأمر، اذ أنه قد يفضي الى التخاذل، وربما الانسحاب من الموقف القتالي أي الهروب وهو المستوى الأعلى من فقدان السيطرة أي الأقل في مستوى الضبط. والعكس صحيح أيضاً، يمكن أن يجد أحد المقاتلين في آمره الجريح الذي يتخذ منه قدوة دافعاً قوياً، لتحدي عدوه انتقاما يدفعه للانتقال لا إراديا من حالة التردد والخوف والتعب الشديد الى حالة الاقدام حد الشجاعة المفرطة.

[48] . زهران، حامد عبد السلام (١٩٨٧) الصحة النفسية والعلاج النفسي، عالم الكتب، القاهرة.

الإجهاد النفسي القتالي

يقصد بالإجهاد القتالي بشكل عام، حالة الخمول السائد في نشاط العسكري الموجود في موقف يؤدي فيه مهام قتالية يتخللها أعمال مثل الرصد والتفتيش والحراسة والمداهمة والمتابعة، والاشتباك، وغيرها مهام أو أنشطة، قد يشعر فيها العسكري أحيانا بعدم الرغبة في الانجاز أو الاستمرار به، وأكثر منها قد يجد نفسه في أحيان أخرى عاجزاً عن تنفيذ أبسط المهام الروتينية التي اعتاد تنفيذها في الأيام العادية بدون جهد يذكر، وهذا حال يمكن وصفه بتخلخل الضبط الموقفي أي الآني، إذ وفي حال التخلص من عوامل الاجهاد يمكن أن يعود المقاتل منفذاً أي منضبطاً كما كان من قبل[49]. تأسيساً على ما ورد في أعلاه نجد أن المُجهد على سبيل المثال:

- غير آبه لوجود بندقيته في مكان غير مكانها الصحيح، ولا يفكر في حملها ولا في تغيير المكان الذي هي فيه.
- غير مهتم بالجهاز أو الاداة التي يمسكها بيده سواء كانت تعمل أم لا تعمل.
- لا يقوى على أداء الحركات الصحيحة تنفيذاً لأمر صادر.
- لا يلتفت لطلب من الأعلى بالتدقيق في أوليات موضوع يقتضي الموقف التدقيق فيه.

ان الاجهاد يمكن أن يكون:

١. بدنياً. ذلك المستوى من التعب العضوي الذي يتسبب في عدم القدرة على تنفيذ المهام والأوامر المطلوبة بالشكل الصحيح، على الرغم من كونها ضمن القدرات الطبيعية له. وهذا اجهاد ينتج في الغالب من زيادة ضغط العمل القتالي عن الحدود المألوفة. ومع هذا فان التجارب تبين أن التعب المتواصل لفترة زمنية متواصلة "نقص الطاقة البدنية "الذي يفضي الى سلوك الوهن، وقلة التركيز، وبطء الاستجابة، يمكن السيطرة عليه من خلال التمتع بقدر بسيط من الاستراحة والحث النفسي لرفع مستوى التحمل واستغلال كل المتاح من الطاقة، إذ وعندما يتنبه العسكري المجهد عضوياً الى الخطر القريب، ويحاول حث نفسه على زيادة القدرة أو استنفار جل الطاقة للتعامل معه أي الخطر باقتدار كما تدرب في الاصل، أو عن طريق الحث الخارجي من خلال تدخل الآمر القريب "آمر الحضيرة / المفرزة /الفصيل"، وأحيانا من الزميل الموجود في نفس الموقف لحثه وتذكيره وتشجيعه على التنبه الى الخطر، بمستوى يساعده على استنفار جل الطاقة.

أما وضع الضبط ومآله في حال الاجهاد العضوي، فهو في الواقع لا يتأثر قيمياً، وما يتأثر في حالته درجة الاستجابة الضبطية لتنفيذ أمر ما لفعل قتالي عضوي مطلوب أن يبذل فيه العسكري جهداً بات غير قادر على بذله بسبب الاجهاد ونقص الطاقة، وفي حالته ستعود الاستجابة الضبطية الى حالها بعد أخذ قسط من الراحة، والعودة بالجسم الى حالته الطبيعية.

٢. نفسياً. حيث الخمول والكسل وبطء استجابة لا علاقة لحصولها بما يبذله المقاتل من جهد يفوق قدرته على التحمل، وهو جهد "نفسي" يفضي في الغالب الى:

آ. عدم الرغبة في التنفيذ.

ب. ضعف القدرة على الانجاز.

---

[49] . ستورا، جان بنجامان (١٩٩٧) الاجهاد، منشورات عويدات، بيروت.

ج. تجنب الخوض في ماهية وطبيعة الأمر الصادر.
د. عدم المبادرة للقيام بأي عمل.
ان الاجهاد النفسي في البيئة العسكرية القتالية نوعاً من الأعياء، أوالوهن الذي لا يعرف المعنيين أسبابه، وان عبروا عن حصوله ووصفوا حالته. وفي حالته يكون التأثير على مستوى الضبط أكثر من الحالة الأولى أي الاجهاد العضوي، لأن:
- يصعب على المقاتل المجهد نفسياً تصريف اجهاده بمجرد أخذ قسط من الراحة.
- يحتاج أحياناً الى تغيير بعض الأفكار والقناعات.
- يتطلب في الحالات الشديدة استشارة ودعم طبي ومهدئات لغرض إعادة التوازن الى نفسه المجهدة.
وهنا تكون الاستجابة الضبطية طوال فترة الاجهاد وربما بعدها ضعيفة، وفي بعض الحالات يترك الاجهاد النفسي أثراً سلبياً على قناعات المقاتل وعلى استعداداته الى تنفيذ الأوامر ضبطياً.

مظاهر الاجهاد النفسي القتالي

إن ما يهم العسكريين في تنفيذهم لمهام القتال هو النوع الثاني من الإجهاد، اي النفسي، لان النوع الاول يسهل تجاوزه بتقديم استراحة بسيطة كما ورد، التي تعيد للعضلات المجهدة جاهزيتها، كذلك فإن الآمرين والقادة أنفسهم يدركون طبيعة هذا النوع من الاجهاد، ويقدرون حال المقاتلين المجهدين بإعطائهم قدر من الوقت للاستراحة وعدم تحميلهم أوامر مطلوب تنفيذها وهم في حالتهم هذه، وقد بينت تجارب القتال في الحروب التي خاضها الجيش العراقي، أن القادة اضطروا في بعض الأحيان الى اصدار أوامر لمنتسبيهم وطلبوا منهم معاودة الهجوم بعد عدة أيام من القتال الشديد والخسائر الكبيرة أو الصمود في مواضعهم الدفاعية وهم مجهدين لعدة أيام، وفي الحالتين تسبب الاجهاد البدني الشديد الى اجهاد نفسي شديد، والى تصدع سريع في مستوى الضبط الى حد تمرد فيه البعض على آمريهم، وتركوا مواضعهم القتالية، وأماكنهم في الهجوم، وأُعدِمَ بعضهم بلا مبالاة بعد القاء القبض عليه متسرباً وهو مجهدٌ نفسياً.

ان مظاهر الاجهاد النفسي وان تتداخل أحياناً مع مظاهر الاجهاد البدني الا أنها في الواقع مختلفة، وهي على وجه العموم تتمثل في الآتي:

١. شعور بالكسل لا يقدم المقاتل بحصوله على القيام بفعل ما من نفسه، وليست لديه الرغبة في تنفيذ أية أوامر تصدر اليه، وان صدرت سيكون التنفيذ بطيئاً، متلكئاً، وغير مكتملاً، وفي الحالات الشديدة قد تحصل حالات امتناع عن تنفيذ الأوامر.

٢. سرحان التفكير بأمور بعيدة عن مستلزمات الفعل العسكري المطلوب تنفيذ الأوامر الصادرة بصدده، اذ ينشغل العقل بأفكار بعيدة عنه في غالب الاحيان، ولا يأتي على بال المُجهد نفسياً، العواقب التي يمكن أن تترتب على بطئ تنفيذ الأوامر ولا حتى عدم تنفيذها.

٣. هبوط المعنويات وتغير المزاج الى المستوى الأسوأ، الذي يكون فيه المقاتل كثير التشكي من الوضع الذي هو فيه، سريع الانفعال على من حوله، وإذا ما صدرت له الأوامر لتنفيذ فعل ما سيضع من عنده عقبات بغية عدم التنفيذ أو التنفيذ البطيء الناقص.

٤. الميل الى العزلة عن الجماعة التي يتواجد فيها، وعدم الاخذ بآراء اعضائها وان كان تنبيهاً عن أخطاء باتت تتكرر، وهذا النوع من العزلة، إذا ما زاد أصحابها أي المجهدون داخل الحضيرة والفصيل وحتى في الوحدة ستتأثر روح الجماعة، وسيتأثر مستوى الضبط الجماعي أيضاً.

٥. ضعف الأداء، وتدني مستوى القدرة على التعاون، والتنسيق مع الزملاء الآخرين والتأثر بهم أثناء تنفيذ المهام.

٦. قلة التركيز على الأمور المهمة، مما يجعل الذي يعاني من الاجهاد يعطي وقتا لتنفيذ الأمر المكلف به أكثر من الوقت المحدد له في الأصل، وبكفاءة تقل أيضا عن المعتاد الذي تدرب عليه.

٧. اضطراب الوعي، بمستوى قد يقوم المعني بأعمال لا يفهم عواقبها، كذلك لا يدرك طبيعتها، ولا الاخطار الناجمة عنها، ولا يعير اهتماماً للأوامر الصادرة ولا حتى الى التحذيرات والحيطة والحذر والمعلومات التي ترده عن العدو ونواياه القائمة التي تحتم انصياعه لتنفيذ أوامر واجراءات التحسب.

٨. اختفاء الحماس الخاص بالعمل، وكذلك الخاص بحماية الوطن، وانخفاض مستوى الهمة والدوافع الداخلية للضبط.
٩. صعوبة القيام بأكثر من نشاط في آن واحد، فعندما يقوم أحدهم مُجهد بتفتيش ركاب سيارة مارة في قتال داخلي على سبيل المثال يركز على المواد المحرمة والممنوعة فقط، ولا ينتبه لإشارات يتبادلها ركاب مشبوهين، والى أصوات تنجم عن تحريك مادة من مكانها الى آخر، وفي حالات الاجهاد الشديدة، قد لا يتنبه الى أحد الركاب يغير مكان جلوسه، لتفادي تفتيشه وهو يحمل مواد خطرة، ولا يعير اهتماماً لتنبيهات وأوامر الآمر المباشر للملاحظة.
١٠. يغلب الاهمال على سلوك المُجهد، وكذلك عدم الاستجابة للضوابط والقيم العسكرية الجارية، فقيافته قد تصبح بالتدريج غير نظيفة وغير نظامية، ولا يعتني بهندامه في غالب الاحيان.
١١. نسيان بعض الأوامر والتوجيهات المطلوبة، خاصة المكتوبة منها، أذ وعندما يزود بقائمة أسماء وارقام سيارات، ويطلب منه التدقيق في مرورها عليه وهو في واجب أمني، قد ينسى المُجهد وجود قائمة بالأصل، وق ينسى بعض المدرجين فيها.
١٢. ضعف القدرة على الربط المعلوماتي، المطلوبة لدى تنفيذ بعض المهام. مثلاً عند تفتيش سيارة يحتاج القائم بالتفتيش الى الربط بين سلك يمر من تحت الكراسي بشكل غير مألوف، واحتمالات اتصاله بمفجر. أو عند الوقوف في نقطة حراسة ليلية في الموضع الدفاعي، يحتاج العسكري الواقف أن يربط بين وضعية ضوء بعيد متقطع أو مستمر يقترب منه بسرعة وقصف مدفعي شديد، وبين احتمالات وجود دورية معادية أو امكانية القيام بشن هجوم مباغت. وهو ربط في حال اكتماله سيؤدي الى زيادة الانتباه والتهيؤ والتحذير لاتخاذ الاستجابة القتالية الملائمة، والعكس وارد جداً في حالات الاجهاد النفسي.
١٣. غياب معطيات المنطق من التفكير الآني، وانحسار القدرة على اختيار البدائل. أذ يتصرف المُجهد أحياناً بشكل غير منطقي، لا يحسب الأثر السلبي لتصرفه على نفسه ومجموعته والصالح العام، فقد يشك جندي السيطرة في قتال المدن مثلاً براكب سيارة نقل كبيرة، فيقوم بإيقائها واقفة في منتصف الشارع، ويأمر بترجل كافة ركابها، فيتسبب بأزمة سير، دون أن يضع في حسابه بدائل ممكنة، كأن تكون علي سبيل المثال:
- ايقاف السيارة على جنب.
- الاستعانة بالزملاء لإنهاء التفتيش بسرعة.
- انزال الراكب المشبوه.
- السماح للسيارة بمواصلة المسير بعد تنبيه السائق بضرورة إنزال حاجيات الراكب.
وغيرها، بدائل تغيب عن تفكيره غير المنطقي.
١٤. تدهور المهارات بالنسبة الى العسكريين الذين يؤدون مهام فنية، مثل السياقة والرمي والمخابرة وغيرها، بسبب عدم التوافق بين الجهاز الحركي وبين الجهاز الادراكي، مثل التنسيق بين العين وبين الاطراف في بعض المهارات[50].

[50] . إبراهيم، عبد الستار (1998)الاكتئاب، اضطراب العصر الحديث، عالم المعرفة، الكويت.

عوامل الإجهاد النفسي القتالي

هناك أسباب أو عوامل تأثير عديدة تدفع باتجاه حدوث حالة الإجهاد النفسي يمكن تقسيمها نظرياً الى أسباب عامة، تلك التي تتعلق بالوضع العام الذي يعيش فيه المقاتلون، ويؤدون تحت وطأته مهامهم العسكرية، منها الأسباب العامة مثل:

١. ضغوط الحياة العامة.

تشكل ضغوط الحياة، ومصاعبها واقعاً يصل رذاذه المتطاير الى المقاتلين، فاضطراب العيش العام للمواطنين، وخروقات الأمن المتكررة على سبيل المثال، هي في واقع الأمر ضغطاً حياتياً يمتد تأثيره على الجميع، وحصول تفجير في مكان من العاصمة أو في مدن أخرى يشكل ضغطاً عاماً، وهكذا ضغوط تتكرر وتتعدد اتجاهاتها تمثل أكثر الضغوط تأثيراً وانتاجاً للإجهاد النفسي المعنوي على المقاتلين والناس العاديين على حد سواء.

٢. الوضع العام.

أي الوضع السياسي أو الداخلي للمجتمع الذي يقاتل المنتسبون من أجله، والذي يلقي بضلاله عليهم وهم يؤدون واجباتهم. أذ يتأثر البعض منهم حتماً بما يسمعوه ويشاهدوه من سجالات بعضها على سبيل المثال غير منطقي، وبعضها الآخر منحاز، خاصة في ظل غياب جهات عسكرية نفسية قادرة على مناقشة الخطأ وتصويبه لصالح الدولة التي يقاتلون من أجلها.

٣. الحرب النفسية.

التي تنتشر وسائلها وأدواتها في محيط المقاتلين، وأدواتها مثل الاعلام العام الذي كثرت وسائله في الوقت الحالي، وتعددت توجهاته، وبات له داعمون في الخارج والداخل، بهدف التأثير سلباً على المقاتل وعزله عن دولته ومجتمعه من خلال تشويه وتحوير الحقائق. وكذلك الشائعات التي باتت تنتشر بشكل غير مسبوق.

٤. الوسط الشعبي.

ان المقاتل خاصة في قتال المدن موجود عادة بين المواطنين، يفتشهم، وينظم سيرهم، وقد يداهم ارهابيين وسطهم، يستعين بهم ويستعينون به، الامر الذي جعله يحتك، ويختلط بهم بشكل لم يكن موجوداً في باقي أنواع القتال، وهو نوع من الاختلاط يؤدي الى أن يتأثر المقاتل بما حوله من آراء ومواقف بعضها سلبية يحملها المواطنون البعيدون عن طبيعة المهمة التي يؤديها في موقعه.

٥. متغيرات غير مباشرة.

هناك عوامل أخرى تساعد ولو بشكل غير مباشر على حصول الاجهاد القتالي مثل مؤثرات الطقس كالحرارة العالية، والغبار الشديد، وكذلك المطر الغزير.

٦. أسباب مهنية، تتعلق بمجريات العمل القتالي بينها:

آ. التكرار الزائد عن الحدود الطبيعية للواجبات.

ان من الطبيعي أن يتحمل العسكري عملاً ما لفترة زمنية محددة، وهي وان تختلف من عسكري الى آخر، الا انها مسألة قدرة تنطبق محدوديتها على الجميع، ومع هذه المحدودية، فهناك معدل وسط لمستوى التحمل لابد أن يعرفه الضباط القادة والآمرون عند تحديد المهام، فساعتين في المراقبة الرادارية داخل مرصد على سبيل المثال، مسألة تحمل وسط مقبولة، عليه تكون الاربع ساعات المستمرة، تزيد عن الوسط بكثير، وقد لا يتحمل وقعها بعض

الجنود، لأنها تفوق قدرة الغالبية أي الوسط، وبالتالي سيسبب اللجوء اليها، وعلى غيرها مهام بشكل متكرر قدراً من الاجهاد وان جاء تحت بند الضرورة في بعض الاحيان. وسيسبب أيضاً ميلاً لعدم تنفيذ الأوامر. علماً أن التكرار هنا والتكوين غير المقصود لمثل هكذا ميول لعدم تنفيذ الأوامر ومهما كانت بسيطة، فإنها ستتراكم لتنتج لاحقاً تصدعاً محتملاً للضبط.

ب. ضعف معايير الاهتمام.

ان إهمال المقاتلين، وعدم الالتفات إليهم والى مشكلاتهم من قبل القيادات الاعلى، ومن قبل الآمرين على وجه الخصوص، يجعلهم في وضع نفسي هش، قد يتقبلون فيه توجهات الحرب النفسية المعادية من ناحية، وقد تقربهم من حالة التسيب وعدم الاهتمام "ضعف الضبط" وكثر التفكير بالعوامل والأسباب التي تجهدهم نفسياً من ناحية ثانية.

ج. التمييز في التعامل بين المنتسبين.

ان الاشادة بمقاتل في موقف لا يستحق فيه الاشادة الصحيحة، يضعف معنويات الآخرين، ويعرضهم الى الوقوف بالضد من صاحب الاشادة ولو فكرياً، وتقديم اجازة الى مقاتل لا يستحقها تثير نفس ردود الفعل المعنوية السلبية، أما الاعفاء من الواجبات، والسماح بالنزول والاجازات الطويلة للبعض دون البعض الآخر، فهي الأكثر تأثيراً على الحالة النفسية لعموم المقاتلين.

د. الفساد.

ان الفساد بكافة أشكاله آفة تنهش الجهاز العصبي للمقاتلين، وهم وأن لم يبدوا اهتماما في الظاهر الى بعض حالاته، فأن الواقع يشير الى العكس من هذا، وهو وان كان تفضيل جندي على آخر على أساس القرابة، أو الحصول على مبلغ بسيط من المال لقاء منح اجازة، أو ابتزاز مواطن في موقف معين، وغيرها أمور وان ينظر البعض الى بساطتها بالمقارنة مع أمور أخرى أكبر، لكنها من الناحية النفسية تصنف أعمال فساد، تؤثر سلباً على الحالة النفسية العامة للمقاتلين، وتقربهم أكثر من حالة الاجهاد والاخلال بالضوابط القيمية وقد تدفع الى عدم تنفيذ الأوامر "اضطراب الضبط" اذا ما توافرت معها عوامل أخرى مساعدة.

هـ. التدريب الناقص.

للإنسان سواء كان عسكري أم مدني، قدرة محددة على تحمل مستلزمات وأعباء الحياة بكافة أشكالها، والعسكريون بشكل عام يختلفون فيما بينهم لما يتعلق بالقدرة على التحمل، الأمر الذي يدفع مسؤوليهم الى اخضاعهم لبرامج تدريب خاصة برفع متوسط القدرات، بهدف جمع أكبر عدد منهم قريباً من هذا المستوى "المتوسط " لما يتعلق بخدمتهم سلماً "الحراسة، التدريب، التكيف" أوفي حالات الحرب "القتال" لذا وعندما يكتمل التدريب بالشكل الصحيح يكون المنتسب قادراً على التنفيذ بالمستوى المطلوب، والاستجابة للضغوط بشكل ملائم يقترب من أن يكون طوعياً والعكس صحيح في حالة عدم اكتماله. علماً أن التدريب الذي في محصلته اكساب الجندي الميل الى تنفيذ الأوامر، والمهارة في التعامل مع الموقف بالشكل الصحيح والسريع، اذا لم يكتمل بالشكل الملائم والكافي، سيضطر المقاتل الى التفكير وربما التردد باي فعل يريد تنفيذه قبل الاقدام عليه، سواء في استخدام السلاح والمُعَدة التي بحوزته، وكثرة التفكير والتردد، واحياناً الحيرة، تسبب قدراً من التوتر الذي يعد من أهم العوامل المؤدية الى الاجهاد.

و. المسافة النفسية بين الجندي وآمره.
ان الآمر وعلى وفق المفهوم النفسي للقيادة سلطة ضبط ينبغي أن تكون حاضرة وقريبة، وموجهة وداعمة، وناصحة، وقدوة في التضحية والالتزام، وعلى أساسها لابد وان يكون الآمر المباشر، خاصة آمر الفصيل:
- قريب جداً من جميع منتسبيه، يصلهم ويتواصل معهم في الوقت المطلوب.
- يتعاطف معهم عند الحاجة.
- يحس بهم عندما يشعرون بالتوتر والقلق.
- يعرف أصولهم، ومناطقهم، وهواياتهم، ومعاناتهم.
وإذا لم يكن كذلك ستصبح المسافة النفسية المفترضة بينه وبينهم بعيدة، لا يستطيع خلالها، وفي الظروف الصعبة على وجه الخصوص أن يكون مصداً للتأثيرات الجانبية التي تستهدف حالتهم النفسية، هذا واذا ما انتهت أو تصدعت المصدات فان الاجهاد سيكون قريباً جداً من المنتسبين، وسيكون الضبط عرضة الى التصدع.

الاجهاد النفسي والطاقة

عند التحدث عن الاجهاد لابد من الخوض في بعض تفاصيل الطاقة النفسية ذات الصلة المباشرة بحصوله، وبكيفية التعامل مع وجوده، فهي من الناحية العلمية نشاط نفسي دافعي يُعَبئ به الانسان بينه العسكري ذاته بقدرة للتعامل مع واقع معين، وعلى هذا الاساس فانه يحتاج الطاقة المذكورة في كل خطوة من الخطوات التي يخطوها، فعندما يفكر بتنفيذ أمر ما أو واجب محدد سيكون بحاجة الى طاقة، وعندما يتقدم تنفيذا لأمر يتعلق بالهجوم على موضع معادي يحتاج الى طاقة، وكم الطاقة النفسية المطلوب صرفه في مثل هذه المواقف وغيرها يعتمد على مقدار الصعوبة والشدة والخطورة الموجودة[51]، فمثلا:

١. عند تنفيذ واجب الحراسة نهاراً، سيحتاج الجندي الى كم من الطاقة يقل عن ذلك الذي يحتاجه ليلاً. وفي حالات الزحام الشديد، تزداد الحاجة الى الطاقة مقارنة مع الحراسة في ظروف حركة اعتيادية.

٢. تكون الحاجة الى مزيد من الطاقة عندما يتم وضع الجنود في حالة الانذار القصوى، وأكثر منها عندما يدخلون في حالة قتال فعلي.

ان مقدار الطاقة النفسية لدى العسكريين مختلف من واحد الى آخر، تبعاً لعوامل الوراثة، وطبيعة الظروف التي مروا بها منذ ولادتهم وحتى دخولهم الموقف القتالي الذي يكونون فيه بحاجة الى أعلى مقدار منها. مثال عنها بسيط يتعلق بالحياة اليومية التي نرى فيها اشخاص يتمتعون بقدرة وحيوية نفسية عالية يقال عنهم انهم غير متعبين اي يتمتعون بقَدْرٍ عال من الطاقة، وفي مقابلهم آخرون منهكون، يتذمرون، غير راضين، يقال عنهم أنهم متعبين في حياتهم اي لا يمتلكون قدراً كافياً من الطاقة[52].

انه مثالٌ أو وصف شعبي لمقادير الطاقة النفسية التي تكون وافرة عند الجماعة الاولى الذين ورثوا طاقة نفسية بقدر مناسب، ولم يتعرضوا في حياتهم الى مواقف صعبة تكون قد بددت ذاك الإرث من الطاقة، بعكس المجموعة الثانية التي قد يكون اصحابها ورثوا القدر نفسه أو مقارب له من الطاقة، لكنهم واجهوا مشكلات عيش وتعامل عائلي ومجتمعي سلبي استوجبت صرف الكثير من مخزون طاقتهم، وابقتهم بكم لا يكفي للتعامل مع الضغوط الموجودة، فنراهم على طول الخط متعبين، ينكسرون سريعاً.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فأن مقدار المصروف من الطاقة في الموقف القتالي كذلك مختلف من عسكري الى آخر، فالجندي المنضبط الذي يتمتع بمعنويات عالية، وثقة بالنفس عالية، وقد أتقن فن استخدام الارض والسلاح، سيكون في الموقف القتالي بحاجة الى طاقة نفسية أقل من زميله الذي يحس ضعفاً في معنوياته، وارتباكاً في حالته النفسية، وقلة معرفة باستخدام السلاح.

---

[51] يفترض علماء النفس في موضوع الطاقة النفسية أن كل موقف يواجه الانسان مقاتلاً كان أو عاملاً عند التعامل معه يصرف جزءاً من طاقته، وكلما يكون خزينه من الطاقة كافياً يكون تعامله أسلم وناتج التعامل أسلم نفسياً، والعكس صحيح، فكلما يقل مستوى الطاقة يكون التعامل مع الموقف أقل كفاية، واذا لم يكن هناك كماً كافياً من الطاقة فسيجد المقاتل أنه غير قادر على التعامل مع الموقف أو تنفيذ الأمر الصادر، واذا ما انخفض مستوى الطاقة عن الحدود بقدر كبير فيمكن أن يصاب المقاتل بأحد اضطرابات المعركة وربما التمرد على سلطة الأمر الصادر.

52.أسعد، يوسف ميخائيل (١٩٨٦) علم الاضطرابات السلوكية، مؤسسة النور للطباعة، دمشق.

وعلى هذا الاساس يؤكد المختصون في مجال التدريب النفسي العسكري على ضرورة تمرين عقول العسكريين لان تعمل بمعزل عن الأداء العضلي للجسم، وبمعنى أدق محاولة الفصل بين الطاقة البدنية والطاقة النفسية، بقصد ايصال المقاتل الى مستوى السيطرة على طاقته النفسية في مواقف التعب العضلي، متجنباً الغضب والارتباك والقلق وفقدان السيطرة على الذات العصبية التي تستنزف الطاقة وتؤثر سلباً على الضبط العسكري.

التخفيف من الاجهاد النفسي القتالي

الاجهاد حالة نفسية عامة، يصاب بها الانسان في حياته العامة، بسبب ضغوط الحياة، ويصاب بها المقاتلون، إبان خدمتهم العسكرية بسبب ظروف الشد والتوتر والقتال، تزداد تكراراتها وشدتها في أوقات الازمات والحروب وعند التهيؤ لها، لا يمكن ان يسلم من حصولها جيش من الجيوش في عالم اليوم وفي الأزمنة السابقة، لكن تأثيراتها على الاداء والضبط مختلفة من جيش الى آخر، فالجيوش المدربة جيداً على استخدام السلاح، وعلى تحمل ضغوط الحرب، تقل فيها نِسَب الاصابة بالإجهاد، ويقل تأثيرها على الاداء العام، كذلك فان الجيوش التي تحسن ادارة منتسبيها معنوياً، وتتجه الى تحصينهم من توجهات الحرب النفسية المعادية، تقل فيها نسب الاصابة بالإجهاد القتالي. والعكس من هذا وارد أيضاً، فان احتمالات الاصابة يمكن أن تزداد عند:

- اهمال المنتسب، وعدم إعارة مشاعره الاهتمام.
- في حال التفريق بين مقاتل وآخر قرابياً أو مناطقياً أو طائفياً أو قومياً.
- عند تعالي القادة والآمرون على منتسبيهم.
- في حال ابتعاد الجمهور عن عسكره، وعدم تقدير وجودهم.
- عند عدم تحسس مسؤولي الدولة بجيشهم ومنتسبيه.

وعلى هذا، ولأن الاجهاد القتالي مسألة واردة، في كل الظروف والاوقات، وفي كل الحروب، وبكافة صفحات القتال، ولكافة منتسبي الجيوش، يتجه القادة والآمرون لأن يتعلموا:

١. كيفية التقليل من احتمالات حصول الاجهاد لهم ولمنتسبيهم، وأول شيء يفترض أن يتعلموه في هذا المجال هو سبل التقليل من الاحتمالات، من خلال المحافظة على كم الطاقة النفسية الموجود أصلاً، وعلى الاحتياطي المخزون منها بغية تحمل الحاصل، والاستعداد المسبق للتعامل مع أي مواقف وتطورات قد تستنزف الاحتياطي، تفادياً لحالة الاجهاد النفسي وتصدع الضبط.

٢. كيفية التقليل من أثر الاجهاد، فيما إذا حصل بالفعل.

إن مسألة التعامل مع الاجهاد باتجاه الحيلولة دون حصوله، وكذلك التقليل من أثر الحصول يتأسس على مجموعة من الفعاليات التي يتعلمها القادة والآمرون بينها:

آ. المبادرة في التقرب من العسكري المعني، فرداً كان أو مجموعة أفراد من قبل الآمر المباشر، والشروع على الفور في اتخاذ إجراءات الطمأنة والتهدئة التي تقلل مقدار المصروف من الطاقة، والسعي الى عدم تحميلهم أعباء أوامر تفوق قدرتهم على تنفيذها.

ب. التدخل المباشر، إذ يحصل في بعض مواقف القتال أن يستنزف كل احتياطي الطاقة، وفي حالتها وإذا ما أستمر التواجد تحت نفس الظروف القتالية الضاغطة، يعني احتمالات الاصابة السريعة بالإجهاد ومن ثم التمرد على تنفيذ الأوامر، الأمر الذي يقتضي الى التدخل السريع من قبل الآمر لإبعاد المعني عن الموقف القتالي إذا ما ساعد الموقف، أو تدعيم وجوده بآخرين دون أن يحسوا بالسبب ليكون أداؤه ضمن أدائهم مقبولاً، ولتوزيع أثر الضغوط على المجموعة مما يخف على الاضعف "المستنزفة طاقته " شدة آثارها.

المحافظة على الطاقة النفسية

ان المحافظة على الطاقة النفسية للمقاتلين في كافة الظروف والمواقف مسألة ضرورية من أجل إدامة زخم القتال، وهو واقع حال نفسي يتم تحقيقه من خلال الآتي:

١. تكوين خبرة تراكمية مناسبة لدى المنتسبين في مجال التعامل مع المواقف القتالية المتوقع حدوثها. وعلى تحمل ضغوط التعب، وإكساب العسكري مستوىً من الضبط حدود تكوين عادة التصرف الصحيح، مع وجود أعلى درجاته، أي التعب.

٢. المحافظة على الضبط والحالة المعنوية للمقاتلين، من خلال:

آ. تقدير وضع العسكري في تقديم خدمة وطنية مميزة، وجعله يحس بقيمة هذه الخدمة حد الافتخار بها أمام الاهل والاقران.

ب. الإشادة الجادة من قبل الآمرين تتابعاً، بالجهد الذي يبذله المقاتل في الموقع القتالي.

ج. منح الاجازات الدورية والاستراحات الآنية للمنتسبين بالتساوي.

د. تقديم بعض التكريمات البسيطة بينها المعنوية، للمتميزين، خاصة في المناسبات الوطنية.

هـ. السلوك على أساس القدوة، أي أن يكون الآمر قدوة منتسبيه، في الضبط والاخلاص، والتضحية والنزاهة، وغيرها أمور تجعل المنتسب يثق به وينفذ أوامره باستمرار.

و. زيارة الجندي في موقعه من قبل الأعلى بطريقة التفقد والتشجيع، وليس بطريقة الإخافة والتفتيش التي تخصص لها زيارات خاصة، على أن لا يخلط الزائر بين متطلبات الحالتين.

ز. ايجاد مصادر ترفيه بسيطة تلائم الموقف العسكري والظروف السائدة، وكلما ساعد الوضع على ذلك.

ح. تزويد المقاتلين بالمعلومات المناسبة عن عدوّهم، واساليبه القتالية، لتقليل هامش المجهول والقلق والتوتر في داخلهم.

ط. المحافظة على الصحة العامة، من توفير قدر من الراحة كلما كان ذلك ممكناً وتقديم الغذاء المتوازن والخضوع الى برامج رياضية تعيد للجسم لياقته مع أية فرصة ممكنة، كذلك التدخل في قضية النوم الكافي والمناسب، اذ ان المعروف أن ساعة نوم عالية الجودة، كافية لإعطاء ساعتين نشاط جيد، بالإضافة الى تنظيم العمل والمهام، أي أن تكون الواجبات والمهام الروتينية منها على وجه الخصوص مبوَّبة ومثبَّتة مسبقاً، مع الاخذ بالاعتبار عوامل التغير المفاجئ في الموقف، التي تتطلب مهام جديدة وطارئة، وفي حالتها يفضل التدريب المسبق على مثل هكذا تغييرات، مع ايجاد فرصة إفهام المنفّذين عن طبيعتها واسباب اللجوء إليها.

العائد من تقليل احتمالات الاجهاد

ان الوحدة العسكرية والآمرين فيها هم الذين يستطيعون تجنيب منتسبيهم حالة الاجهاد من خلال تكليفهم بالممكن فعلاً "جهد الامكان" والتي منها يمكن المحافظة على الطاقة النفسية لهم، ومن نتيجتها يتم الحصول لهم ولمنتسبيهم حالة نفسية معنوية عالية وأداء جيد، كذلك المحافظة على مستوى الضبط الموجود الذي يؤمن الآتي:

١. صمود (ضبط) أكثر في الموقع القتالي.

أي البقاء وقبول الواقع المفروض، بمستوى أداء يقترب من ذاك الذي وصله أبان فترة التدريب. وهو قدر من الالتزام الضبطي يضمن للمنتسب مع مجموعته التفوق على العدو، وتفويت الفرصة عليه في أن يحقق أهدافه.

٢. القبول بالأوامر الصادرة.

أي قبول الأوامر كما تعودها ضبطاً من قبل، وتنفيذها بالشكل الصحيح، إذ أن تنفيذ الاوامر وان كان من أهم الامور التي يتدرب عليها العسكريون في جوانب اكتساب الضبط، يبقى الاقتناع بالأمر الصادر من الأعلى هو العامل المساعد الأهم في تكوين الدافعية الى التنفيذ، خاصة في ظروف قتال يحتك في حالته العسكري المقاتل مع الأهالي في الشارع والمحلة.

٣. الاقلال من توجهات التذمر والتشكي أثناء التنفيذ.

إن تذمر المنتسبين خلال تنفيذهم بعض الواجبات في القتال الداخلي مثل تلك التي يكون فيها المواطنون المدنيون طرفاً، وهم طرفها المقابل مسألة ذات تأثير سلبي ليس على ضعف الالتزام الضبطي والدقة اللازمة لتنفيذ الواجب، بل وكذلك على العلاقة العامة مع المواطنين الذين يمكن أن يقفوا معهم معنوياً (اشادة، تقبل، وتشجيع) في ظروف يحتاجون فيها الى المساعدة والدعم لتفادي حصول الاجهاد.

٤. الدعم والاسناد المتبادل.

ان تعود المنتسبين لتبادل الدعم والاسناد والتعاون مع بعضهم البعض في المواقف القتالية الصعبة، كذلك مع الآخرين من نفس الوحدة أو الوحدات الأخرى الذين يتعرضون الى مصاعب في مواقف قتالية يحتاجون فيها الى المعاونة، يسهم في تحقيق نتائج ايجابية في القتال الذي يحتاج واقعه الى أعلى درجات التعاون والإسناد .

٥. تقوية الانضباط القيمي.

ان الدقة والالتزام (الضبط) في تنفيذ المهام المطلوبة مسألة تخضع بعض جوانبها الى الفعل الانعكاسي الشرطي[53] الذي يتم تعلمه أو اكتسابه من خلال التدريب فتنفيذ المتدرب الى أوامر صادرة بشكل صحيح (استجابة) والحصول بموجبها على تقدير من قبل الآمر أو القائم على التدريب عبارة عن اشادة قيمية أمام المجموعة (مثير) وبالتكرار ممكن أن يحدث

---

53 . التعلم الشرطي أو الاستجابة الشرطية، نظرية في التعلم الكلاسيكي تعود الى العالم الفسيولوجي الروسي المعروف ايفان بافلوف قوامها انتقال أثر المثير الطبيعي للاستجابة الى مثير غير طبيعي لا يسبب الاثارة أساساً، وتعني أن رد الفعل التكيفي (الاستجابة) للكائن الحي اتجاه منبه خاص (مثير) يمكن اكتسابه عند تكرار تعريض الكائن الى الموقف المماثل.

سيد محمد خير الله وممدوح الكناني (١٩٨٣) سيكولوجية التعلم بين النظرية والتطبيق، دار النهضة العربية، بيروت.

اقتران شرطي بين التنفيذ أي الضبط والاشادة تدفع الى تكوين سلوك يعد فعل التنفيذ أي الضبط مسألة مهمة وذات قيمة.
وتخضع جوانبها الأخرى الى النظام القيمي الذاتي الموجود أصلاً عند الشخص المقاتل، فالتسويف أثناء عملية التنفيذ الجاري للأمر الصادر مثلاً، كذلك قلة الاهتمام بالتنفيذ، مسألة تتعلق بمفهوم المقاتل عن الواجب والجيش والوطن أي بالنظام القيمي الذي يكون فيه البعض منضبطين أصلاً والبعض الآخر على العكس أي غير منضبطين.

الفصل العاشر
الحزبية وعمليات الهدم
المنظم للضبط العسكري

تاريخ النفوذ السياسي في القوات المسلحة

تدخلت السياسة في العراق ونفذت الى الجيش العراقي ولجأ السياسيون في بعض المراحل الزمنية خاصة ابان حكم حزب البعث للعراق (١٩٦٨ -٢٠٠٣) الى تغيير طبيعته في أكبر عملية تسييس منظم أسهمت في تهديم بنيته الضبطية، ومن أجل تسليط الضوء على مستوى الهدم البنيوي في هذا الجانب الحيوي، لابد وأن نستعرض محاولات السياسة في الولوج الى جسم المؤسسة العسكرية والأمنية ونبدأ بالمرحلة الزمنية لما قبل العام ١٩٥٨ الذي قام فيه العسكر بانقلاب على الدولة وقلب نظام الحكم من الملكي الى الجمهوري، وبالتالي قيادة العسكر لشؤون السياسة[54]، وفي تلك المرحلة يمكن التأشير بعدم وجود محاولات للحكومة ومسؤوليها في التدخل بشؤون العسكر سياسياً، لكن طبيعة تشكيلها وظروف العراق، والاتجاهات الحزبية وشكل الصراعات الدائرة والظروف الإقليمية المحيطة، قربت العسكر من الدخول في السياسة، وان كان تقرباً يعد محدوداً جداً، حيث السعي الحثيث لبعض كبار الضباط من التكتل في عمل يعد سياسياً وبعض الأحزاب لتشكيل خلايا سرية داخل الجيش في سعي منها للوصول الى الحكم، وكان المفتاح الاول لهذا الباب الضباط الطامحون الى السلطة والساعين الى التمرد عليها، الذين شكلوا تنظيماً سياسياً "الضباط الاحرار" وقلبوا نظام الحكم في العام المذكور، خطوة نقلتهم وهم المستمرون بالخدمة من المهنية العسكرية الى التوليفة السياسية، حيث الاتصال بتنظيمات حزبية مدنية لغرض التنسيق وفرض التأثير على الشارع، واللجوء الى الاستخدام المفرط للقوة في التعامل مع الخصوم، تجاوزاً على القيم والاصول والضوابط، ومن هنا بدأ الخرق غير العمدي لجدار الضبط العسكري حيث الحنث أولا بالقَسَمْ العسكري الذي أقسمه الضباط ابان تخرجهم من الكلية العسكرية لحماية الدولة والنظام، وقيام بعضهم بقتل الملك باعتباره السلطة الأعلى في الدولة والتمرد على المؤسسة العسكرية ومن بعد هذا توجههم أثناء ادارة البلاد الى تقريب هذا وإبعاد ذاك على اساس الولاء والانتماء فوسعوا من الخرق وأرسوا قواعد هدم للضبط بوتائر أخذت تتسع تدريجياً.

---

54. هناك من الباحثين والعسكريين المهنيين من يؤكد على أن الفريق الركن بكر صدقي بانقلابه عام ١٩٣٦ يعد أول من أخل بالضبط العسكري سياسياً، من خلال اللجوء الى الانقلاب صيغة باتت تستهوي ذوي المناصب القيادية العليا، اذ استغل مغادرة رئيس اركان الجيش الفريق الركن طه الهاشمي، وايكال مهامه الى الفريق الركن عبد اللطيف نوري، ليتفق واياه على تحريك الفرقة الثانية من قرة تبة الى قرغان ضمن الفترة الزمنية لتمارين التدريب الاجمالي السنوية للجيش، بهدف تسهيل تسلل وحداتها الى مدينة بعقوبة قريباً من بغداد، وتم له هذا، ليلة 28/ 29 من العام المذكور فقامت فور دخولها بقطع خطوط الاتصال مع العاصمة، واحتلال دائرة البريد والاماكن المهمة، خطوة أعقبتها باخرى قوامها الزحف باتجاهها أي بغداد بقيادته شخصياً. وعندما توجه وزير الدفاع للتدخل في ايقاف الزحف الى بغداد وحمل رسالة من الملك غازي، وجدها الفريق بكر فرصة للتخلص منه فدبر على إثرها كميناً "مكيدة" بالاتفاق مع ضباط من الفرقة قاموا بتجريدهِ ومرافقيه من السلاح في منطقة اللقاء المتفق عليها، ومن ثم إطلاق النار عليه بكثافة، فارق بسببها الحياة في الحال. هذا واذا ما تم مناقشة الانقلاب وسلوك القادة القائمين عليه من زوايا الضبط والمهنية العسكرية، سنجد أن هذا السلوك مخالفة صريحة للقوانين والأنظمة العسكرية، واخلال بالمهنية، وتجاوز على القيم حيث التدبير المسبق لمكيدة قتل للقائد الأعلى "وزير الدفاع" وهو سلوك اسهم بعملية الهدم للضبط العسكري.

لقد كوّنَ الفعل المذكور سابقة لفوضى التجاوز الضبطي الهدام، أدخلت العسكر في دوامة الهياج الانفعالي السياسي، حتى أصبحوا في بعض مراحله طرفاً يثيرهم "الانفعال" خارج الاطر المحددة لمهامهم، ويتأثرون به تجاوزاً على حدود مهنيتهم، فتقربوا بسببه وعوامل أخرى من حدود السياسة، تقرباً طوعياً للدخول الى عالمها من اتجاهين رئيسيين:
الاول: من خلال التوجهات الحثيثة لبعض الضباط القادة لتنفيذ انقلابات عسكرية، أومن خلال مساعي بعضهم الآخر لتكوين اتجاهات ضغط على السلطة السياسية، لتحقيق مكاسب فئوية، فظهر ضباط قوميون عرب، وقوميون أكراد، وشيوعيون، وقاسميون، وعارفيون، وبعثيون. فأخلّوا بعملية الضبط العسكري ومزَّقوا الوحدة البنيوية للقوات المسلحة، ومهدوا للاتجاه الثاني ذو التأثير الأشمل.
الثاني: مساعي أحزاب سياسية منظمة لدفع المنتمين الى صفوفها من الشباب للذهاب الى الكليات العسكرية، كضباط والتطوع في الصنوف كجنود وشرطة وضباط صف، وبالنتيجة نَظَّمَ الحزبيون الوافدون والمنتظمون أصلاً، عسكريون جدد من داخل المؤسسة ليكونوا حزبيين جدد، بشروا بغد أفضل يأتي فقط عن طريق أحزابهم، فانتشرت أفكارهم وزادت طموحاتهم، وتوسعت خلاياهم التنظيمية على كافة الوحدات والمراكز والمديريات، خاصة القوة الجوية، التي يدرك الحزبيون ان دورها حاسم في إنجاح انقلاب أو الحيلولة دون نجاحه. وأخل امتداد تنظيماتها بعملية الضبط.
ان عبد الكريم قاسم، القادم من تنظيم الضباط الاحرار، انتقل بيوم واحد بعد الرابع عشر من تموز لعام ١٩٥٨ من العسكري المعروف بمهنيته التقليدية كآمر لواء مشاة، الى السياسي بخبرة قليلة كرئيس وزراء، بسببها وطبيعته الشخصية المتسامحة، أخطأ:
١. بالتعامل مع المد السياسي الذي دخّل القوات المسلحة من باب الانقلاب، في تسامح اشتهر بعبارة له "عفى الله عما سلف" اذ عادة ما يلجأ الى العفو عن المخطئين بحقه ونظامه، من الضباط القادة ويأمر بإعادتهم الى مناصبهم.
٢. في ثقته المفرطة بالآخرين ذوي النوايا السياسية، حتى يورد المتابعون لزمانه انه وعندما تَرِدهُ معلومات عن نشاط سياسي، خصوصاً للضباط القادة، يقوم هو شخصياً باستدعائهم الى مكتبه في وزارة الدفاع ليتأكد بنفسه، وعند التأكد وان كان اعترافاً صحيحاً، يكتفي بالطلب من المعني القسم على القرآن الكريم بأن لا يعاود هذا النشاط.
كان هذا سلوك لا يتواءم مع طبيعة الشخصية العسكرية والسياسية، ولا مع معايير الضبط العسكري، تسبب في زيادة حجم التكتل السياسي ضد عبد الكريم شخصياً... سلوكٌ يقع على النقيض من سلوك خصوم له جاؤوا من بعده الى السلطة، الذين يتعاملون بمثل هكذا مواقف بشك مسبق يدفع ثمنه الضابط المشكوك به، توقيفاً انفرادياً وتحقيقاً قسرياً، وفي بعض الحالات، طرداً من الخدمة أو إحالة الى التقاعد، وان برّأته اللجنة التحقيقية من التهم الموجهة اليه، كإجراءات احترازية للتقليل من تأثير الاحتمالات السلبية في توجهاته بالضد، مهما كانت بسيطة.
وكان من ناحية أخرى، لعباً على وتر الصراعات السياسية، بين الاحزاب في إطار الادارة العليا للبلاد، لتأمين قدر من التوازن، حاول فيه القائد العسكري الأعلى عبد الكريم نقل اللعب الى صفوف القوات المسلحة، فقرب البعض من المعروفين بانتماءاتهم الحزبية، بالتأسيس على افتراض مهنيتهم العسكرية، وأبعد البعض الآخر على اساس عدم الثقة بميولهم، فكان

لعب توازن فاشل، وسع من قاعدة الاحزاب قريباً من مقره وأخل بمعايير الضبط والقيم العسكرية التقليدية.
ان زمن عبد الكريم الذي استُهل بانقلاب عسكري انتج سلسلة انقلابات وتوجهات تسييس حثيثة، صاغت رغبات الضباط وتوجهاتهم السياسية، السلطوية، حتى أصبح الجيش، مؤسسة انقلابية، وقوة تغيير ونفوذ تخشاها السلطة، واصبحت الدولة بكل مؤسساتها غير قادرة على لجم بعض ضباطه الكبار في سعيهم الى قيادة السلطة[55]، أو التأثير فيها لصالح هذا الطرف أو ذاك، بعد ان حوروا بُنيَتها، لتكون مفتاحاً للقبض على السلطة، بصيغ تسييس، شجعت الضباط الى الانتساب للأحزاب السياسية، حتى أصبح في زمنه ومن بعده زمن عبد الرحمن عارف الى العام 1968:
١. من المعتاد تناول المواضيع السياسية بين المعارف والاصدقاء داخل الوحدات وخارجها.
٢. من السهل مفاتحة أي ضابط للانتماء الى حزب أو تكتل لقلب نظام الحكم.
٣. من المألوف التجاوز على القانون الخاص بتحريم العمل بالسياسة، وكأن الاجهزة الأمنية الحكومية والعسكرية آنذاك باتت تتغاضى عن هذا الحزب أو ذاك، تبعاً لنظرتها الخاصة للأزمة التي تمر بها، وتبعاً لموقف الحزب المعني منها.
وبالمحصلة أصبح هناك تواجد في المؤسسة العسكرية ملموس لحزبيين من الاتجاهات الشائعة "بعثيون، شيوعيون، وقوميون" على وجه الخصوص، وأصبحت هناك اشارات واضحة داخل الوحدة العسكرية، عن ان الضابط الفلاني شيوعي، وآخر بعثي، وهناك ناصري، جميعهم يعملون بشكل مستور ظاهرياً، معروف واقعياً، يتم التقرب ناحيته عقابياً متى ما اقترن بحركات تآمر وانقلاب.
هذا ومنذ العام ١٩٥٨ وما بعده كانت الاحزاب السياسية المذكورة وخلاياها العاملة في القوات المسلحة، تسبق الجهاز الاستخباري، أي ان جهدها بالتنظيم والكسب الحزبي فاق جهد الاستخبارات العسكرية في الحيلولة دون حصوله أو الحد من تأثيراته في الاتساع، فأسهمت مع أخطائه في زيادة انتشارها، حتى بات الجيش والشرطة في الاعوام الاولى اللاتي تلت العام ١٩٥٨ من وجهة النظر الضبطية أقرب الى الجماعة الجماهيرية منهم الى المؤسسة العسكرية، وبدأ جنودها وشرطتها وضباطها، يتظاهرون مع العمال والفلاحين، ويحملون الحبال سوية كإشارات للتهديد بسحل الأعداء دون أي اهتمام لعملية الالتزام بالقيم والضوابط العسكرية.
فكان بوجه عام تسييس، مثَّل خرقاً للضبط الذي قلت مستوياته، والقيم العسكرية التي تصدعت منظومتها، والمهنية التي تشوهت صورتها والمعنويات التي اختلت موازينها، مثلت جميعها عملياً هدماً للبنية العسكرية العراقية، ومحصلة دفع عبد الكريم، القائد الأعلى وزير الدفاع

[55] . تشير وقائع التاريخ أنه وبعد مقتل الرئيس العراقي عبد السلام محمد عارف في حادث طائرة سمتية عام ١٩٦٦، عقدت الحكومة وكبار قادة البلاد عدة اجتماعات اتفقوا خلالها على اختيار رئيس جمهورية جديد عن طريق الانتخاب، وطلبوا من الراغبين الترشيح، ورشح في حينها اللواء الركن العقيلي وزير الدفاع واللواء عبد الرحمن محمد عارف وكيل رئيس أركان الجيش شقيق الرئيس عبد السلام والسيد عبد الرحمن البزاز رئيس الوزراء، وفي الجولة الأولى حصل البزاز على أعلى الأصوات يليه اللواء عبد الرحمن، واعيد التصويت ثانية وحصل البزاز أيضا على أعلى الأصوات عندها تدخل العسكر وبينهم العميد سعيد صليبي آمر الانضباط العسكري وأعضاء مجلس الدفاع الأعلى وأجبروا عبد الرحمن البزاز على التنازل الى اللواء عبد الرحمن، بدعوى عدم انتقال الحكم الى المدنيين وابقاءه بيد العسكر(سعد العبيدي (٢٠١٤ وإد البطل).

حياته ثمناً لها بعد ان توسع هامش البعث بين صفوف العسكر، الذين قادوا انقلاباً عليه، بحركة دموية لم يستطع في انفعال أفرادها أن يحصل على قبر معلوم.
هنا تجدر الاشارة الى أن عبد الكريم قاسم، قد حاول بدوافع مهنيته المعروفة ووطنيته التي لا غبار عليها أن يقلل من توجهات التسييس في القوات المسلحة وأن يطور من كفاءتها، ويعيد تسليحها ويقلل من أثر الطائفية في قياداتها. لكنه لم يستطع بلوغها، نتيجة لتسارع الأحداث الداخلية والخارجية، واخطائه في لعبة التوازن المذكورة، التي قدمت أحزاب سياسية، وضعت اعلى اهدافها ادخال المزيد من الحزبيين الى القوات المسلحة، واستمالة آخرين كمؤيدين لتوجهاتهم السياسية، كما ان رغبته في توسيع حجم القوات المسلحة، وتوجهه الى احالة الضباط المحسوبين على الملكية على التقاعد، فتح المجال أمام الشباب العراقي المسيَّسْ للتطوع في القوات المسلحة دون تدقيق بالانتماء السياسي، فكوّنوا المزيد من الخلايا الحزبية السرية في الوحدات والدوائر والقيادات، كان لها الأثر المباشر في قيام محاولات عدة لقلب نظام الحكم، وزيادة كم الهدم في الضبط والبنية العسكرية.

النفوذ السياسي في القوات المسلحة والتأثير على الضبط

إن عبد السلام الذي جاء من بعد عبد الكريم، ورغم مساعيه الحثيثة لتجاوز أثر التسييس الحاصل في الأشهر التسعة الاولى لحكمه مشاركة مع البعثيين في سعي لترميم الخلل الحاصل في بنية الضبط العسكرية، الا انه لم يستطع التخلص من الاصول الحزبية الاخرى الداعمة له، لأنه وبحكم حاجته لتيار منافس لضرب البعثيين، وبحكم الميول القومية التي حاول التمسك بها ولو ظاهرياً، أبقى التيار القومي الناصري، موجوداً في المؤسسات العسكرية، والأمنية بسعة تنظيمية لا تقل درجة عن الوجود البعثي آنذاك.
كما إن جهوده، وشقيقه عبد الرحمن لم تفلح بالقضاء تماماً على خلايا حزب البعث، التي عاودت تنظيمها السري بشكل كبير في الدوائر والوحدات، خاصة في السنتين الأخيرتين من حكم عبد الرحمن، وبذا عدَّت هذه الفترة، مرحلة تمهيد لعودة الحكم البعثي الثاني عام 1968.
وبدء مرحلة من التاريخ السياسي للقوات المسلحة العراقية، تعد الأكثر أهمية وتأثيراً على واقعها الضبطي والبنائي.
ان البعثيين الذين بدأوا نشاطهم التسييسي الرسمي في العام 1963 بالتركيز على ازاحة الشيوعيين وتوسيع قاعدتهم، عاودوا نفس النشاط بعد العام 1968 وبشكل رسمي أيضاً وذلك بفصل كل الضباط والمراتب المشكوك بانتماءاتهم الى أحزاب سياسية في عملية اجتثاث واسعة في صفوف القوات المسلحة، شملت هذه المرة حلفاءهم ومن تبقى من الشيوعيين والقوميين، والمستقلين والمنتمين الى الاحزاب الكردية في خطوة انهت خدمة مئات الضباط بفترة زمنية قصيرة، أرست قاعدة تسييس وهدم لمستويات الضبط.
ان اقتحام الاحزاب السياسية للجيش والمؤسسة الأمنية، وتعطش البعض للانتظام بها عقائدياً أو نفعياً، أضعف السلطة الضبطية للقادة والآمرين على منتسبيهم وسمح لمشـاعر العدوان في النفس الداخلية لأن تنفلت دون ضوابط ومحددات، وأوجد بالمحصلة سلـوكاً، عند البعض من العسكر، خاصة بين الضباط ذوي الرتب الكبيرة، قوامه التفتيش عن ثمن التنفيذ المبالغ فيه، وعندما لم يحصلوا عليه بطريقة الترقيات التقليدية، أوعن طريق المناصب الأعلى، اتجهوا للانضمام إلى الأحزاب السياسية لتُعينهم على قبض الثمن، ويعينوها على تحقيق أهدافها في السيطرة على الحكم، دون أن نستثني هامشاً ولو قليلاً للمشاعر الوطنية التي أطلقت السياسة لها العنان العشوائي المنفلت، فدفعت البعض من العسكر، خاصة الضباط بالرتب الصغيرة وضباط الصف والجنود للانضمام الى الأحزاب السياسية ظناً منهم أنها قادرة على تحقيق آمالهم وبعض تطلعاتهم الوطنية، فكان طريقاً بشقيه مخالفاً للمعايير العسكرية، وسبيلاً لهدم بنيتها.
ان الحكومات العراقية التي شكلتها المؤسسة العسكرية المُسيَّسة، لم تتوقف عند خطأ تعزيز فكرة الثمن "غير المقصود" بين كبار الضباط، عندما شكلوا أول حكومة لهم من العسكريين المساهمين بالتغيير، والمؤيدين لهم، ولا عند خطأ اللعب على الصراعات الحزبية في المؤسسة العسكرية كما مبين في أعلاه، بل وارتكبوا أخطاءً أخرى أكثر جسامة مثل:
- أبقوا أنفسهم في السلطة تحت بند الاصلح والاكثر وطنية.

- لم يبادروا بتكوين المؤسسات الدستورية القادرة على تنمية وتطوير قدرات ردع مناسبة للدولة.
- لم يحدوا من تطلعات الضباط لتحقيق مكاسب شخصية.
- لم يُفَعّلوا القوانين التي تحرم وجود الخلايا الحزبية في الجيش، ويمنعون وجودها تماماً.
وبذا أبقوا أهداف انقلاباتهم في الدفاع عن المجتمع العراقي، وأرض الدولة العراقية ضبابية وحتى غير منظورة، وبدلاً عنها أصبح السعي للاشتراك المباشر في حكم الدولة، والتدخل في شؤونها أكثر الأهداف وضوحاً في الذاكرة القريبة لعديد من الضباط القادة.
ان مراحل حكم العسكر والجمهوريات التي أنشأوها، يمكن عدها بداية التسييس المنظم للقوات المسلحة، وجمهورية (٨) شباط ١٩٦٣ يمكن عدها نقطة تحول جذري لما يتعلق بعملية التسييس الهادم لضبط القوات المسلحة، اذ بدأت اشارات بعثية واضحة للمطالبة بجيش عقائدي، وبدأ القبول في كلّيتي القوة الجوية والكلية العسكرية والشرطة على الاساس الحزبي، وعن طريق الحرس القومي "الدورة 42 للكلية العسكرية"، واخذت تعقد اجتماعات حزبية في الوحدات العسكرية على مستوى العلن، حتى عجز العسكريون المهنيون وعبد السلام رئيس الدولة آنذاك، من الوقوف بمواجهة التيار المتصاعد للتسييس في فترة حكمه الاولى، وعجز بعض العسكريين القادة المنضبطين عسكرياً من الوقوف ضد تيار يغالي في موضوع التسييس، وضرورة تكوين قوات مسلحة بعثية "عقائدية" قادرة على حماية الحزب وحكمه للدولة[56]. وبهذا فتحوا الابواب واسعة أمام تهديم صرح الضبط العسكري.

[56] . هنا تجدر الاشارة الى انتقال بعض معالم السلوك الخاص بدخول وتدخل السياسة، من تلك الازمنة الى الزمن الجديد بعد العام ٢٠٠٣ إذ لوحظ مع بداية تشكيل الجيش العراقي من جديد تهافت البعض غير القليل من الضباط لكافة الرتب على مقرات الأحزاب والكتل السياسية، عارضين الانتماء اليها والتعبير عن الولاء لها، وأحياناً أن يكونوا عيوناً لها في المؤسسة العسكرية، وتكون هي داعمة لهم في مناصبهم الجديدة. والخطأ الذي حصل هنا أن بعض الأحزاب قدمت قوائم بضباط تسعى الى اعادتهم الى الخدمة وقد أعيد بعضهم، وأصبح ولاؤهم لذاك الحزب على حساب الولاء المفترض الى الجيش.

تبعييث القوات المسلحة، عملية هدم للضبط العسكري

لقد تحرك البعثيون سريعاً وواسعاً في صفوف القوات المسلحة بعد محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم في العام ١٩٦١، حيث الاستثمار الجيد لتلك الظروف، وبراعة تسويقها، وكانت الحصيلة نجاح عسكريي البعث في قلب نظام الحكم الى صالحهم مرتان، وشروعهم في عملية تسييس فور استلام السلطة ثانية في العام ١٩٦٨، والانتقال بعدها وبسرعة أيضاً الى التبعييث، مرحلة متقدمة، لتكوين الجيش، عقائدياً ومنضبط حزبياً، يأتمر بأوامر القيادة السياسية وليس تحت سلطة الادارة العسكرية، وتم هذا على وفق خطة انجزت على مرحلتين تنفيذيتين متداخلتين:

١. الاحتواء.

عندما نجح الانقلاب، وتمت السيطرة على سلطتي الدولة والعسكر، توجه الانقلابيون البعثيون الى احتواء الضباط غير البعثين، وتحييدهم مؤقتاً للاستفادة من خبرتهم في مجال القيادة، وادامة العمل لفترة تتيح الى الحزب الانتشار بين جميع الوحدات والتشكيلات افقياً. وفعلاً قد بدأت عمليات الاحالة على التقاعد للضباط بعد فترة من الانتشار والسيطرة، تقترب من يوم ١٧ تموز في عام الانقلاب المذكور، وتبتعد عنه تبعاً لانتماء الضابط السياسي غير البعثي ومواقفه من الانقلاب، وكانت الاحالات قد تمت لمستويات القادة المعروفين، وتمت بتوجيه تهم عادة ما يكون التآمر محورها الاساسي.

ترافق معها معاودة الاتصال بالضباط من ذوي الميول البعثية السابقة، أي الذين تركوا الحزب بسبب فشل الادارة والانشقاقات الحاصلة، وكذلك مع المتعاطفين والانتهازيين، فبدأت حملة دخول الى المنظمات الحزبية بعد عدة أشهر من الانقلاب، شكلت على وفقها قيادات تنظيمية حزبية عسكرية على مستوى المحافظات تمتد منها الى الوحدات، وهي فترة لم تستمر سنة، تضخم فيها التنظيم البعثي العسكري، وسيطر فيها المسؤول الحزبي على القائد العسكري في أكبر عملية خرق للضبط العسكري.

2. التنفيذ الاجرائي.

ان مسألة التبعيث، يتجاوز تحقيقها على أرض الواقع، مجرد الاحالة على التقاعد والسجن والاجتثاث الى متطلبات اجرائية، تعزز من سلطة الحزب ووجوده، وتزيد من انتشاره وبسط سيطرته، وقد نفذها الانقلابيون متداخلة مع الاولى، وحققوا الآتي:

آ. تعميم نشر المنظمات والخلايا الحزبية البعثية فقط، على كافة وحدات ومؤسسات القوات المسلحة لممارسة العمل السياسي بشكل علني.

ب. استلام الضباط الحزبيين المناصب القيادية خارج أطر القدم والتأهيل، التي اعتادت المعايير العسكرية التعامل معها في سياقات التعيين.

ج. نشر الثقافة الحزبية البعثية التوجيهية على مستوى المنتسبين.

د. التحكم بمنافذ الترشيح والقبول للكليات العسكرية، وحصر القبول فيها للبعثيين والمؤيدين لهم، مع حث الأعضاء والأنصار والمؤيدين للتقديم إليها.

فكان الخريجون من بداية السبعينات والى العام 2003 غالبيتهم من البعثيين انتماءً، أو موالاةً أقرب الى الانتماء المصلحي، وكانوا كثيرين، يفوق عددهم اعداد البعثيين المنتمين عقائدياً.

هـ. تقليص الدراسة في الكليات العسكرية، وضغط المراحل الزمنية لتخريج أكبر عدد من الضباط الأحداث كقاعدة حزبية واسعة. اذ قُبلَ بعد العام ١٩٦٨ في كلية الضباط الاحتياط حوالي (٢٠٠٠) بعثي ومؤيد للبعث في دورتين خاصتين هما الاولى والثانية، منحوا بعد ستة اشهر دراسة عسكرية مكثفة، رتبة نائب ضابط تلميذ حربي، وُزعوا على كافة وحدات الجيش، ليكونوا مسؤولين حزبيين، وعيون للحزب، واساس لتعويض النقص في الضباط نتيجة الاحالة على التقاعد، والعزل التي تصاعدت تدريجياً.
و. قبول أكبر عدد ممكن من خريجي الكليات المدنية في كلية الضباط الاحتياط، واختصار فترة إعدادهم إلى ثلاثة أشهر بدلاً من ستة احياناً، لتأمين نفس الغاية المذكورة في أعلاه .
ز. دفع الشباب المنتمين إلى الحزب ومؤيديه إلى التطوع في صنوف الجيش وأفرع القوات المسلحة، بصفة جنود وضباط صف ومفوضي شرطة مع إغرائهم بالترقية إلى رتبة ضابط مستقبلاً، بضوابط جديدة فرضها الحزب على سياقات التطويع الخاص.
ح. تقريب الجيش من الشارع العراقي، وذلك بتكثيف الاستعراضات العسكرية، والتوسع بإقامة الاحتفالات.
ط. إعطاء الاستخبارات العسكرية دوراً في مكافحة التواجد الحزبي غير البعثي خارج واجباتها، في عملية جمع المعلومات الاستخبارية عن الأعداء والأعداء المحتملين.
ي. تطعيم القيادة القطرية للحزب بضباط من الرتب الكبيرة.
ك. تغيير سياقات الترقية والقبول في كلية الاركان، لتسهيلها أمام البعثيين والدورات الخاصة، خارج سياقات الخبرة والشهادة والعمر، بغية الحصول على أكبر عدد من القادة البعثيين، وهيئات الركن البعثية.
لقد تغيرت الصيغة التنظيمية للحزب في القوات المسلحة بعد العام ١٩٦٨ لغاية العام ٢٠٠٣، مع تزايد أعداد الحزبيين، ليكون التنظيم فرقياً، مشابها للتنظيم المدني، تطور بالتدريج، ليكون في السنين الاخيرة لحكم البعث، ما يقارب قيادة فرقة على مستوى اللواء، وشعبة على مستوى الفرقة، وفرع للفيلق، تتصل بالمكتب العسكري على مستوى القوات المسلحة الذي يرأسه رئيس الدولة، وأصبح المسؤول الحزبي في سياقات العمل، أكثر اهمية وتأثيراً وسلطة ضبطية من الآمر/ القائد.
وعلى هذا الاساس ولغرض تمشية خطط التبعيث من جهة والقضايا العسكرية من جهة ثانية، تم توزيع مسؤولية القيادة في الوحدة والدائرة بين الآمر والمسؤول الحزبي، لتصبح في نهاية الأمر، قيادة من النوع الأقرب للقيادة الجماعية التي يصبح فيها الآمر/القائد عضواً في الخلية الحزبية، يتمتع بصوت فيها، أسوة بضابط الاستخبارات، وضابط التوجيه السياسي، وآخرين بإمرته عسكرياً، يقررون جميعهم جوانب كثيرة من عمل الوحدة خاصة ما يتعلق بالأمور الإدارية والنقل والترقية والترفيه، وغيرها أعمال تؤكد في النهاية أن سلطة الآمر الضبطية، باتت في الصيغة التي يريدها الحزب، وتنفع مسيرته في السيطرة. وبالتالي أصبح الحزب هو المحرك الرئيسي والفعلي للضبط على حساب المهنية العسكرية، بل وأخل به خللاً كبيراً عندما أوكل احياناً لضابط صف ان يكون مسؤولاً حزبياً للضابط "في السني الاولى على اقل تقدير" ولملازم تخرج تواً أن يكون مسؤولاً حزبياً لآمر اللواء ولقائد الفرقة في بعض الأحيان.

ان الاجراءات المذكورة، حدثت بالتعاقب جعلت الحزب يُبنى بطريقة العسكر، وجعلت عموم القوات المسلحة تُبنى بمفاهيم وضوابط الحزب، ليكون الجيش في محصلته النهائية خلية من خلايا الحزب، ويكون الحزب جيشاً واسع الانتشار.
لقد تخللت المرحلة توجهات لمنح رتب عسكرية خارج الاستحقاق، وترقيات ضباط حزبيين تصل الى أكثر من رتبتين لمرة واحدة في بعض الاحيان، اذ منح على سبيل المثال جندي الحماية الخاصة حسين كامل رتبة ملازم تدرج بخمس سنوات ليصل الى رتبة فريق ركن، وشقيقه صدام كامل وصل الى رتبة رائد، وعبد حمود الى رتبة فريق وآخرين غيرهم. وعندما خطط صدام الى الحرب مع إيران منح ضباط أعضاء مكتب عسكري، وفروع وشعب، قدماً ممتازاً لرتبتين بالنسبة الى البعض، وعينوا قادة فرق وتشكيلات، كان لهم دورٌ في صفحة الهجوم الاولى على إيران، غالبيتهم برتبة رائد ومقدم ركن.
وبالمحصلة أصبح الحزب ممثلاً بتنظيماته المنتشرة في كل الدوائر والمؤسسات والوحدات، هي التي تدير القوات المسلحة ميدانياً على وفق:
- فلسفة ضبطية، لا تمت الى الموروث الضبطي المتعلم من قبل بأية صِلة.
- نهج تفكير يأتمر فيها العسكري بأوامر الحزب ويخافه أكثر من تقيده بأوامر وتوجيهات القوات المسلحة وضوابطها.
وبالنتيجة تكون جيشاً فيه الوحدات أقرب الى الميليشيات لم تصمد في حربين متتاليتين انهتها بشكل كامل. من هذا يمكن القول ان التبعييث كان آفة هدمت أركان وبنية الجيش وأخلت في انضباطه، واعطت مبررات حله فيما بعد.
ان عموم النتائج التي جاءت اثر التفاعل الاجتماعي السياسي لتلك الخطوات والتي بعّثتْ، ومن ثم طوّعت القوات المسلحة، كان التخطيط لها منذ البداية، اذ عمل الحزب آلية معقدة للقبول في كلية الأركان والدفاع الوطني والدورات الخاصة، تعتمد على أساس الموافقة الشكلية الأولية للوحدة والقيادة، التي ينتسب إليها الضابط على ترشيحه، تصحبها موافقة أهم للمنظمة الحزبية التي يعمل الضابط ضمن مسؤوليتها التنظيمية، ومن ثم موافقة الاستخبارات العسكرية، والأهم منها جميعاً موافقة المكتب العسكري، الذي يصدر قوائم الترشيح الأولي، ليخضع المتقدمين إلى اختبار نفسي، ومقابلة خاصة، وهذه آلية عمل كانت بقصد وضع الكثير من الفلاتر "أي المرشحات" لإبعاد غير المرغوب بهم عن التأهل للمناصب القيادية في الجيش، وتسهيل قبول من يراد قبولهم حزبياً ومناطقياً.
وفوق هذا وضعت ضوابط مرنة لإعداد وتهيئة ضباط الركن لمناصب القيادة والركن، تتأسس على عدة خطوات تراتبية بينها تنسيب من يكمل الدراسة في الأركان كضابط ركن في مقرات الألوية، لينتقل بعدها إلى مقرات الفرق، ثم يعاود العمل بمنصب مقدم لواء، ليكون مؤهلاً لاستلام منصب آمر وحدة، يقضي فيه عدة سنوات، ينتقل إلى ثاني حركات، ثم أول حركات في الفرقة والفيلق، ليكون مؤهلاً لإشغال منصب آمر لواء، وهكذا يعمل ضابط الركن، كرئيس أركان فرقة ليكون مناسباً لتسلم منصب قائد فرقة.
انها ضوابط وخطوات، تأخذ وقتاً طويلاً، درجت عليها المؤسسة العسكرية آنذاك في ظروف الإعداد المهني الصحيحة، إلا ان المتتبع يجد أن كثيراً من الضباط الحزبيين على وجه العموم لم يخضعوا لها، وقد نسبوا آمري وحدات بعد تخرجهم من كلية الأركان مباشرة، ونُسب آخرون آمرو تشكيلات وهم برتب صغيرة، ولم يعملوا ضباط ركن في المقرات، بينما ضاع

في طول مسافتها كثير من ضباط الركن من مناطق العراق الأخرى، لا يقلون عن أقرانهم البعثيين في مستوى الكفاءة ولا يختلفون عنهم إلا في موضوع الحزبية والمناطقية وأحيانا الطائفية غير المنظورة.
هذا ومع كل تلك الضوابط التي تسهل وصول البعض، وتعيق مسيرة البعض الآخر، وضعت القيادة مَفصَلاً دقيقاً يرتبط بها معنياً بالقبول والترشيح خاصة للكليات العسكرية والدورات الخارجية والدراسات العليا، وعينت مسؤولاً عنه بعثي بدرجة عالية ومن المقربين من الرئيس في غالب الاحيان.

سلطة ضباط الصف في عملية هدم الضبط

لقد سعى البعث، بعد ١٧ تموز ١٩٦٨ للاستحواذ على المفاصل المهمة في الجيش، والسيطرة على إدارة الوحدات العسكرية ذات التأثير المباشر على أمن الحزب والحكومة. ووزّع أعضاءه ومؤيديه على كافة الوحدات العسكرية والأمنية لتأسيس خلايا حزبية، وقواعد استخبارية هدفها الرئيسي مراقبة ومتابعة الضباط غير البعثيين. وأسرع في نقل العديد من الضباط المستمرين بالانتماء إلى حزب البعث إلى وحدات بغداد، خاصة تلك التي اشتركت بالانقلاب مثل اللواء المدرع العاشر، ولواء الحرس الجمهوري، وكتيبة دبابات ١٤ رمضان، والمديرية العامة للاستخبارات العسكرية، ومفاصل تحكم، وسيطرة أخرى مهمة لأمن الحكومة والحزب، رافقها تكوين مفاهيم تخويف وتجنب قسرية في نفوس المنتسبين، من أجهزته الامنية والاستخبارية التي منحت صلاحيات واسعة، وجهد مميز لإتمام فعل التبعيث في صفوفها أولاً.

ومع تلك الاجراءات التراتبية، بدأ الحزب بتقوية سلطة ضباط الصف الأساسية، بإعطائهم قوة وجود داخل الوحدة، خارج دورهم الذي حددته الضوابط والقوانين العسكرية، بالإضافة الى تدخل المنظمة الحزبية في الوحدة لإلزام آمرها مثلاً بتهيئة سيارات ركوب عسكرية لنقل ضباط الصف الحزبيين من المعسكر الى المدينة للترفيه ولحضور ندوات ولقاءات حزبية، في الوقت الذي لا تسمح الضوابط باستخدام العجلات لغير اغراضها العسكرية في بداية تلك الحقبة الزمنية وما قبلها.

فكان هذا تجاوزاً وخللاً ضبطياً قيمياً جعل المراتب يشعرون بقوة وجودهم طرفاً قوياً في المعادلة الضبطية، وجعل الضباط المحترفين من الحزبيين وغير الحزبيين ينأون بأنفسهم عن المحاسبة، فضعفوا طرفاً فيها "المعادلة" بطريقة تفاعل أسهمت في تهديم أسس الضبط العسكري.

علما كان لبعض ضباط الصف دوراً لا يستهان به في فرض السيطرة الحزبية، كما وصل عديد منهم إلى مستويات قيادية عليا في الجيش والاجهزة الامنية، استمروا بالعمل حتى انتهاء النظام، منهم رئيس العرفاء (علي حسن المجيد) الذي منح رتبة "فريق ركن" وشغل منصب وزير الحكم المحلي ومن بعدها وزير الدفاع، وعضو القيادة القطرية للحزب، بالإضافة الى ن. ض (كامل ياسين) الذي تفرغ للعمل الحزبي، ليكون عضو المكتب العسكري، ثم عضو قيادة قطرية، ونائب المفوض (وطبان ابراهيم) وزير الداخلية، ونائب المفوض (سبعاوي ابراهيم) مدير الامن العام، وغيرهم آخرين كان لهم دور كبير في تبعييث المؤسسة العسكرية والامنية، وتهديم انضباطهما وحرفهما عن طريقهما المهني.

ان قوة الدفع هذه لضباط الصف، سحبت المنظمة الحزبية في الوحدة والدائرة لان تكون طرفاً، صاحب قول وفعل في موضوع القيادة والسيطرة، على حساب الآمر/القائد الذي تنازل عن بعض صلاحياته، بطريقة تفاعل أسهمت في تصدع أعمدة القيادة والضبط، في آن معا.

التدجين السياسي للمؤسسة العسكرية
وعملية الهدم المنظم للضبط

إن مرحلة البكر في الحكم البعثي التي دامت إحدى عشرة سنة، وتبعاً للمعطيات التي جاءت فيها والأحداث التي تكررت خلالها، وأساليب التعامل معها، يمكن عدها مرحلة أسست قواعد انحراف وتخريب سحبت الى الهدم والى تصدع الضبط الذي حصل بعدها. لأنها مرحلة شهدت اتجاهات للتخلص من القادة العسكريين الملتزمين بالقيم والتقاليد العسكرية، للتعامل مع الواقع بما يحول دون انهياره، ومهدت لصعود جيل من الحزبيين الانتهازيين الوصوليين الذين يرون في مصالحهم غاية لابد من تأمينها، ولو بوسيلة حرق الآخرين، وتدمير المؤسسة العسكرية، وكان هذا الجيل هو القائد الفعلي للمرحلة الثانية مرحلة الهدم البنيوي.

لقد كانت فترة العقد الأولى أي مرحلة البكر بداية لانحسار الضبط العسكري، لعموم الجيش العراقي لأسباب بينها:

١. التدخل الجاري من قبل الحزب والمسؤولين السياسيين في شؤون الوحدات والآمرين.

٢. الالتفات الى شؤون السياسة أكثر من الجوانب العسكرية.

٣. حرف الولاء بين الضباط وضباط الصف والجنود من ولاء تقليدي للمؤسسة العسكرية، إلى ولاء انتهازي للمؤسسة السياسية، أي الحزب والحاكم.

٤. التقليل المتعمّد لقيمة الضابط في الجيش والشرطة، ولقيمة الوحدة والتشكيل، وإعلاء شأن المنظمة والفرقة الحزبية.

٥. الافراط في العقاب، في عموم المقرات والمراكز والثكنات العسكرية كوسيلة لإيجاد نوعاً من الضبط القسري، والتهديد باستخدامه، وعلى العكس تماماً من سياقات المؤسسة قبل مجيء الحزب، اذ لم يكن لدى القوات المسلحة سجن للضباط قبل العام ١٩٦٨، سوى سجن رقم واحد في معسكر الرشيد، الذي يُستخدم لإيواء السياسيين والعسكريين بالمستويات القيادية المتقدمة، وعندما بنت المخابرات سجنها في السبعينات، وأكملت الاستخبارات العسكرية سجنها الخاص في الثمانينات، وشيدت الامن العامة سجنها بنفس الفترة الزمنية، بات السجن رقم واحد متنزهاً للراحة والاستجمام، بالمقارنة مع اماكن التعذيب الخاصة لتلك السجون، وغرفها الانفرادية التي أسهمت في كسر شوكة الضابط.

كما لم يكن بالإمكان توقيف ضابط قبل العام المذكور، إلا بموافقة رئيس أركان الجيش ولأي سبب كان، ولم يصادف أن عوقب ضابط بعقوبة إلفات النظر إلا ما ندر، وعلى العكس ما بعده، أصبح توقيف الضابط يسبق الموافقة تحقيقاً لمبدأ الأمن، وأصبحت العقوبة مسألة طبيعية واجهها كثير من الضباط، فأوجدوا بالتدريج هذا النوع من الضبط الترهيبي، كبديل عن الضبط الطوعي الذي يبنى في التدريب والتثقيف العسكري، والتعامل وفقاً للمعايير والضوابط العسكرية.

ان تطور رؤى التبعييث ثم التطويع، تخللتهما فلسفة سار عليها قادة الحزب قوامها تدجين العسكر بقصد إبعادهم عن احتمالات التآمر وقلب نظام الحكم، وبدأت فيها أساليب التعامل مع الضباط خارج السياقات العسكرية.

ان الطريق للوصول إلى غاية التبعيث في المؤسستين العسكرية والأمنية، وفي مجتمع مثل العراق لابد وإن يختلف في مجال التطبيق للوصول اليه، المنفذون تبعاً لطبيعة الشخصية،

ونوع التنشئة والالتزام المهني "العسكري والامني"، وتلك كانت من العوامل التي حكمت الأساليب المتبعة طوال حكم الحزب، وبصددها يمكن التأشير أن صدام حسين الذي شغل منصب القائد العام كان غائي في تعامله مع الضباط، ويمكن القول أيضاً ان صدام في تعامله للوصول الى غاية التدجين لم يدركها القريبون منه أحيانا لأنه استخدم أسلوباً فريداً قوامه احداث صدمة في نفوس المتلقين، تدفعهم الى التقرب منه تابعين له "تدجين" وعليه كان يعدم البعض بحضور الجهاز الحزبي، وبعض من اقارب ومعارف المعنيين، يشكل حضورهم واطلاعهم واحياناً مشاركتهم بالتنفيذ صدمة في الجهاز العصبي للضباط الذين كانت لهم ارتباطات نفسية مع المعدومين بحكم التعامل وإياهم لفترة من الزمن ليست قصيرة على وجه الخصوص، صدمة تساعد على تقبل كل جديد يأتي من مصدرها "الحاكم ومساعدوه" وإن كان الجديد من النوع غير المألوف بالنسبة إليهم.

انها صدمة انفعال تعممت في نفوس العسكريين من خلال إشعارهم أن قادتهم أو معارفهم قد تم التعامل معهم، وتصفية البعض منهم بطريقة بشعة، جعلتهم يتجنبون، ومن ثم يبتعدون عن المساس أو التفكير بالتقرب من أي مثير يتعلق بالحاكم.

لقد جرى التركيز وطيلة فترة حكم البعث على القادة الجدد، وجرى صياغة السلوك في التعامل معهم على أساس الشك، والتوجس المستمرين لإبعادهم عن التفكير بأي احتمالات للتجاوز على القيادة، ودفعهم لان يكونوا عيناً مضافة لها في متابعة، ومراقبة معيتهم، التي تمهد جميعها الى فرض سلطة الحزب المتمثلة بأمينها العام على العسكر، ليكون التحرك، أي تحرك مسيطر عليه حزبياً، وتكون الادارة ذات منحى حزبي، ويكون نهج تفكير الآمر المعني في التعامل مع معيته من مستوى الفصيل صعوداً الى الوحدة والتشكيل والى أعلى مستوى قيادي، بطريقة حزبية، يحسب فيها العائد حزبياً ومخرجات الضبط حزبية.

ان القيادة العسكرية العليا آنذاك قد ذهبت كثيراً إلى الأمام في التعامل الخاص مع هدف التدجين إلى المستوى الذي لا يعني التوقف عند عقائدية المؤسسة العسكرية كما يراها الحزب الحاكم، بل وتسييرها ذاتياً، بطريقة يكون الحاكم "الرئيس" فيها الصورة المثلى للقائد العسكري الأعلى، والمستقبل المشرق للضابط المَرضيٌ عنه في:

- ترقية بلا ضوابط.
- إثراء بلا حدود.
- أمن مرتبط بديمومة الرضا والتأييد.

ان نتيجة هذه الأفعال لم تفقد المؤسسة العسكرية مهنيتها فقط، بل وفقدت في المراحل الأخيرة من الحكم انضباطها وهيبتها أيضاً، من خلال التهويل والمغالاة، بعد ان أراد لكل شيء ان يكون كبيراً، وكل وصف ان يكون عظيماً، حتى الفعل المطلوب لضبط سلوك العسكريين وتدجينهم لابد وان يكون شديداً، والاجهزة المعنية بفرضه لابد ان تكبر وتتوسع حتى تضخمت جميعها، وبات العقاب الذي يحدده لأبسط المخالفات أو الهفوات اعداماً، وأضحت المسافة صفراً بين البراءة والاعدام بقرار من الحاكم الأعلى شخصياً أو بمحاكمة صورية، حتى نفذ حكم الاعدام بأعداد ليست قليلة من العسكريين، وتبين فيما بعد براءتهم من التهم الموجهة لهم وعد بعضهم شهداء. انه تضخيم يتوافق وموضوع تكوين الصدمة في السلوك المطلوب تدجينه.

ومع هذا التضخيم أوجد الثمن المطلوب دفعه "لكل شيء ثمن" فلسفة أو رؤية مغالى فيها داخل عقله، طبقت بشكل دقيق في المؤسسة العسكرية من زاوية تتجاوز دفع ثمن الوقوف مع الحزب، الى دفع ثمن الحيلولة دون حدوث فعل بالضد منه.
في الاول يكون الثمن اثابة مغالى فيها:
- قروض بلا فوائد.
- سيارات شخصية.
- زيادات كبيرة في الرواتب.
وفي الثاني عقاب مغالى فيه أقله:
- اعدام في الاماكن العامة.
- سجن في أماكن غير معروفة.
- احتجاز لمدد غير معلومة.
تناقض لم يفهمه الحزبيون والعسكريون في البداية، من هذا يمكن الاستنتاج أن مرحلة حكم البعث (١٩٦٨ – ٢٠٠٣) ووجود صدام كقائد عام للقوات المسلحة كانت المرحلة الأكثر سعة في مجال التدجين، والتهديم المنظم للضبط والقيم العسكرية بكل المعايير العلمية والعملية.

الخاتمة

العسكرية نظام قوامه الضبط، وأعراف وتقاليد أساسها الالتزام بهدف إعانة منتسبيها وتطبيعهم على تنفيذ واجباتها التي تتسم بالخطورة والقسوة معاً، ففي حالة الحرب وعند اشتداد المعارك يمكن ان يجد المقاتلون أنفسهم أمام واحد أو أكثر من مواقف بينها:

- بمواجهة العدو أي الوقوف أمامه وجهاً لوجه بعد عدة أيام من التنقل والتعب والارهاق.
- الدفاع عن مواضعهم اتجاه ضغط العدو واحتمالات الطقس وتقلباته.
- البقاء في حالة الترقب بانتظار هجوم للعدو غير محدد توقيتاته.
- التواجد تحت شد الانتظار والتوتر العصبي للهجوم على عدو يتفوق بمقادير القوة.

ان هذه مواقف قتال لا قيمة مطلقة ولا أهمية حاسمة في جميعها لعامل تأثير في السيطرة على الانفعالات سوى الضبط العسكري، اذا ما تم الأخذ في الاعتبار أنها مواقف تصنف من الناحية النفسية جميعها خطرة، وبسببها وعوامل أخرى عد الضبط قوام العسكرية وأحد أهم عوامل التأثير على الأداء العسكري القتالي.

ان مسألة الضبط لا تتعلق بحالة الحرب وقسوة المعارك ولا بشدة وقعها فحسب، بل انها ذات صلة مباشرة بظروف السلم التي تسعى القطعات خلالها الى الاستعداد لحالة الحرب من خلال البرامج التدريبية، ونوع التجهيز والتسليح، وإدامة الضبط، وأساليب التوعية والدعم المعنوي بهدف إعداد مقاتلين أكثر فاعلية، وإمكانية للتعامل مع ظروف الحرب الحديثة ومتغيراتها العديدة وضغوطها المختلفة.

ان الضبط سلوك يجري تلقينه، أو تعليمه لكافة العسكريين منذ التحاقهم الى الخدمة فيها، وحتى انتهائهم منها، على وفق إجراءات وممارسات تدريبية خاصة، ومن خلال التعامل اليومي والانتماء الرسمي لوحدات وتشكيلات وفرق، ومؤسسات أخرى تحتم سياقات العمل والاوامر الثابتة خلالها الانتظام وتطبيع منتسبيها بطابع خاص أساسه الالتزام.

ان كل تلك الجهود والإجراءات المخصصة لإيجاد حالة الضبط، وتعزيزه في سلوك المقاتلين من الأهمية حداً باتت تعده كل جيوش العالم وبضوء خبراتها في الحروب والتهيؤ لها على انه أحد العناصر الرئيسية لتحسين مستوى الأداء، وعامل مهم من عوامل الصمود وكسب المعارك وتحقيق التفوق على الأطراف المقابلة في المواجهة.

المصادر العربية

١. الدباغ فخري ومهدي قيس عبد الفتاح (١٩٨٦) علم النفس العسكري، بغداد، جامعة بغداد.
٢. العبيدي، سعد(١٩٨٨) الضبط العسكري، مديرية التوجيه المعنوي، بغداد.
٣. دافيدوف، ل. لندا، **(1983)**مدخل علم النفس، ترجمة سيد الطواب، دار ماكجروهيل، القاهرة، مصر.
٤. زهران، حامد (١٩٧٧)، علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب، القاهرة.
٥. أحمد عكاشة (١٩٨٠) الطب النفسي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
٦. ناجي قاسم (٢٠٠٧) علم النفس التعليمي، كلية التربية، جامعة الاسكندرية، مصر.
٧. أحمد محمد عبد الخالق (٢٠٠٢)، أسس علم النفس، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، مصر.
٨. علي، جمال سلامة (٢٠٠٦) النظام السياسي والبناء الاجتماعي، النموذج الواقعي لتحليل النظم السياسية، دار النهضة العربية، بيروت.
٩. الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر، الأحد ٢٤ شوال ١٤٢٨ العدد ١٢٨٠.
١٠. سلسلة تشخيص الاضطرابات النفسية، اضطرابات الضغوط التالية للصدمة (ب ، ت) مكتب الانماء الاجتماعي، الديوان الأميري، الكويت.
١١. لويس كامل مليكة (١٩٨٠) علم النفس الكلينيكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
١٢. مديرية البحوث والخدمات النفسية (1988)العمل النفسي الميداني، وزارة الدفاع، بغداد.
١٣. أوتوفينخل، ترجمة صلاح مخيمر وعبدة رزق(١٩٦٩) نظرية التحليل النفسي في العصاب، ثلاثة أجزاء، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.
١٤. البصائر، الشجاعة والضبط، العدد ٩ تموز ١٩٨٧، مديرية البحوث والخدمات النفسية، بغداد.
١٥. العبيدي، سعد (١٩٨٨)، الضبط العسكري، مديرية البحوث والخدمات النفسية، بغداد.
١٦. البصائر، التدريب على الضبط، العدد ١٠ أيلول ١٩٨٨، مديرية البحوث والخدمات النفسية، بغداد.
١٧. العبيدي، سعد (٢٠١٥) الشجاعة والخوف في المعركة، مركز الشرق للبحوث والدراسات، بغداد.
١٩. التحسس الوجداني
٢٠. هيئة التوجيه السياسي والمعنوي، وزارة الداخلية والأمن الوطني الفلسطينية، المقدم تامر شحادة.
٢١. أحمد شوقي عبد الرحمن (١٩٤٨) فن القيادة وعلاقته بعلم النفس العسكري، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
٢٢. محمد جمال الدين علي محفوظ (ب، ت) المدخل الى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الاسلامية، دار الاعتصام.
٢٣. الجمهورية اليمنية، الشرطة العسكرية، بحث منشور على الموقع.

٢٤. خوري توما، جورج (١٩٩٦) الشخصية مقوماتها، سلوكها، علاقتها بالتعليم، المؤسسة الحامضة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
٢٥. أحمد عزة راجح (١٩٨٧) أصول علم النفس، دار المعار، القاهرة.
٢٦. زيور، مصطفى (١٩٨٨) في النفس، دار النهضة العربية، بيروت.
٢٧. سعد العبيدي (٢٠١٥)، وأد البطل، نهاية جيش وملحمة وطن، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
٢٨. عزة محمد مصطفى وآخرون (ب. ت) مدخل الى علم النفس العام، جامعة حلوان، كلية الآب، قسم علم النفس.
٢٩. العيسوي، عبد الرحمن (ب. ت) العلاج النفسي. دار المعارف الجامعية، الاسكندرية.
٣١. الطيب، محمد عبد الظاهر (1989)تيارات جديدة في العلاج النفسي، الاسكندرية، دار العرفة الجامعية.
٣٢. جرجس، ملاك (1983)سيكولوجية الإدارة والإنتاج، الدار العربية للكتاب، تونس.
٣٣. زهران، حامد عبد السلام (١٩٨٧) الصحة النفسية والعلاج النفسي، عالم الكتب، القاهرة.
٣٤. ستورا، جان بنجامان (١٩٩٧) الاجهاد، منشورات عويدات، بيروت.
٣٥. إبراهيم، عبد الستار (1998)الاكتئاب، اضطراب العصر الحديث، عالم المعرفة، الكويت.
٣٦. أسعد، يوسف ميخائيل (١٩٨٦) علم الاضطرابات السلوكية، مؤسسة النور للطباعة، دمشق.
٣٧. سيد محمد خير الله وممدوح الكناني (١٩٨٣) سيكولوجية التعلم بين النظرية والتطبيق، دار النهضة العربية، بيروت.

المصادر الأجنبية

18. Social Isolation Among Seniors: An Emerging Issue. British Ministry of Health. 2004. Columbia.
30. Young J. and Dobler, M. (1983) Anxiety states, Panic Angst, general population -World. Psychiatry congress and Phobia in a proceedings, Vienna, plenum.